التبيان

في

أقسام القرآن

تأليف

العالم العلامة ناصر السنة وقامع البدعة الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر
المعروف بابن قيم الجوزية عليه رحمة رب البرية
المتوفى سنة ٧٥١ هـ

الجزء الأول

حققه وضبطه ونسقه وصححه وعلق عليه بعض التعليقات النافعة

محمد زهري النجار

من علماء الأزهر الشريف

ملتزم الطبع والنشر

المؤسسة السعيدية بالرياض

لصاحبها

فهد بن عبد العزيز السعيد

شارع الخزان هاتف : ٢٥٥٦١ ـ سجل تجارى ٦٦٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، أَحمده سبحانه وهو أَهل الحمد ، وأَشهد أَن لا إله إلا الله وحده لاشريك له تفضَّلَ وتكرَّمَ وأَنزل فى مُحْكَم كتابه [علَّم الإِنسان ما لم يعلم] وأشهد أَن محمدا عبده ورسوله وصفيه من خلقه أَرسله الله رحمةً للعالمين وإِماماً للمتقين صلى الله عليه وعلى آله وأَصحابه ومن تبعه على هديه إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيراً .

وبعد فإِن كتاب «التبيان فى أَقسام القرآن» تـأَليف العلامة شمس الدين أَبى عبدالله محمد بن أَبى بكر بن قيم الجوزية رحمه الله من أَنفس كتبه ، وقد طُبع قبل ذلك ولكن لم يَحْظَ بالعناية اللائقة به ، فلم يختر له من الورق والحرف والتجليد ما هو جدير به .

وقد أَشار علىَّ بعض الإِخوان أَن يكون ضمن منشورات مؤسستنا ورغبةً فى نشر العلم وتعميمه ، قامت المؤسسة السعيدية ، بالرياض بنشره . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

فهد بن عبد العزيز السعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، رب العالمين ، وإله المرسلين ، وفاطر السموات والأرضين .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، المبعوث رحمة للعالمين ، وحجة للسالكين ، وحجة على جميع المكلفين أنار الله به الطريق للمفلحين ، وأوضح بهديه سبيل السعادة للمهتدين ووفق خير الخلق وأحبهم إليه ، إلى الاستضاءة بنور اليقين ، وأن يُشْربوا قلوبهم بمحبته أكثر من أنفسهم والأهل والأقربين .

اللهم صل وسلم وبارك عليه فى الملأ الأعلى ، وفى كل وقت وحين ، وزده يا ربنا ، شرفاً وكرماً ورفعة ، وارفع درجته فى أعلى الفردوس الذى هو أعلى عليين ، واجزه عنا أحسن ما جوزى نبي عن أمته فى الغابرين .

واحشرنا فى زمرته مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بمَنِّك ، وكرمك ، يا أرحم الراحمين .

وما توفيقي إلا بالله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المصحح

الحمد لله حمداً كثيراً طيبامباركاً فيه والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين ، سيد الخلق على الإطلاق ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه الهادين المهديين .

وبعد ، فمن تأمل فى التراث الإسلامىّ وآثار علمائه فلا يسعه إلا أن يقف مشدوها ، إذ يجدهم قد ضربوا بأوفر سهم فى كل لون من ألوان الثقافة سواءٌ كانت من العلوم العربية أو الدينية ، أو غيرها .

وقد اتجه الجم الغفير من العلماء إلى التأليف فى علوم القرآن وكثرت التفاسير ، واتَّجه كل مفسر وجهة يرضاها .

فبعضهم كشف عن بلاغة القرآن ، كالزمخشرى فى فى كشافه ، والبعض الآخر اتجه إلى الناحية النحوية ، وإعراب المشكل من كلمات القرآن واختلاف القراءات كأبى حيان والبعض الآخر اتجه إلى تفسير آيات الأحكام كالجصاص ، وابن العربى ، والبعض الآخر فى الناسخ والمنسوخ وهكذا .

ثم جاءَ الإمام ابن القيم ، وأَفرد الآيات التى أَقسم الله بها ، ففسرها وأَودع فى هذا المؤلَّف من الأَسرار العربية والْحِكَمِ القرآنية ، ما نترك تفهُّم ذلك كله للقارئ . ولا أَعلم أَن أَحدًا سبق ابن القيم إلى هذا العمل .

ولما كان الكتاب بهذه النفاسة ، انتدب إلى نشره الأَخ فهد بن عبد العزيز السعيد ، صاحب المؤسسة السعيدية بالرياض ، وعهد إلى هذا العاجز تحقيقه ، وتصحيحه .

فقمت ، بقدر استطاعتى ، على تنسيقه وتصحيحه وإخراجه بهذه الحلة الزاهية .

فجاءَ الكتاب ـ بحمد الله ـ بصورة تَقَرُّبها أَعين القراءِ

(عملى فى هذا الكتاب)

اطلعت على الطبعة الأُولى من هذا الكتاب الذى طبع بالمطبعة الأَميرية بمكة سنة ١٣٢١ هـ فوجدتها كثيرة الأَخطاءِ ، والظاهر أَن الناشر عثر على أَصل مخطوط كثير التحريف والخطأ ، فطبعه طبق الأَصل .

ثم اطلعت على الطبعة التى صححها الشيخ محمد حامد

الفقى ، بمعاونة الشيخ محمد محيي الدين رحمهما الله تعالى المنشورة سنة ١٣٥٢ هـ الموافق لـ١٩٣٣م ، فوجدتهما قد بذلا جهداً مشكوراً ، غير أن الشيخ محمد حامد الفقى قد تحمل العبء الأكبر ، فقرأت هذه الطبعة فأصلحت ما فاتهما وعلقت بعض التعليقات المفيدة التى توضح المعانى اللغوية وبعض الفوائد العلمية علاوة على التعليقات الموجودة فأبقيتها لأنى وجدتها سديدة ومفيدة

نشأة ابن القيم

نشأ ابن القيم رحمه الله ، فى زمن خيَّمتْ فيه سحائب البدع والخرافات على العالم الإسلامى ، وذلك ما يعبر عنه الآن بالقرون الوسطى المظلمة ، حتى كادت تلك الآراء السخيفة ، تذهب بنور الإسلام .

فأصبح الناس لا يعرفون صورة الإسلام الحقيقية ، بل تمسكوا بالبدع والخرافات وما ورثوه عن الآباء من التقليد الأعمى ، والآراء السخيفة ، والعصبية المذهبية ، والانصياع إلى تأويلات الجهمية ، فى أسماء الله وصفاته ، حتى احتجبت شمس العقيدة السلفية النيرة من قلوب الناس ، وغربت من أذهانهم .

ولكن الله الذى تكفل بحفظ شريعته ، يبعث من يجدد للناس أمور دينهم بالحجة الدامغة ، وناصع البرهـان .

فى هذا الوسط نشأ ابن القيم ، وتعلَّم وتثقف ، وتبحر فى الفقه والحديث والتفسير ، والعلوم العربية ، فخرج منها بأوفر نصيب .

فحينما استوى ، وبلغ أشده من العلوم ، نظر فرأى سوق الحرب قد قامت على قدم وساق . واستعرَّت نيرانها بين جيوش أهل البدع الكثيفة ، يساندها الملك والسلطان ، وذوو السطوة ، وبين جيش الحق القليل العدد والعُدَّة ، المتدرع بالحق وناصع الحجة والبرهان يحمل لواءه ويقوده الإمام شيخ الإسلام ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية المتوفى سجين الظلم بقلعة دمشق سنة ٧٢٧ هـ .

وكانت رحى الحرب دائرة بين الفريقين فى ميدان توحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الألوهية والربوبية ، وأن يوصف الله بما وصف به نفسه ، من غير تحريف ، ولا تأويل ، ولا تعطيل ولا تشبيه ، ولا تمثيل ، وأن لا يصرف

شيءٍ من العبادة لأحد من الخلق، سواءٌ كان مَلَكًا مُقَرَّباً أَو نبياً مرسلًا، أَو وَلِيًّا صالحاً، ميتا كان أَو حيًّا، خصوصاً، الدعاءُ والنذر، والاستغاثة، والتوكل.

موقف ابن القيم

وقف ابن القيم ينظر من كَثَب إلى هذين الجيشين المتطاحنين، على ربوة الإنصاف، ينظر إلى هذا مرة، وإلى هذا أُخرى، يستعرض سلاح الباطل، فيراه محاطا بأُبَّهة الملك والإمارة، وبهجة الجاه وزخرف الدنيا، فتميل نفسه إلى الانضمام إلى صفوفهم والانضواء تحت رايتهم.

ولكن استبحاره فى العلم، ومعرفته التامة للحق، يمسكان بزمامه، ويُذَكِّرانه قوله تعالى:

[وَإِنْ تُطِعِ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ].

وأَمثاله من الآيات، التى تَنصَبُّ على جذوة هذه الكثرة، وما يحيط بها، من زخرف فاتن، وزينة مغرية، فتذرها رمادًا تذروه عواصف التفكير الصادق، والفكر الرزين.

فيترك علامتنا هذه المغريات ، ويُوَلِّى وجهه إلى ناحية الآخر ، فيرى من أَسلحته وعتاده ، نور الهداية يسطع ، ويبصر من قادته وجنده ، قوة اليقين بحقهم ، المدعم على أَساطين كتاب الله وهَدْى السلف الصالح - تزعزع ما يظنه الجاهلون جبالًا من كثيب أَوهام الخرافيين .

ويرى قائدهم ، يكر صائحاً بخصمه وبيمينه كتاب الله تعالى ، وبشماله سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيبدد شمل هذه الجحافل وهو يصيح بهم :

تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، هلموا إلى أَصدق الحديث ، ودعوا محدثات الأُمور ، والآراء الضالة غير المعصومة ، طهروا عقولكم من العصبية للآباء والأَشياخ ، واعرفوا الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال واعرفوا قدر الصادق صلى الله عليه وسلم الذى لاينطق عن الهوى ، ولا تُسَوُّوا به غيره ممن لم يُؤْت من العصمة ، مثل ما آتاه الله ، الذى اصطفاه وأَرسله رحمة للعالمين .

نظر علامتنا ابن القيم ، شيخ الإسلام ابن تيمية قائماً فى وسط هذه المعمعة ، بيمينه كتاب الله وبشماله سنة رسول الله ، يدمغ بهما باطل خصومه الكثيرين

فتصفرُّ منهم الوجوه ، وتخرس الألسنة ، فَيخِرُّ باطلهم صَعقًـا .

وسرعان ما يلجأُون إلى القوة الغاشمة وسلاح المفترى الظالم ، شأن المفلس من العلم والحجة ، فيستغيثون بجهلة الحكام ، ويستجيرون بالدهماء والطغام ، ليدرءُوا هذا الخزى عنهم ، بحبس ابن تيمية الظافر .

فيذهب المجاهد الصابر إلى حبسه مسروراً ، بما يلاقى فى سبيل الله من أذى ، لا يَهنُ ولا يحزن ، لأن العاقبة دائماً للمتقين

فلما رأى ابن القيم ذلك ، ملك عليه كل حواسه ، فانضم إلى ذلك المجاهد العظيم ، ابن تيمية ، يشد من عضده ، وينافح عن حقه ، ويلقى مايلقى من أذى فى سبيل إعلاءِ كلمة الله ، وإذلال كلمة الباطل .

ولبثا على ذلك دهراً ، حتى آتاهما الله النصر والظفر المبين .

فانقشعت تلك السحب السوداءُ عن عقول كثير ممن أَسعدهم الله بالانضواءِ تحت لواءِ هذين الإمامين ، وتكوَّن لهما حزب قوىٌّ ، يناضل ويجاهد ، ويبث دعوة الحق ،

وينشر نور العلم الصحيح ، بعزيمة صادقة يكشف للناس دائماً عن زغل هؤلاءِ المبتدعة وتضليلهم ، شأن حزب الله ، الذين لايرهبون ، ولايخشون سطوة أُولئك الذين عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله [لاتزال من أُمتى طائفة على الحق لايضرهم من خالفهم ، أَو خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك] .

غاظ رؤساءِ الباطل ما أُوتى حزب الله المفلح من نصر وظفر ، وماهدى الله على أَيديهم من قلوب قد استنارت بالحق بعد العمى ، ومابصَّر من نفوس أُفلتت من مرتع الجهالة والضلال والشرك ، إلى روضة العلم والهدى والتوحيد الصادق .

فعمدوا إلى سلاح آخر ، لا يلجأ إليه إلا الحمقى الأَفاكون .

ذلك أَنهم أَخذوا يفترون الكذب على شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم ، ويُقوِّلونهما مالم يقولاه ، ويحرفون أَقوالهما الطيبة عن مواضعهما ، ويكتمون الحق وهم يعلمون .

وما ذلك إلا ليشوهوا سمعتهما عند الناس ، وليصرفوا

عنهما الخلق حتى لايستمعوا لقولهما ، ولايصغوا لحجتهما

فعلت هذه الفعلة الشنيعة بعض الأَثر ، وصرفت كثيراً من الناس وقتاً مّا ، عن مناهل كتب الشيخين ، وحرمتهم عن صافى وردها العذب .

وغلب ذلك على بعض الجاهلين المتعصبين ، حتّى خيل إليهم جهلهم ، وصورت لهم عصبيتهم ، كتبهما أفاعى أو عقارب ، يخافون أن تلدغهم إذا لمسوها .

ولكن طائفة الحق ، مازالت تعمل باذلة كل مجهود فى محاربة هذى الفِرَى ، ودحض تلك الأَكاذيب ، واجتثاث بذورها المفسدة من رءُوس أُولئك المساكين ، حتى وصلت اليوم – بحمد الله – إلى قسط كبير من بغيتها . وهى – لابد إن شاء الله – واصلة إلى ما هو أَكبر من ذلك ، محققة كل مايتمناه المخلصون لدينهم ، من الرجوع دائماً إلى ما كان يدعو إليه الشيخان ، من التحاكم إلى الكتاب والسنة وعمل الصحابة ، والاقتناع الصادق بأَن هذا هو العلم الصحيح ، الذى يأْخذ بالناس إلى أَسعد السعادة وأَرغد العيش ، كما قال ابن القيم الله .

الْعِلْمُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ
قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُوا الْعِرْفَانِ
لَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً
بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلَانِ

لقد أصبحنا – بتأييد الله ، ثم بجهود الطائفة السلفية المباركة – نسمع ألسنة أهل الفضل والعلم تلهج بالثناء على الشيخين ، وتحُضُّ الناس على قراءة كتبهما ، لأنها أوضح السبل دلالة على سنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة ، وأقوى المعاول على هدم البدع والخرافات .

ولقد امتاز الشيخان من بين علماء عصرهما مما جعل لهما أثراً صالحاً يبقى على ممر الأيام ، ولسان صدق يعطر الأندية والمجالس بحسن الثناء عليهما ، ما توالى الجديدان .

ذلك ، أنهما أَمْعَنَا فى القرآن تدبُّرًا ، وغاصا فى بحاره تَفكُّرًا ، بعد أن ملآ جعابهما من علوم السنة المطهرة ، وأترعا قلبيهما من أقوال السلف الصالح ، وأحاطا إحاطة نادرة المثال ، بصنوف من ضروب الفلسفة ، ونظريات

لعلوم الرياضية والفلكية ، وانكشف لهما عن دقيق فلسفة التاريخ ، وعلل الحوادث .

فكان من كل هذه الفنون والعلوم والنظريات ، التى اجتمعت لهما ، مع الإخلاص لله ، والصدق فى حبه وحب دينه وحب نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، حبا تغلغل فى أَعماق نفوسهما ، وامتزج بلحمهما ودمهما - أَن فتح الله لهما من أَبواب علوم القرآن ، ما أُغْلِقَ دون غيرهما ، واستبان لهما من طرق العلم والهداية ، ما عمِىَ على خصوصهما .

ففاض ذلك على لسانيهما حججا فى المجالس ، دامغة للشبهات والشكوك ، وأَعلاماً للحق مرفوعة ، وتفجرت من أَقلامهما على الصحائف والأَوراق ، غرراً ودرراً ، تفخر بها الأَيام ، ويتنافس فى اقتنائها العلماءُ الأَعلام .

ولذلك نهضت كتب الشيخين من كبوتها ، وبدأَ نورها يسطع من المطابع فى المكاتب والمجالس ، فيجلو الغياهب ويكشف الظلمات ، وبدأَت الثقافة الإسلامية الحقة ، تفيض على قلوب أَهل العلم وأَلسنتهم من سطورها

وحين ذاقوا لذتها ، واجتلوا من محاسنها ، شغفوا بها كُلَّ الشغف . فما يكاد يطبع واحد منها ، إلا وتتلقفه الأَيدى من جميع الأَقطار الإسلامية ، فلا يلبث أَن تنفد نسخه ، فيعاد طبعه وهكذا ، فهنا خرست أَلسنة المفترين وذل حزب الشياطين ، يرجع فضل ذلك كله بعد فضل الله إلى ما تبذله الطائفة السلفية من جهود صادقة .

ترجمة المؤلف

بقلم تلميذه العلامة الحافظ عبد الرحمن بن رجب الحنبلى ، الذى ختم بها كتابه ذيل طبقات الحنابلة . قال رحمه الله :

محمد بن أَبى بكر بن أَيوب بن سعد بن حريز الزُّرعى ، ثم الدمشقى ، الفقيه الأُصولى ، المفسر ، النحوى ، العارف . شمس الدين ، أَبو عبد الله ابن قيم الجوزية ، شيخنا .

ولد سنة ٦٩١ هـ سمع من الشهاب النابلسى العابد ، والقاضى تقى الدين سليمان ، وفاطمة بنت جوهر ، وعيسى المطعِّم ، وأَبى بكر بن عبد الدايم ، وجماعة .

وتفقه فى المذهب ، وبرع وأَفتى .

ولازم الشيخ تقى الدين أحمد بن تيمية ، وأخذ عنه ، وتفنن فى علوم الإسلام .

وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه . وبأصول الدين ، وإليه فيهما المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لا يلحق فى ذلك ، وبالفقه وأصوله ، وبالعربية ، وله فيها ، اليد الطولى ، وبعلم الكلام وغير ذلك .

وعالما بالسلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ، ودقائقهم ، له فى كل هذه الفنون ، اليد الطولى .

قال الذهبي فى المختصر : عُنِىَ بالحديث ومتونه ورجاله ، وكان يشتغل فى الفقه ويجيد تقريره ، وفى النحو ويدريه ، وفى الأصلين .

وقد حبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل . وتصدر للاشتغال ونشر العلم .

قلت : وكان - رحمه الله - ذا عبادة وتهجد : وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتألُّه ولَهَج بالذكر ، وشَغَف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله تعالى ، والانكسار إليه والاطِّراح بين يديه ، على عتبة عبوديته .

لم أشاهد مثله فى ذلك ، ولا رأيت أوسع منه علماً ، ولا أَعْرَفَ بمعانى القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه .

وليس هو بالمعصوم ، ولكن لم أر فى معناه مثله .

وقد امتحن وأُوذِى مرات ، وحبس مع الشيخ تقى الدين ابن تيمية فى المدة الأخيرة بقلعة دمشق ، منفردًا عنه ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ ،

وكان مدة حبسه ، مشتغلا بتلاوة القرآن ، وبالتدبر والتفكر .

ففتح عليه من ذلك خير كثير وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة .

وتسلط — بسبب ذلك — على الكلام فى علوم أهل المعارف ، والدخول فى غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك

وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة . وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف ، أمرا يتعجب منه .

ولازمت مجالسه قبل موته ، أزيد من سنة ، وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة . فى السنة ، وأشياء من تصانيفه وغيرها .

وأَخذ عنه العلم خلق كثير ، من حياة شيخه ، وإلى أَن مات ، وانتفعوا به .

وكان الفضلاءُ يعظمونه ويسلمون له ، كابن عبد الهادى وغيره .

وقال القاضى برهان الدين الزُّرعى عنه : ماتحت أَديم السماءِ أَوسع علما منه .

ودرَّس بالصدرية ، وأَمَّ بالجوزية مدة طويلة ، وكتب بخطه مالا يوصف كثرة ، وصنف تصانيف كثيرة جداً فى أَنواع العلم .

وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه واقتناءِ كتبه ، واقتنى من الكتب مالم يحصل لغيره .
فمن تصانيفه :

١ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية . طبع فى الهند سنة ١٣١٤ هـ وفى مصر بالمطبعةالمنيرية سنة ١٣٥٠ هـ .

٢ أَحكام أَهل الذمة . طبع بدمشق سنة ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م بتحقيق الدكتور صبحى الصالح .

٣ أَخبار النساءِ (طبع فى مصر سنة ١٣٠٧ هـ وسنة

١٣١٩ هـ منسوبا إليه ولم يذكر أحد من المحققين أنه له) .

٤ أسماء القرآن الكريم ، ذكره فى كشف الظنون .

٥ الإعلام باتساع طرق الأحكام (ذكره فى إغاثة اللهفان ج ٢ : ١١٩ .

٦ أعلام الموقعين عن رب العالمين طبع فى الهند سنة ١٣١٣ هـ وفى مصر مطبعة فرج الله الكردى سنة ١٣٢٥ هـ ثم تكررت طبعاته فى مصر

٧ إغاثة اللهفان فى حكم طلاق الغضبان (طبع فى مطبعة المنار سنة ١٣٢٢ هـ) .

٨ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (طبع فى مصر مطبعة مصطفى الحلبى مرتين) .

٩ أمثال القرآن .

١٠ بدائع الفوائد (طبع بالمطبعة المنيرية فى ٤ أجزاء)

١١ بطلان الكيمياء من أربعين وجها .

١٢ بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل ، وفى كشف الظنون (بيان الاستدلال على بطلان مجتلى

السباق والنضال (ولعلهما كتاب واحد .

١٣ التبيان فى أقسام القرآن (طبع فى مكة سنة ١٣٢١ هـ
وفى مصر سنة ١٣٥٢ هـ

١٤ التحرير فيما يحل ويحرم من لبس الحرير .

١٥ التحفة المكية .

١٦ تحفة المودود فى أحكام المولود (طبع فى لاهور
(الهند) سنة ١٣٣٩ هـ ثم أعيد طبعه فى الهند أيضاً
وطبع فى مصر .

١٧ ـ تفسير سورة الفاتحة (طبع فى مصر) .

١٨ تفسير المعوذتين (طبع فى مصر) .

١٩ تفضيل مكة على المدينة .

٢٠ تهذيب مختصر سنن أبى داود للمنذرى وإيضاح
مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة
(طبع فى مصر فى ٨ مجلدات سنة ١٣٥٧ هـ) .

٢١ جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام
وبيان أحاديثهما المعلولة (طبع فى الهند) وفى مصر
فى المطبعة المنيرية سنة ١٣٥٧ هـ .

٢٢ جوابات عابدى الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان

٢٣ الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى (ويسمى (الداء والدواء) طبع فى آزه (الهند) سنة ١٣٠٨ هـ وفى مصر عدة مرات .

٢٤ — حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح (طبع فى مصر عدة مرات) واختصره أحد تلاميذه وسماه (الداعى إلى أشرف المساعى) .

٢٥ الحاوى (ذكره ابن حجر العسقلانى فى (فتح البارى) فى الجزء الحادى عشر .

٢٦ حرمة السماع

٢٧ حكم إغماء هلال رمضان.

٢٨ حكم تارك الصلاة طبع فى مصر عدة مرات .

٢٩ الرسالة الجلية فى الطريقة المحمدية (نظم) .

٣٠ رفع التنزيل .

٣١ رفع اليدين فى الصلاة .

٣٢ الروح (طبع فى حيدر آباد الدكن مرتين وفى مصر ١٣٦٩ هـ واختصره برهان الدين البقاعى ،وسماه (سر الروح) وطبع فى مصر سنة ١٣٢٦ هـ .

٣٣ روضة المحبين ونزهة المشتاقين (طبع فى دمشق .

٣٤ زاد المسافرين إلى منازل السعداءِ فى هدى خاتم الأنبياء

٣٥ زاد المعاد فى هدى خير العباد) ويسمى (الهدى النبوى) طبع كابنور (الهند) ١٢٩٨ هـ وفى مصر عدة مرات .

٣٦ السنة والبدعة (نقل عنه الشيخ داود النقشبندى فى كتاب (صلح الإخوان) .

٣٧ شرح الأسماءِ الحسنى .

٣٨ شرح أسماءِ الكتاب العزيز .

٣٩ شفاءِ العليل فى القضاءِ والقدر والحكمة والتعليل (طبع فى مصر سنة ١٣٢٣ هـ

٤٠ الصبر والسكن .

٤١ الصراط المستقيم فى أحكام أهل الجحيم .

٤٢ الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة) طبع مختصره بعنوان (الصواعق المرسلة) فى مكة سنة ١٣٤٨ هـ وطبع أيضاً فى مصر .

٤٣ الطاعون .

٤٤ طب القلوب (ذكر الأُستاذ المعلوف أن فى مكتبة برلين نسخة خطيّة منه) .

٤٥ الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية (طبع فى مصر عدة مرات) .

٤٦ طريق الهجرتين وباب السعادتين (طبع فى مصر عدة مرات) وفى المكتبة الظاهرة نسخة منه بخط المؤلف .

٤٧ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (طبع فى مصر عدة مرات) .

٤٨ عقد محكم الأَحباء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء (ذكر فى كشف الظنون أنه شرح (الكلم الطيب) لشيخه ابن تيمية ولم يسمه فلعله هذا .

٤٩ الفتح القدسى .

٥٠ الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه .

٥١ فضل العلم .

٥٢ الفروسية المحمدية (طبع بمصر ١٣٦٠ هـ باسم (الفروسية) .

٥٣ الفوائد (طبع فى مصر عدة مرات) .

٥٤ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (طبع فى مصر سنة ١٣٢٧ ﻫ .

٥٥ الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية) وهى (القصيدة النونية) طبعت فى الهند ثم فى مصر سنة ١٣١٩ ﻫ .

٥٦ الكافية الشافية فى النحو.

٥٧ الكبائر (نقل عنه النقشبندى فى صالح الإخوان) .

٥٨ الكلم الطيب والعمل الصالح .

٥٩ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين وهو شرح (منازل السائرين) لشيخ الإسلام عبد الله ابن محمد الأنصارى الهروى) طبع فى مصر مرتين.

٦٠ المسائل الطرابلسية .

٦١ معانى الأدوات والحروف .

٦٢ (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) طبع فى مصر عدة مرات وفى الهند ١٣٢٩ ﻫ .

٦٣ المنار المنيف فى الصحيح والضعيف (طبع فى مصر وفى سوريا) .

٦٤ المهدى .

٦٥ المهذب .

٦٦ نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول .

٦٧ نكاح المحرم .

٦٨ نور المؤمن وحياته .

٦٩ هداية الحيارى من اليهود والنصارى (طبع فى مصر مرتين ، المرة الأُولى بهامش كتاب (الفارق بين المخلوق والخالق) سنة ١٣٢٢ هـ والمرة الثانية طبع على حدة سنة ١٣٢٣ هـ .

٧٠ الهدى النبوى (هكذا سماه فى كشف الظنون ، ولعله الهدى النبوى أو (زاد المعاد) .

٧١ الوابل الصيب من الكلم الطيب (طبع فى الهند وفى مصر عدَة مرات .

٧٣ الرسالة التبوكية (طبعت فى مكة سنة ١٣٤٩ هـ .

قال ابن رجب : وله ـ رحمه الله ـ تصانيف غير ما ذكر لاتحصى كثرة ، ولكن عزّ وجودها فى هذا الزمان ، ونسجت عليها عناكب النسيان وغابت عن العيان ، ودرجت فى خبر كان ، وكل تصانيفه مرغوب فيها بين كل الطوائف .

وفاتـــه

توفى - رحمه الله - وقت العشاءِ الأَخيرة ، ليلة الخميس ثالث عشر رجب سنة ٧٥١ هـ وصُلِّىَ عليه من الغد عقيب الظهر بالجامع الأَموى ، ثم بجامع الجراح ودفن بمقبرة الباب الصغير ، وشيعه خلق كثير ، ورؤيت له منامات كثيرة حسنة رضى الله عنه .

وقد رأَى قبل موته ، شيخه الشيخ تقى الدين رحمه الله فى النوم ، وسأَله عن منزلته ، فأَشار إلى علوها فوق بعض الأَكابر ، وقال له : وأَنت كدت تلحق بنا ولكن أَنت الآن فى طبقة ابن خزيمة ، رحمه الله .

قرأت على شيخنا الإِمام العلامة أَبى عبد الله ، محمد ابن أَبى بكر بن أَيوب وأَنا أَسمع هذه القصيدة من نظمه فى أَول كتابه صفة الجنة [حادى الأَرواح إلى بلاد الأَفراح] .

وما ذاك إلا غيرةً أَن ينالها
سوى كُفْئِها والرب بالخلق أَعلم

وإن حُجِبتْ عنا بكل كريهة
وحُفَّتْ بما يؤذى النفوس ويُؤلِمُ
فَلِلَّهِ مافى حشوها من مَسرَّةٍ
وأصناف لذَّات بهـا نتنعَّمُ
ولله بَرْدُ العيش بين خِيامِهَـا
وروضاتِها والثَّغْر فى الرَّوض يَبْسِمُ
ولله واديها الذى هو مَوْعِد الْ
مَزِيد لِوَفد الحِبِّ لو كنتَ منهمُ
بذيَّالِكَ الوادِى يَهيمُ صبابَـةً
مُحِبٌّ يرى أن الصـبابة مَغْنَمُ
ولله أَفـراحُ المحبين عنـدما
يخاطِبهم من فوقهم ويُسَلِّمُ
ولله أَبْصَارٌ تَرى الله جَهْرَةً
فلا الضَّيْمُ يَغْشَاهَا ولا هِيَ تَسْأَمُ
فيا نظرةً أهدتْ إلى الْوَجْهِ نَضْرةً
أَمِنْ بَعْدها يَسْلُو الْمُحِبُّ المتيَّمُ
وللهِ كم من خِيرَةٍ لو تبسَّمتْ
أَضاءَ لهـا نور من الفجر أَعظمُ

فيا لذَّةَ الأَبصار إن هى أَقبلتْ
ويا لـذَةَ الأَسماع حين تَكلَّمُ
ويا خجلة الغصن الرَّطيب إذا انْثَنَتْ
ويا خجلة البحرين حين تَبسَّمُ
فإن كنت ذا قلب عليل بِحُبِّهَا
فلم يبق إلا وَصْلُهَا لك مرهمُ
ولا سيما فى لَثْمِهـا عند ضَمِّهَا
وقد صار منها تحت جيدك معصم
تراها إذا أَبدت له حُسْنَ وجههـا
يَلذُّ بها قبلِ الوِصَالِ ويَنْعَمُ
تَفكَّهُ منها العينُ عند اجْتِلائها
فواكهَ شتَّى طَلْعُها ليس يعدمُ
عناقيدُ من كرم وتفاحُ جنـة
ورُمَّان أَغصانِ بها القلب مُغْرَمُ
وللورد ما قد أَلبسته خدودُهـا
وللخمر ما قد ضمَّه الريق والفم
تَقسَّم منها الحسنُ فى جمع واحد
فيا عجبًا من واحِد يتقسَّمُ

لها فِرَقٌ شتَّى من الحسن أَجمعت
بجملتها أَن السُّلُوَّ مُحَــــرَّمُ

تُذكِّرُ بالرحمن من هو نــاظر
فينطِق بالتسبيح لا يَتَلعْثَمُ

إذا قابلت جيشَ الهموم بوجهها
تولَّى على أَعقابه الجيشُ يهـزم

فيا خاطب الحسناءِ إِن كنت راغبـا
فهذا زمان المهر فهو الْمُقَدَّم

ولما جرى ماءُ الشباب بغصنها
تيقن حقا أَنه ليس يَهْرَمُ

وكُنْ مُبغِضًا للخائنات لِحُبِّهـا
فتحظى بها من دونهن وتَنْعَمُ

وكُنْ أَيِّمًا مما سوَاهـا فإِنهـا
لمثلك فى جنات عَدْن تـأَيَّمُ

وصُمْ يومك الأَدنى لعلك فى غـدِ
تفوز بعيد الفطر والناس صُوَّمُ

وأَقْدِمْ ولا تقنع بعيش مُنغَّص
فما فاز باللذات من ليس يُقدِم

وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها
ولم يَكُ فيها منزل لك يُعلَمُ
فحيِّ على جنات عَدْن فإنها
منازلُكَ الْأُولَى وفيها المُخيَّمُ
ولكننا سَبْىُ العدو فهل ترى
نعود إلى أَوطاننا ونُسلَّمُ ؟
وقد زعموا أَن الغريب إذا نأَى
وشطَّت به أَوطانُه فهو مُغرَمُ
وأَىُّ اغتراب فوق غربتنا التى
لها أَضحت الأَعداءُ فينا تَحكَّمُ ؟
وحَىِّ على السوق الذى فيه يلتقى الْ
مُحِبون ذاك السوق للقوم يعلم
فما شئت خذ منه بلا ثَمَن له
فقد أَسْلَفَ التجارُ فيه وأَسْلَمُوا
وحيِّ على يوم المزيد الذى به
زيارةُ ربِّ العرش فَاليوم موسم
وحيِّ على وادٍ هنالك أَفْيَحٍ
وتربته من أَذفر المِسك أَعظم

منابرُ من نور هناك وفضة
ومن خالص العِقْيَانِ لا تتقصَّم
وكثبان مسك قد جُعِلْنَ مقاعدًا
لِمَنْ دون أَصحاب المنابِرِ يُعلَمُ
فبينا هُمُ فى عيشهم وسرورهم
وأَرزاقهم تجرى عليهم وتُقسَمُ
إذا هم بنور ساطع أَشرقتْ له
بأَقطارها الجناتُ لا يُتَوَهَّمُ
تَجلَّى لهم ربٌّ السموات جَهرةٌ
فيضحك فوق العرش ثم يُكَلِّمُ
سلام عليكم يسمعون جميعهم
بآذانهم تسليمه إذ يُسَلِّمُ
يقول : سلونى ما اشتهيتم فكلُّ ما
تريدون عندى إننى أَنا أَرحمُ
فقالوا جميعا : نحن نسأَلك الرضا
فأَنت الذى تُولِى الجميلَ وترحَمُ
فيعطيهمُ هذا ويُشهِدُ جمعهم
عليه ، تعالى الله ، والله أَكرمُ

فيا بائعاً غالٍ ببَخْسٍ مُعَجَّلٍ
كأَنك لاتدرى ، بلى سوف تعلم
فإن كنت لاتَدْرِى فتلك مصيبةٌ
وَإن كنت تدرى فالمصيبة أَعظم

انتهى ترجمة ابن رجب لشيخه العلامة المحقق ابن القيم إلا أَننا زدنا على مؤلفات ابن القيم التى ذكرها ابن رجب ، وسقناها على ترتيب الأَديب الفاضل أَحمد عبيد فى مقدمته لكتاب (روضة المحبين) وزدنا كتاب (أَحكام أَهل الذمة) ، الذى طبع أَخيراً بدمشق والرسالة التبوكية المطبوعة بمكة .

علمه وعبادته وأَخلاقه (١) :

كان رحمه الله — عالما فقيها ، أُصوليا مُفسِّرا ، نحويًّا ، عارفاً بالله ، متقنا فى علوم الإسلام .

(١) من مقدمة (روضة المحبين) ، المستقاة من «الدرر الكامنة» للحافظ ابن حجر العسقلانى ، و«ذيل طبقات الحنابلة»لابن رجب ، و«بغية الوعاة» للسيوطى ، و«الرد الوافر » للحافظ ابن ناصر ، و«أبجد العلوم» لصديق حسن خان ، و« جلاء العينين » للسيد نعمان الآلوسى ، « وشذرات الذهب»لابن العماد، و«منادمة الأطلال»لعبد القادربدران ، و«الأعلام» للسيد خير الدين الزركلى وغيرها . آثرنا إثبات ما فى مقدمة أحمد عبيد هنا لأنه — على اختصاره — جامع للمقصود من التعريف بابن القيم ومفيد .

وكان عارفاً بالتفسير لايجارى فيه ، وبأُصول الدين وإليه فيهما المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لايلحق فى ذلك ، وبالفقه وأُصوله وبالعربية وله فيها اليد الطولى ، وبعلم الكلام وغير ذلك .

وعالماً بعلم السلوك ، وكلام التصوف وإشاراتهم ودقائقهم ، له فى كل فنٍّ من هذه الفنون ،المعرفة الشاملة .

وكان عالما بالملل والنِّحل ومذاهب أَهل الدنيا ، علما أَتقن وأَشمل من أَصحابها .

وكان : جرىءاللسان ، واسع العلم والبيان ، عالما بالخلاف ومذاهب السلف . أَمَّ بالمدرسة الجوزية ، ودرَّس بالصدرية مدة طويلة وتصدر للاشتغال ونشر العلم ، ليلًا ونهاراً . وقصد للإفتاء ، .

غلب عليه حُبُّ شيخه ابن تيمية ، حتى كان لا يخرج عن شيءٍ من أَقواله ، بل ينتصر له فى جميع ذلك ، ويدندن حول مفرداته وينصرها ويحتج لها .

وهو الذى هذب كتبه ، ونشر علمه ، وكان له حظ عند الأُمراءِ المصريين .

وكان ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتألُّه ولَهَجٍ بالذكر والتلاوة ، وشغف بالمحبة والإنابة ، والافتقار إلى الله تعالى ، والانكسار له ، والاطِّراح بين يديه على عتبة عبوديته .

وكان إذا صلى الصبح ، جلس مكانه ، يذكر الله حتى يتعالى النهار .

حج مرات كثيرة ، وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه ، من شدة العبادة ، وكثرة الطواف ، أمراً يُتَعجَّبُ منه .

وكان حسن الخلق ، كثير التودد ، لايحسد ، ولا يحقد .

شيوخه :

سمع من الشهاب النابلسى ، والقاضى تقىّ الدين سليمان ، وأبى بكر ابن عبد الدائم ، وعيسى المطعِّم ، وابن الشيرازى ، وإسماعيل بن مكتوم والطبقة ، وفاطمة بنت جوهر وغيرهم ، وأخذ العربية على أبى الفتح والمجد التونسى .

وقرأ الفقه على المجد الحرانى ، والأُصول ، على الصفىّ الهندى .

وكانت لأبيه ، يد فى الفرائض ، وأخذها عنه .

وقرأ على الشيخ تقى الدين ، أحمد بن تيمية ، ولازمه وأخذ عنه معظم علمه ، وكانت مدة ملازمته له منذ عاد من مصر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، إلى أن مات .

تلاميذه :

أما تلاميذه الذين أخذوا العلم عنه فخلق كثير من حياة شيخه إلى أن مات ، وانتفعوا به .

وكان الفضلاء ، كابن عبد الهادى وغيره ، يُتَلمِذُونَ له .

فممن أخذ عنه ، ولده الحافظ ، ابراهيم ، وولده الآخر ، عبد الله ، والحافظ ، زين الدين أبو الفرج ، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ، مؤلف (ذيل طبقات الحنابلة) ولازم مجالسه قبل موته أزيد من سنة ، والشيخ شمس الدين ، محمد بن عبد القادر النابلسى صاحب مختصر طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ، وغيرهم .

أقوال العلماء فيه :

قال فيه الحافظ ابن حجر العسقلانى الشافعى :

لولم يكن للشيخ تقىّ الدين ابن تيمية من المناقب إلا تلميذه الشيخ شمس الدين بن القيم الجوزية ، صاحب التصانيف النافعة السائرة ، التى انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية فى الدلالة على عظمة منزلته .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلى : شيخنا الإمام العلامة ، لم أُشاهد مثله فى العبادة ، ولا رأَيت أَوسع منه علماً ، ولا أَعْرفَ بمعانى القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو بالمعصوم ولكن لم أَرَ فى معناه مثله .

وقال القاضى برهان الدين الزُّرعى : ما تحت أَديم السماءِ أَوسع علما منه .

وقال الحافظ ابن كثير : لا أَعرف فى زماننا من أَهل العلم أَكثر عبادة منه .

وقال الحافظ ابن ناصر الدين الشافعى : الشيخ الإمام العلامة شمس الدين أَوحد المحققين عَلَم المصنفين ، نادرة المفسرين ، له التصانيف الأَنيقة ، والتآليف التى فى علوم الشريعة والحقيقة .

وقال الحافظ السيوطى : وصار من الأئمة الكبار فى التفسير والحديث ، والفروع والأصلين ، والعربية .

وقال قاضى القضاة ، عبد الرحمن التفهنى الحنفى : تلميذه (أى : ابن تيمية) ابن قَيِّمٌ الجوزية الذى سارت تصانيفه فى الآفاق .

وقال أيضاً : ولو لم يكن له من آثاره ، إلا ما اتَّصف به تلميذه ، ابن قيم الجوزية من العلم ، لكفى .

وقال الشيخ إبراهيم الكورانى الشافعى : ثم إن ابن القيم الجوزية وإن كان على عقيدة شيخه كما عند المشنعين عليهما ، فتبرئة شيخه عما نُسِبَ إليه ، تبرئة له أيضاً ، وتصحيح اعتقاده وتطبيقه على الكتاب والسنة وعقيدة السلف الصالح ، تصحيح لاعتقاده وتطبيق .

وقال ملا على القارى فيه وفى شيخه : من طالع شرح منازل السائرين ، تبيَّن له أَنَّهما كانا من أكابر أَهل السنة والجماعة ، ومن أَولياء هذه الأُمة .

وقال محمد المقّرى : هو أكبر أصحاب تقيّ الدين ابن تيمية .

وقال صِدِّيق بن حسن خان : الحبر العظيم الشان ، الرفيع المكان .

وقال السيد نعمان الآلوسى . وآخر من سدَّد هذا المذهب (الحنبلى) ونقَّح وهذَّب . آل قدامة وآل تيمية ، وابن قيِّم الجوزية ، ومن أخذ عنهم فى البلاد الشامية .

مؤلفاته :

ولابن قيِّم الجوزية تصانيف كثيرة جدًّا فى أنواع العلوم ، وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه ، مُغرًى باقتناء كتبه .

فحصَل منها ما لايُحصَى ، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته ، دهراً طويلًا ، سوى ما اصطفَوْه منها لأنفسهم .

وهو طويل النَّفَس فى مؤلفاته يعانى الإيضاح جُهدَه ، فيسهب جدًّا ، ومعظمها من كلام شيخه ، يتصرف فيه ، وله فى ذلك مَلَكَةٌ قوية .

قلت : وقد سبق ذكر ما عُلِمَ وطبع من مؤلفاته ،

وما نُسِج عليها من عناكب النسيان أكثر وأكثر كما ذكره تلميذه ابن رجب الحنبلي .

ومرجع انقراض مؤلفاته ومؤلفات شيخه تسلُّط الأَيدى المتلفة المحرقة لمؤلفاتهما ، نتيجة الجهل الذى ران على عقول الحَسَدَة الجهَلَة من المبتدعة والراسفين فى قيود التعصب للآباء والشيوخ وما ورثوه من العادات والتقاليد التى أَعمت منهم البصائر قبل الأَبصار .

ولكن أَبى الله إلا أَن يتم نوره بحفظ بعض مؤلفات الشيخين فاستنارت بها القلوب والعقول .

فأَبصر بها الناس بعد العمي ، واهتدوا إلى نور الحق بعد الضلال ، حتى صارت مؤلفاتهما تحتل المحل الأَرفع من قلوب أَهل العلم فأَقبلوا عليها ، وانكبُّوا على قراءتها بشغف منقطع النظير .

محنته :

ولما كان على عقيدة شيخه ، مناصراً آراءه ، فقد كان من الطبيعى ، أَن يناله ما نال شيخه ، من الامتحان والإِيذاء .

فحبس معه فى المرة الأَخيرة بالقلعة منفرداً عنه ،

بعد أَن أُهِينَ وطِيفَ به على جمل مضروباً بالدِّرة ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت شيخه .

وكان مدة حبسه ، مشتغلًا بتلاوة القرآن والتّدبُّر والتفكُّر فيه .

ففتح عليه من ذلك ، خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأَذواق والمواجيد الصحيحة .

وتسلط — بسبب ذلك — على الكلام فى علوم أَهل المعارف ، والدخول فى غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك .

وامتحن مدة أُخرى ، بسبب فتاوى ابن تيمية ، وحُبِسَ مرة لإنكاره شدَّ الرحال لزيارة قبر الخليل .

وجرت له بسبب فتواه بمسأَلة الطلاق أُمورٌ يطول بسطها مع ابن السبكى وغيره .

وطلبه السبكى مرة بسبب فتواه بجواز المسابقة محلل فأَنكر عليه ذلك الأَمر إلى أَن رجع عما كان يفتى به من ذلك ، وجرت له مِحَنٌ أُخرى مع القضاة وكان ينال من علماءِ عصره وينالون منه .

فضاق بهم ذرعاً ، كما استوحش من الكلام مع تلك العقول المُكَبَّلة بأغلال الخرافات ، والمخيم عليها ظلمات الجهل والتقليد الأَعمى .

ففضل استماع عواء الذئاب على استماع كلام هؤلاء الجهلة الذين أكل الحسد قلوبهم ، وأعمى التقليد الأعمى بصائرهم قبل أبصارهم ، فأكثر من التمثل بقول الشاعر :

عَوَى الذِّئبُ فاستأنستُ بالذِّئبِ إذْ عَوَى
وصوَّت إنسانٌ فكِدْتُ أَطِيرُ

وله نظم كثير . ومن شعره :

بُنَيُّ أَبي بكر غَدَا مُتَمَنِّيًا
وِصالَ المعالى والذُّنُوب له هَمُّ
بُنَيُّ أَبي بكر لقد خاب سَعْيُه
إذا لم يكن فى الصَّالحات له سَهْمُ

وكان يقول : بالصبر واليقين تُنَالُ الإمامة فى الدِّين

ويقول : لابُدَّ للسَّالك من هِمَّة تُسَيِّرُهُ وتُدْنِيه وعِلمٍ يُبَصِّرُه ويَهْدِيه

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على هادى البشرية بعد الضلالة وسلم تسليماً كثيراً .

محمد زهرى النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه أستعين)

الحمد لله رب العالمين (والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه)

١ — فصـــل

فى أقسام القرآن (١)

وهو سبحانه ، يقسم بأمور على أمور . وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته ، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته

وإقسامه ببعض المخلوقات ، دليل على أنه من عظيم آياته .

فالقَسَم ، إما على جملة خبرية ـ وهو الغالب ـ كقوله تعالى (٥١ الذاريات : فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لحقٌّ ٢٣) .

وإما على جملة طلبية ، كقوله تعالى (١٥ الحجر :

---

(١) هذا الابتداء على غير ما يعرف من عادة ابن القيم رحمه الله . فربما كان هذا ، جزءا من كتاب . والله أعلم .

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٣)
مع أن هذا ، قد يراد به تحقيق المقْسَم عليه ، فيكون من باب الخبر . وقد يراد به تحقيق القسم .

والمقْسَم عليه ، يراد بالقسم ، توكيده وتحقيقه . فلابد أن يكون ، مما يحسن فيه ذلك ، كالأُمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها .

فأما الأُمور الظاهرة المشهورة ، كالشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والسماءِ ، والأَرض ، فهذه يُقْسَمُ بها ولا يُقْسَم عليها .

وما أَقسم عليه الربُّ فهو من آياته . فيجوز أن يكون مقسما به ، ولاينعكس (١) .

وهو سبحانه ، يذكر جواب القسم تارة ، وهو الغالب

---

(١) قوله « لا ينعكس » معناه أنه لا يجوز أن يكون المخلوق مقسما عليه لأن ما أقسم عليه الرب تبارك وتعالى ، لا يخلو من أحد الأمور الآتية وذلك إما أن يكون لتقرير وتصديق لما يعتقده الناس من أن رزقهم فى السماءِ حيث أقرهم الله على ذلك بقوله (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ماأنكم تنطقون) وإما لإثبات محاسبة المخلوقين ، وإما لإثبات حشر الناس للموقف بعد نشرهم من القبور ، وغير ذلك مما هو مذكور فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

وتارة يحذفه . كما يحذف جواب « لو » كثيرا :
كقوله تعالى (١٠٢ التكاثر ١ : كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)
وقوله (١٣ الرعد : وَلَوْ أَنَّ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضَ ٣١ (٨ الأنفال) : وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ٥٠) (٣٤ سبأ : وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُو فَلَا فَوْتَ ٥١ (٦ الأنعام : وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ٣٠) .

ومثل هذا ، حذفه من أحسن الكلام ، لأَن المراد ، أنك لو رأيت ذلك ، لرأيت هولا عظيما .

فليس فى ذكر الجواب ، زيادة على ما دل عليه الشرط .

وهذه عادة الناس فى كلامهم ، إذا رأوا أُموراً عجيبة ، وأَرادوا أَن يخبروا بها الغائب عنها ، يقول أَحدهم : لو رأَيت ماجرى يوم كذا ، بموضع كذا ؟
ومنه قوله تعالى (٢ البقرة : وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ

---

(١) لاشاهد فى هذه الآية لأن جواب « لو » مذكور فى الآية التى تليها وهى قوله تعالى « لترون الجحيم » .

ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً ، وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١٦٥) .

فالمعنى فى أظهر الوجهين : لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا ، إذ يرون العذاب فى الآخرة ، والجواب محذوف.

ثم قال : (أن القوة للهِ جميعاً) كما قال تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ) (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَة) أى : لو ترى ذلك الوقت وما فيه .

وأما القسم ، فإن الحالف قد يحلف على الشىء ثم يكرر القسم ، فلا يعيد المقسم عليه ، لأنه قد عرف ما يحلف عليه .

فيقول : والله إن لى عليه ألف درهم .

ثم يقول : وربِّ السموات والأرض ، والذى نفسى بيده ، وحق القرآن العظم ، ولا يعيد المقسم عليه ، لأنه قد عرف المراد .

والقسم لما كان يكثر فى الكلام اختصر ، فصار فعل القسم يحذف ، ويكتفى بالباء ، ثم عوض من الباء ،

الواوِ فى الأَسماءِ الظاهرة ، والتاءِ فى أَسماءِ الله كقوله (٢١ الأَنبياءِ : وتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ٥٧) وقد نقل : « تَرَبِّ الكعبة » . وأما الواو فكثيرة .

(٢) فصل

فى بيان ما أَقسم الله عليه

إِذاعرف هذا ، فهو ـ سبحانه ـ يقسم على أَصول الإِيمان التى يجب على الخلق معرفتها ، تارة يقسم على التوحيد وتارة ، يقسم على أَن القرآن حق ، وتارة على أَن الرسول حق ، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، وتارة على حال الإِنسان .

فالأَول كقوله (٣٧ : والصَّافَّاتِ صَفًّا ١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ٣ إِنَّ إِلٰهكُمْ لَوَاحِدٌ ٤) .

والثانى كقوله (٥٦ الواقعة : فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم ٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٧) .

وقوله (٤٤ الدخان : حمٓ ١ والْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ٣) (٤٣ الزخرف : حمٓ ١

وَالْكِتَابِ الْمُبِين ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِياً٣) إذا جعل ذلك جواب القسم كما هو الظاهر .

وإن قيل : بل الجواب محذوف ، كان كقوله :
(٣٨ : صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (١))

فإنه ـ هنا ـ حذف الجواب .

ومن قال : إن الجواب هو قوله (٦٤ إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) أبعد النجعة .

والقسم على الرسول كقوله (٣٦ : يٓس ١ وَالْقُرْآن الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيمٍ) إذا قيل هو الجواب .

وإن قيل الجواب محذوف ، كان كما ذكر .

ومنه٦٨ : القلم نٓ وَالْقَلَم ، وَمَايَسْطُرُونَ١مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون . ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُون ٣)

ومنه (٥٣النجم : والنَّجْم إِذَا هَوَى ١ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى٣) إلى آخرِ القصة .

ومنه قوله (٦٩ الحاقة : فَلَا أُقْسِمُ بِمَاتُبْصِرُونَ ٣٨

وَمَالَاتُبْصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُون ٤١) .

وقوله (٨١ التكوير : فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيمٍ ١٩ ذِى قُوَّة عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠) .

وأما القسم على الجزاء ، والوعد والوعيد ، فنى مثل قوله (٥١ الذاريات : والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً ٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً ٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ، ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ٦) .

ثم ذكر تفصيل الجزاء ، وذكر الجنة والنار ،وذكر أن فى السماء رزقهم وما يوعدون .

ثم قال : (فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُون ٢٣) .

ومثل قوله (٧٧ : وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً ٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ٥ عُذْراً أَوْ نُذْراً ٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعُ ٧) .

ومثل (٥٢الطور : وَالطُّورِ ١ وَكِتَابٍ مَسْطُور ٢ فِى رَقٍّ مَنْشُور ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُور ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوع ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨).

وقد أمر نبيه أن يقسم على الجزاء والمعاد فى ثلاث آيات . فقال تعالى : (٦٤ التغابن : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ٧) .

وقال تعالى : ٣٤سبأ : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ : بَلَى ، وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ٣) .

وقال تعالى (١٠ يونس : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُو؟ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِين٥٣) .

وهذا ، لأن المعاد ، إنما يعلمه عامة الناس بإخبار الأنبياء ، وإن كان من الناس من قد يعلمه بالنظر . وقد تنازع النظار فى ذلك .

فقالت طائفة : إنه لايمكن علمه إلا بالسمع ، وهو الخبر ، وهو قول من لايرى تعليل الأفعال ، ويقولون : لاندرى ، مايفعل الله إلا بعادة أو خبر . كما يقوله جهم بن صفوان ، ومن اتبعه . والأشعرى

وأتباعه ، وكثير من أهل الكلام فى الفقه والحديث من أتباع الأئمة الأربعة .

بخلاف العلم بالصانع . فإن الناس متفقون على أنه لا يعلم إلا بالعقل ، وإن كان ذلك مما نبهت الرسل عليه .

وصفاته قد تعلم بالعقل ، وتعلم بالسمع أيضا ، كما قد بسط فى موضع آخر .

وأما القسم على أحوال الإنسان فكقوله (٩٢ الليل : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ٤) الآيات .

ولفظ السعى ، هو : العمل . لكن يراد به ، العمل الذى يهتم به صاحبه ، ويجتهد فيه بحسب الإمكان .

فإن كان يفتقر إلى عَدْوِ بدنه ، عدا .

وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه ، جمع .

وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره ، فعل ذلك

فلفظ « السعى » فى القرآن ، جاء بهذا الاعتبار ، ليس هو مرادفا للفظ العمل ، كما ظنه طائفة . بل هو عمل مخصوص ، يهتم به صاحبه ، ويجتهد فيه . ولهذا قال فى الجمعة (٦٢ : فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ ٩) .

وهذه أحسن من قراءة من قرأ (فامضوا إلى ذكر الله)

وقد ثبت فى الصحيح ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، وائتوها تمشون ، وعليكم السكينة . فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأَتموا (١) » .

فلم ينه عن السعى إلى الصلاة ، فإن الله أَمر بالسعى إليها ، بل نهاهم أَن يأْتوا إليها يسعون ، فنهاهم عن الإِتيان المتصف بِسَعْى صاحبه .

والإِتيان : فعل البدن ، وسعيه ، عَدْوُ البدن ، وهو مَنْهِىٌّ عنه .

وأَما السعى المأمور به فى الآية ، فهو الذهاب إليها ، على وجه الاهتمام بها ، والتفرغ لها ، عن الأَعمال الشاغلة . من بيع وغيره ، والإِقبال بالقلب على السعى إليها .

وكذلك قوله فى قصة فرعون لما قال له موسى

(٧٩ النازعات : فَقُلْ هَلْ لَكَ إلى أَنْ تَزَكَّى ١٨ وأَهْدِيَكَ رَبِّك فَتَخْشَى ١٩ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَى ٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَى ٢٣) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

فهذا اهتمام واجتهاد فى حشر رعيته ، ومناداته فيهم .

وكذلك قوله (٢ البقرة : وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ٢٠٥) هو عمل بهمة واجتهاد ، ومنه سُمِّىَ الساعى على الصدقة ، والساعى على الأرملة واليتيم .

ومنه قوله (٩٢ الليل : إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ٤) وهو العمل الذى يقصده صاحبه ويعتنى به ، ليترتب عليه ثواب ، أو عقاب .

بخلاف المباحات المعتادة ، فإنها لم تدخل فى هذا السعى .

قال تعالى (٩٢ الليل : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ١٠)

ومنه قوله تعالى (١٧ الإسراء : وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ١٩) .

وقوله (٥ المائدة : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا ٣٣) .

(٣) فصل

وأقسم على صفة الإنسان بقوله (١٠٠ العاديات
وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ٣
فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ
لَكَنُودٌ ٦) .

وأقسم على عاقبته ، وهو قَسَمٌ على الجزاء . فى
قوله (١٠٣ العصر : وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ٢
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُو وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ
وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٣) .

وفِى قوله (٩٥ التين : وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ١
وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
فِى أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٦) .

وحذف جواب القسم ، لأنه قد عُلِمَ بأنه يقسم على هذه الأمور ، وهى متلازمة .

فمتى ثبت أن الرسول حق ، ثبت القرآن والمعاد .

ومتى ثبت أن القرآن حق ، ثبت صدق الرسول الذى جاء به .

ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ، ثبت صدق الرسول الذى جاء به .

ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ، ثبت صدقه ، وصدق الكتاب الذى جاء به .

والجواب يحذف تارة ، ولايراد ذكره ، بل يراد تعظيم المُقْسَم به ، وأنه مما يحلف به . كقول النبى صلى الله عليه وسلم « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » (١) .

ولكن هذا ، يذكر معه الفعل ، دون مجرد حرف القسم ، كقولك : فلانٌ يحلف بالله وحده ، وأنا أحلف بالخالق لابالمخلوق ، ونحو ذلك .

والنصرانى يحلف بالصليب والمسيح ، وفلان أكذب ما يكون ، إذا حلف بالله .

---

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى ، وابن ماجه ، عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما .

وقد يكون هذا النوع بحرف القسم مجردا ، كما فى الحديث : « كانت أكثر يمين رسول الله صلى الله عليه الله عليه وسلم « لا ، ومقلب القلوب » (١) .

وكان بعض السلف إذا اجتهد فى يمينه قال : « والله الذى لا إله إلا هو » .

وتارة يحذف الجواب وهو مراد ، إما لكونه قد ظهر وعُرف ، إما بدلالة الحال كمن قيل له : كل . فقال : « لا ، والله الذى لا إله إلا هو »

أَو بدلالة السياق ، وأَكثر ما يكون هذا ، إذا كان فى نفس المقسم به ، ما يدل على المقسم عليه ، وهى طريقة القرآن ، فإن المقصود يحصل ، بذكر المقسم به ؛ فيكون حذف المقسم عليه ، أَبلغ وأَوجز .

كمن أَراد أَن يقسم على أَن الرسول حق . فقال :

« والذى أَرسل محمداً بالهدى ودين الحق ، وأَيده بالآيات البينات ، وأَظهر دعوته ، و أَعلى كلمته » ونحو ذلك .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، عن ابن عمر .

فلا يحتاج إلى ذكر الجواب ، استغناءً عنه بما فى القسم من الدلالة عليه .

كمن أَراد أَن يقسم على التوحيد وصفات الرب ، ونعوت جلاله . فقال :

والله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ، الأَول الآخر ، الظاهر الباطن .

وكمن أَراد أَن يقسم على علوه فوق عرشه . فقال :

والذى استوى على عرشه فوق سمواته ، يصعد إليه الكلم الطيب ، وترفع إليه الأَيدى ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، ونحو ذلك .

وكذلك من حلف لشخص أَنه يحبه ويعظمه . فقال : والذى ملأَ قلبى من محبتك وإجلالك ومهابتك » ونظائر ذلك – لم يحتج إلى جواب القسم ، وكان فى المقسم به ، ما يدل على المقسم عليه .

فمن هذا قوله تعالى (ص ، وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) .

فإن فى المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأَنه ذى الذكر ، المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه ،

وللشرف والقدر ، ما يدل على المقسم عليه ، وكونه حقا من عند الله ، غير مُفْتَرَى ، كما يقوله الكافرون .

وهذا معنى قول كثير من المفسرين – متقدميهم ومتأخريهم : إن الجواب محذوف ، تقديره : « إن القرآن لحق » وهذا مطرد فى كل ما شأنه ذلك .

وأما قول بعضهم ، إن الجواب قوله تعالى (صٓ : كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ٣) فاعترض بين القسم وجوابه بقوله (صٓ – بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) فبعيد ، لأن « كم » لا يتلقى بها القسم ، فلا تقول : والله كم أنفقت مالا . وبالله كم أعتقت عبدا .

وهؤلاء لما لم يخف عليهم ذلك ، احتاجوا أن يقدروا ما يتلقى بها الجواب ، أى : لَكَمْ أهلكنا .

وأبعد من هذا ، قول من قال : الجواب فى قوله (صٓ : إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ١٤) .

وأبعد منه ، قول من قال : الجواب (صٓ) إِنَّ هٰذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ ٥٤) .

وأبعد منه قول من قال : الجواب قوله (صٓ : إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ٦٤) .

وأقرب ما قيل في الجواب لفظًا ، وإن كان بعيداً معنى ، عن قتادة وغيره : إنه في قوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا) كما قال (٥٠ : ق وَالْقُرْآنِ المجيد ١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ٢) وشرح صاحب النظم هذا القول . فقال :

معنى « بل » توكيد الخبر الذى بعده فصار كـ« إنَّ » الشديدة فى تثبيت ما بعدها .

وقيل : ههنا بمنزلة « إن » لأنه يؤكد ما بعده من الخبر ، وإن كان له معنى سواه ، فى نفى خبر متقدم . فكأنه عز وجل قال : ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ، كما تقول : والله إن زيداً لقائم .

قال : واحتج صاحب هذا القول بأن هذا النظم ، وإن لم يكن للعربية فيه أصل ، ولا لها رسم ، فيحتمل أن يكون نظما أحدثه الله عز وجل ، لما بيَّنَّا من احتمال أن تكون « بل » بمعنى (« أن » ا هـ .

وقال أبو القاسم الزجاج ، قال النحويون : إن« بل » تقع فى جواب القسم ، كما تقع « إن » ، لأن المراد بها ، توكيد الخبر .

وهذا القول اختيار أبي حاتم ، وحكاه الأخفش عن الكوفيين .

وقرره بعضهم بأن قال : أصل الكلام « بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ، والقرآن ذى الذكر » فلما قدم القسم ، ترك على حاله .

قال الأخفش : وهذا يقوله الكوفيون ، وليس بجيد فى العربية . لو قلت : « والله قام » وأنت تريد « قام والله » لم يحسن .

وقال النحاس : هذا خطأ على مذهب النحويين ، لأنه إذا ابتدأ بالقسم ، وكان الكلام معتمدا عليه ، لم يكن بُدّ من الجواب .

وأجمعوا أنه لايجوز : « والله قام عمرو » بمعنى « قام عمرو والله » لأن الكلام يعتمد على القسم .

وذكر الأخفش وجهاً آخر فى جواب القسم ، فقال : يجوز أن يكون لصاد معنى يقع عليه القسم ، لاندرى نحن ماهو ، كأنه يقول :الحق والله .

قال أبو الحسن الواحدى : وهذا الذى قاله الأخفش

صحيح المعنى على قول من يقول (ص) الصادق الله ، أو صدق محمد .

وذكر الفراءُ هذا الوجه أيضاً ، فقال : (ص) جواب القسم ، وقال : هو كقولك « وجب والله » ، و « ترك والله » فهى جواب لقوله (والقرآن) .

وذكر النحاس وغيره وجها آخر فى الجواب ، وهو أنه محذوف تقديره : « والقرآن ذى الذكر ، فالأمر كما يقوله هؤلاءِ الكفار ، ودل على المحذوف قوله تعالى (بل الذين كفروا) وهذا اختيار ابن جرير ، وهو مخرج من قول قتادة .

وشرحه الجرجانى ، فقال «بل» رافع لخبر قبله ، ومثبت لخير بعده ، فقد ظهر ما بعده ، وظهر ما قبله ، وما بعده دليل على ما قبله ، فالظاهر ، بدل على الباطن ، فإذا كان كذلك ، وجب أن يكون قوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) مخالفا لهذا المضمر .

فكأنه قيل : والقرآن ذى الذكر ، إن الذين كفروا ، يزعمون أنهم على الحق ، أو كل ما فى هذا المعنى .

فهذه ستة أوجه ، سوى ما بدأنا به فى جواب القسم ، والله أعلم .

ونظير هذا قوله تعالى (قٓ : وَالْقُرْآن الْمَجيد بَلْ عَجِبُوا) قيل جواب القسم (قَدْ عَلِمْنَا) .

وقال الفراءِ : محذوف ، دل عليه قوله (أَ إِذَا مِتْنَا) أى « لتبعثُنَّ » .

وقيل : قوله (بل عجبوا) كما تقدم بيانه .

(٤) فصل

ومن ذلك قوله (٧٥القيامة : : لَا أُقْسِمُ بِيَوْم الْقِيَامَةِ ١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ٢) فقد تضمن الإقسام ، ثبوت الجزاءِ ، ومستحق الجزاءِ ، وذلك يتضمن إثبات الرسالة ، والقرآن ، والمعاد ، وهو سبحانه يقسم على هذه الأُمور الثلاثة ، ويقررها أبلغ التقربر ، لحاجة النفوس إلى معرفتهما ، والإيمان بها .

وأمر رسوله أن يقسم عليها ، كما قال تعالى

(١٠ يونس : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ : أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ : إِى ، وَرَبِّى ، إِنَّهُ لَحَقٌّ ٥٣) وقال تعالى (٣٤ سبأ : وقالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ)
وقال تعالى (٦٤ التغابن : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ
يُبْعَثُوا ، قُلْ ، بَلَى ، وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ
وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِير ٧) .

فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها ، يأمر نبيه صلى الله
عليه وسلَّم ، أَن يقسم على ما أَقسم عليه هو ، سبحانه
من النبوة ، والقرآن ، والمعاد .

فأَقسم سبحانه لعباده ، وأَمر أَصدق خلقه أَن يقسم
لهم ، وأَقام البراهين القطعية على ثبوت ما أَقسم عليه ،
فأَبى الظالمون إلا جحودا وتكذيبا .

واختلف فى النفس المقسَم بها ههنا ، هل هى خاصة
أَوعامة ؟ على قولين ، بناءً على الأَقوال الثلاثة فى
« اللوامة » .

فقال ابن عباس : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة
يلوم المحسن نفسه ، أَن لايكون ازداد إحسانا .
ويلوم المسىءُ نفسه ، أَن لايكون رجع عن إساءته ،
واختاره الفراءُ . قال : ليس من نفس ، بَرَّةٍ ولافاجرة ،
إلا وهى تلوم نفسها .

إن كانت عملت خيراً قالت : هلا ازددت خيرًا ؟

وإن كانت عملت سوءًا . قالت : يا ليتنى لم أفعل .

والقول الثانى ، أنها خاصة . قال الحسن : هى النفس المؤمنة ، وأن المؤمن – والله – لاتراه إلا يلوم نفسه على كل حالة ، لأنه يستقصرها فى كل ما تفعل ، فيندم ويلوم نفسه ، وإن الفاجر يمضى قُدُمًا ، لايعاتب نفسه .

والقول الثالث ، أنها النفس الكافرة ، وحدها ، قاله قتادة ومقاتل . وهى النفس الكافرة ، تلوم نفسها فى الآخرة على ما فرَّطَتْ فى أمر الله .

قال شيخنا (١) : والأظهر ، أن المراد نفس الإنسان مطلقا . فإن نفس كل إنسان لوامة ، كما أقسم بجنس النفس فى قوله (٩١ الشمس : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨) فإنه لابد لكل إنسان ، أن يلوم نفسه أو غيره على أمره .

ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد يكون مذموما ،

---

(١) هو شيخ الإسلام الإمام المجتهد المطلق ، تقى الدين أحمد بن عبدالحليم ابن عبد السلام بن تيمية . ولد سنة ٦٦١ ، وتوفى سنة ٧٢٨ رحمه الله ورضى عنه .

كما قال تعالى (٦٨ القلم : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض يَتَلَاوَمُونَ ٣٠ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِين ٣١) .

وقال تعالى (٥ المائدة : يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيل اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِم ٥٤) فهذا اللوم غير محمود .

وفى الصحيحين فى قصة احتجاج آدم وموسى « أتلومنى على أمر قدره الله علىَّ قبل أن أُخلق ؟ » فحج آدم موسى (١) .

---

(١) رواه البخارى فى عدة أبواب :

قال الحافظ فى الفتح (١١ : ٤٠٧) ، قال ابن عبد البر : هذا الحديث ثابت بالاتفاق . رواه عن أبى هريرة جماعة من التابعين . وروى عن النبى ﷺ ، من وجوه أخرى من رواية الثقات الأثبات ا هـ .

قال الحافظ : وقع لنا من طريق عشرة عن أبى هريرة ، وهو عند مسلم ، والنسائى ، والترمذى ، وابن خزيمة ، وأحمد من عدة طرق . وهو عن عمر عن النبى ﷺ ، عند أبى داود ، وأبى عوانة وعن جندب بن عبد الله عند النسائى ، وعن أبى سعيد عند البزار . ا هـ باختصار .

وقد أطال الحافظ فى شرحه والكلام على ما فيه من الفوائد .

قال ابن عبد البر : هذا الحديث أصل عظيم لأهل الحق فى إثبات القدر ، وأن الله قضى أعمال العباد ، فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق فى علم الله .

وليس فيه حجة للجبرية ، وإن كان فى بادئ الرأى يساعدهم . =

فهو سبحانه ، يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله (١٠٠ العاديات: إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦ (١)) وعلى جزائها كقوله (١٥ الحجر: فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢) . وعلى تباين عملها كقوله (٩٢ الليل: إِنَّ سَعْيَكُمْ

= وقال القرطبي : إنما غلبه بالحجة ، لأنه علم من التوراة ، أن الله تاب عليه . فكان لومه على ذلك ، نوع جفاء .

وقال الحافظ: وقد أنكر القدرية هذا الحديث ، لأنه صريح فى إثبات القدر السابق ، وتقرير النبي ﷺ ، لآدم على الاحتجاج به وشهادته بأنه غلب موسى .

وقد أطال الحافظ فى الجواب على ذلك ، من وجوه عدة :

منها ما قال ابن عبد البر : هذا مخصوص بآدم ، لأن المناظرة وقعت بينهما بعد أن تاب الله عليه ، قال تعالى :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ من رَبِّه كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ .

فحسن منه أن ينكر على موسى لومه ، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب المعصية : « هذا سبق فى علم الله وقدره ، قبل أن يخلقنى » . فإن الأمة اجتمعت ، على لوم من وقعت منه المعصية اهـ .

(١) كنود : أى : كافر بنعمة ربه . وبابه « دخل » فهو كنود وامرأة كنود أيضا اهـ من المختار من الصحاح الكنود أيضا : اللوام لربه . قال الحسن فى قوله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) أى لوام لربه يعد المصائب وينسى النعم اهـ من هامش تهذيب الصحاح .

وفى القاموس « الكنود » بضم الكاف كفران النعمة . وبالفتح (فتح الكاف) الكفور . كالكَنّاد ، والكافر واللوَّام لربه تعالى : والبخيل والعاصى . والأرض لا تنبت شيئاً ، أو من يأكل وحده ويمنع رفده، ويضرب عبده ، والمرأة الكفور للمودة والمواصلة اهـ .

لَشَتَّى ٤) وكل نفسٍ لوَّامة ، فالنفس السعيدة ، تلوم على فعل الشر وترك الخير ، فتبادر إلى التوبة ، والنفس الشقية بالضد من ذلك .

وجمع سبحانه فى القسم ، بين محل الجزاء ، وهو يوم القيامة ، ومحل الكسب ، وهو النفس اللوامة

ونبه ، سبحانه ، بكونها لوَّامة على شدة حاجتها وفاقتها ، وضرورتها إلى من يُعرِّفها الخير والشر ، ويدلها عليه ، ويرشدها إليه ، ويلهمها إياه .

فيجعلها مريدة للخير ، مرشدة له ، كارهة للشر ، مجانبة له ، لتخلص من اللوم ، ومن شر ما تلوم عليه .

ولأنها متلومة مترددة ، لاتثبت على حال واحد ، فهى محتاجة إلى من يعرفها ماهو أنفع لها فى معاشها ومعادها ، فتُؤْثِرُه ، وتلوم نفسها عليه ، إذا فاتها ، فتتوب منه ، إن كانت سعيدة ، ولتقوم عليها حجة عدله ، فيكون لومها فى القيامة ، لنفسها عليه ، لوماً بحق ، قد أعذر الله خالقها ، وفاطرها إليها فيه .

فنى صفة اللوم ، تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن ، وأنها لاغنى لها عن ذلك ، ولاصلاح ، ولا فلاح بدونه ألبتة ، .

ولما كان يوم معادها ، هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه ، قرن بينهما فى الذكر .

(٥) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٩١ الشمس : والشَّمْسِ وَضُحَاهَا ١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ٢ والنَّهَارِ إذا جَلَّاهَا ٣ وَاللَّيْل إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨) .

قال الزجاج وغيره : جواب القسم (: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩) ولما طال الكلام ، حسن حذف اللام من الجواب .

وقد تضمن هذا القسم ، الإقسام بالخالق ، والمخلوق ، فأقسم بالسماء وبانيها ،والأرض وطاحيها ، والنَّفْسِ ومُسوِّيها .

وقد قيل إن« ما »(١) مصدرية ، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى :

فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه ، وبصنعته الدالة على كمال علمه ، وقدرته ، وحكمته ، وتوحيده ،

(١) أثبتنا كلمة « ما » لأن الكلام يقتضيها كما يفهم من سياق الكلام وسباقه .

ولما كانت حركة الشمس والقمر ، والليل والنهار ، أمراً يشهد الناس حدوثه ، شيئا فشيئا ، ويعلمون أن الحادث لابد له من محدث ، كان العلم بذلك مُنَزَّلًا منزلة ذكر المحدث له لفظا ، فلم يذكر الفاعل فى الأَقسام الأَربعة (١) .

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع .

وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن فى غير موضع ، كقوله (٣ آل عمران : إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَاب ١٩٠) .

ولما كانت السماء والأَرض ثابتتين ، حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ، ذكر مع الإقسام بهما ، بانيهما ومبدعهما

وكذلك النفس ، فإن حدوثها غير مشهود ، حتى ظن بعضهم قدمها .

فذكر مع الإقسام بها ، مُسَوِّيها وفاطرها ، مع مافى ذكر بناءِ السماءِ وطَحْوِ الأَرض ، وتسوية النفس ، من الدلالة على الرحمة والحكمة ، والعناية بالخلق .

(١) يقصد بالأقسام الأربعة ، الآيات الأربعة الأولى من هذه السورة .

فإن بناء السماء ، يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض ، وجعلها سقفا لهذا العالم .

والطحو هُوَ مَدُّ الأرض وبسطها ، وتوسيعها ، ليستقر عليها الأنام والحيوان ويمكن فيها البناء والغراس والزرع ، وهو متضمن لنضوب الماء عنها .

وهو مما حير عقول الطبائعيين ، حيث كان مقتضى الطبيعة ، أن يغمرها كثرة الماء .

فبروز جانب منها على الماء ، على خلاف مقتضى الطبيعة .

وكونه هذا الجانب المعين ، دون غيره ، مع استواء الجوانب فى الشكل الكُرِىّ ، يقتضى تخصيصا .

فلم يجدوا بُدًّا أن يقولوا : عناية الصانع ، اقتضت ذلك .

قلنا : فنعم إذاً ، ولكن عناية من لامشيئة له ، ولا إرادة ولا اختيار ، ولا علم بمعين أصلا ، كما تقولونه فيه ، محال .

فعنايته تقتضى ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله ، وأنه الفاعل ، يفعل باختياره ما يريد .

وكذلك النفس ، أقسم بها ، وبمن سواها ، وألهمها فجورها وتقواها .

فإن من الناس من يقول : قديمة لامبدع لها .

ومنهم من يقول : بل هى التى تبدع فجورها وتقواها .

فذكر ، سبحانه ، أنه هو الذى سواها وأبدعها ، وأنه هو الذى ألهمها الفجور والتقوى . فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها .

وذكر لفظ التسوية ، كما ذكره فى قوله (٨٢ الانفطار : مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ٦ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ٧) .

وفى قوله (٣٨ صٓ : فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى٧٢) إيذانا بدخول البدن فى لفظ النفس .

كقوله (٧ الأعراف : هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْس وَاحِدَة ١٨٩) وقوله (٢٤ النور : فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ٦١)

(٤ النساء : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ٢٩) .

(٢٤ النور : لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا١٢) ونظائره .

وباجتماع الروح مع البدن ، تصير النفس فاجرة أو تقية . وإلا فالروح بدون البدن لافجور لها .

وقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) الضمير المرفوع فى (زكاها) عائد على (مَنْ) وكذلك هو فى (دسَّاها) .

(المعنى : قد أفلح من زكى نفسه . وقد خاب من دساها . هذا القول ، هو الصحيح .

وهو نظير قوله (٨٧الأعلى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ١٤)

وهو سبحانه ، إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح ، كقوله (٢٣ المؤمنون : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون ١ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢) إلى آخر الآيات .

وقوله (٢البقرة : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ٤ أُولَٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥) .

وقوله (٢٤ النور : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ٥١) ونظائره .

قال الحسن : قد أفلح من زكّى نفسه ، وحملها على طاعة الله ، وقد خاب من أهلكها ، وحملها على معصية الله . وقاله قتادة .

وقال ابن قتيبة : يريد أَفلح من زكى نفسه ، أَى نماها و أعلاها بالطاعة ، والبر والصدقة ، واصطناع المعروف .

وقد خاب من دساها ، أَى : نقصها و أَخفاها ، بترك عمل البر ، وركوب المعاصى .

والفاجر أَبداً خَفِيُّ المكان ، زَمِن المروءة ، غامض الشخص ، نا كس الرأس .

فكأَن المتصف بارتكاب الفواحش ، دسَّ نفسه ، وقمعهـا .

ومصطنع المعروف ، شهر نفسه ورفعها .

وكانت أَجواد العرب تنزل الرُّبى ويَفاع الأَرض ، لتشهر أَنفسها للمعتفين ، وتوقد النيران فى الليل للطارقين .

وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام (١) لتخفى أماكنها على الطالبين.

فأولئك أعلوْا أنفسهم وزكوها، وأولئك، أخفوْا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وَبَوَّأتَ بَيْتَكَ فِى مَعْلَمٍ
رَحِيبِ الْمبَاحَاتِ وَالْمَسْرَحِ
كَفَيْتَ الْعُفَاةَ (٢) طِلَابَ الْقِرَى
وَنَبْحَ الْكِلَابِ لِمُسْتَنْبِحِ

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابى عن قوله تعالى (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا): فقال «دسَّى» معناه: دسَّ نفسه مع الصالحين، وليس منهم.

وعلى هذا، فالمعنى: أخفى نفسه فى الصالحين، يُرِى الناس أنه منهم، وهو مُنْطَوٍ على غير ما ينطوى عليه الصالحون.

---

(١) «اليفاع» المكان المرتفع. و«الولجة» موضع، أو كهف، تستتر فيه المارة. الجمع أولاج، و«الهضم» — بكسر الضاد — المطمئن من الأرض.

(٢) العفاة: جمع. مفرده «العافى». وهو الضيف وكل طالب فضل أو رزق أو معروف. فهو كالمعتفى.. كما يستفاد من الصحاح والقاموس.

وقالت طائفة أخرى الضمير يرجع إلى الله سبحانه

قال ابن عباس ، فى رواية عطاء : قد أفلحت نفس ، زكاها الله وأصلحها . وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والكلبى ، وسعيد ابن جبير ، ومقاتل.

قالوا : سعدت نفس ، وأفلحت نفس ، أصلحها الله وطهرها ، ووفقها للطاعة ، حتى عملت بها .

وخابت وخسرت نفس ، أضلها الله وأغواها ، وأبطلها وأهلكها .

قال أرباب هذا القول : قد أقسم الله بهذه الأشياء ، التى ذكرها ، لأنها تدل على وحدانيته ، وعلى فلاح من من طَهَّره ، وخسارة من خذله ، حتى لايظن أحد ، أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية ، من غير قدر سابق ، وقضاء متقدم .

قالوا : وهذا أبلغ فى التوحيد ، الذى سيقت له هذه السورة.

قالوا : ويدل عليه قوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَها وَتَقْوَاهَا)

قالوا : ويشهد له حديث نافع ، عن ابن عمر ، عن

ابن أبي مليكة (١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

انتبهت نفسى ليلة ، فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول « رَبِّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا ، أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أنت وليها ومولاها » .

قالوا : فهذا الدعاءُ هو تأويل الآية ، بدليل الحديث الآخر : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ (قد أفلح من زكاها) وقف ثم قال : « اللهم آت نفسى تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وزكها أنت خير من زكاها (٢) » .

قالوا : وفى هذا ، مايبين أن الأمر كله ، له سبحانه ، فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى . وهو مزكيها ومُدَسِّيها ، فليس للعبد فى الأمر شيءٌ ، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئا .

قال أرباب القول الأول : هذا القول ، وإن كان جائزاً فى العربية ، حاملا للضمير المنصوب على معنى

(١) كذا هنا . وفى تفسير ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن نافع ؛ عن ابن عمر ، عن صالح بن سعيد ، عن عائشة ، وذكره . ثم قال ابن كثير : تفرد به .

(٢) رواه الحافظ ابن كثير فى تفسيره ، من طريق الطبرانى ، وابن أبى حاتم .

« مَنْ » وإن كان لفظها مذكرا ، كما فى قوله (١٠ يونس : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ٤٢) جمع الضمير ، وإن كان لفظ « مَنْ » مفردا ، حملا على نظمها . فهذا إنما يحسن ، حيث لايقع لَبْسٌ فى مفسر الضمائر .

وههنا قد تقدم لفظ « مَنْ » والضمير المرفوع فى (زَكَّاهَا) يستحقه لفظا ومعنى ، فهو أَولى به .

ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التى هى أَولى به لفظاً ومعنى . فهذا هو النظم الطبيعى الذى يقتضيه سياق الكلام ووضعه .

وأَما عود الضمير ، الذى يلى « مَنْ » على الموصول السابق وهو قوله (وَمَا سَوَّاهَا) وإخلاء جاره الملاصق له وهو (مَنْ) ثم عود الضمير المنصوب ، وهو مؤنث ، على « مَنْ » ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة . فهذا يجوز ، لو لم يكن للكلام محمل غيره أَحسن منه .

فأَما إذا كان سياق الكلام ونظمه ، يقتضى خلافه ، ولم تَدْعُ الضرورة إليه ؛ فالحمل عليه ممتنع .

قالوا : والقول الذى ذكرناه ، أَرجح من جهة المعنى لوجوه :

(أحدها) أن فيه إشارة إلى ما تقدم ، من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره ، كما هى طريقة القرآن

(الثانى) أن فيه زيادة فائدة ، وهى إثبات فعل العبد وكسبه ، وما يثاب ، وما يعاقب عليه .

وفى قوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)إثبات القضاء ، والقدر السابق .

فتضمنت الآيتان ، هذين الأصلين العظيمين ، وهما ، كثيراً ، ما يقترنان فى القرآن كقوله (٧٤ المدثر : إِنَّهُ تَذْكِرَة ٥٤ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ٥٦) .

وقوله (٨١ التكوير : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩) .

فتضمنت الآيتان ، الرد على القدرية والجبرية :

(الثالث) أن قولنا يستلزم قولكم ، دون العكس . فإن العبد إذا زكّى نفسه ودسّاها فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته ، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه ، والتخلية بينه وبين نفسه .

بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض ، لم يبق للكسب وفعل العبد – ههنا – ذكر ألبتة .

(٦) فصل

وذكر فى هذه السورة « ثمود » ، دون غيرهم من الأمم المكذبة .

فقال شيخنا : هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه ، بالأدنى على الأعلى .

فإنه لم يكن فى الأمم المكذبة ، أخف ذنبا وعذابا منهم ، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ، ماذكر عن « عاد » ، و« مدين » ، وقوم لوط ، وغيرهم. ولهذا لما ذكرهم ، وعادا قال (٤١ فصلت : فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ١٥ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ١٧) .

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة ، لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك ، من التجبر والتكبر ، والأعمال السيئة ، كاللواط ، وبخس المكيال والميزان ، والفساد فى الأرض ، كما فى سورة « هود » و« الشعراء » وغيرهما

فكان فى قوم لوط – مع الشرك – إتيان الفاحشة ، التى لم يُسْبَقُوا إليها .

وفى قوم عاد – مع الشرك – التجبر والتكبر ، والتوسع فى الدنيا ، وشدة البطش ، وقولهم (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟) .

وفى أَصحاب مدين – مع الشرك – الظلم فى الأَموال .

وفى قوم فرعون – مع الشرك – الفساد فى الأَرض والعلو .

وكان عذاب كل أُمة ، بحسب ذنوبهم وجرائمهم .

فعذب قوم عاد ، بالريح الشديد العاتية ، التى لا يقوم لها شئ .

وعذب قوم لوط ، بأَنواع من العذاب ، لم يعذب بها أُمة غيرهم .

فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء ، وطمس الأَبصار ، وقلب ديارهم عليهم . بأَن جعل عاليها سافلها ، والخسف بهم إلى أَسفل سافلين .

وعذب قوم شعيب بالنار التى أَحرقتهم ، وأَحرقت تلك الأَموال التى اكتسبوها بالظلم والعدوان .

وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة ، فماتوا فى الحال .

فإذا كان عذاب هؤلاء - وذنبهم مع الشرك ، عقر الناقة ، التى جعلها الله آية لهم - فمن انتهك محارم الله ، واستخف بأوامره ونواهيه ، وعقر عباده ، وسفك دماءهم ، كان أشد عذابا .

ومن اعتبر أحوال العالم ، قديما وحديثا ،وما يعاقب به ، من سعى فى الأرض بالفساد ، وسفك الدماء بغير حق ، وأقام الفتن ، واستهان بحرمات الله ، علم أن النجاة فى الدنيا والآخرة ، للذين آمنوا وكانوا يتقون .

(قلت) وقد يظهر فى تخصيص ثمود ، ههنا ، بالذكر ، دون غيرهم ، معنى آخر ، وهو أنهم ، ردوا الهدى بعد ماتيقنوه ، وكانوا مستبصرين به ، قد ثلجت له صدورهم ، واستيقظت له أنفسهم ، فاختاروا عليه العمى والضلالة ، كما قال تعالى فى وصفهم (فصلت : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ١٧) .

وقال (١٧الإسراء :وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ٥٩) أى : موجبة لهم التبصرة واليقين ، وإن كان جميع الأمم المهلكة ، هذا شأنهم .

فإن اللهَ ، لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها .

ولكن خصت ثمود من ذلك ، بالهدى والبصيرة بمزيد.

ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟) .

ثم قال (وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) .

ولهذا أمكن عاداً المكابرة ، وأن يقولوا لنبيهم (١١ هود : مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَة ٥٣) .

ولم يمكن ذلك ، ثمود ، وقد رأوا البينة عيانا . وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر ، فردوا الهدى بعد تيقنه ، والبصيرة التامة .

فكان فى تخصيصهم بالذكر ، تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه .

وهذا داءُ أكثر الهالكين ، وهو أعم الأدواءِ وأغلبها على أهل الأرض . والله أعلم .

(٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٨٩سورة الفجر : وَالْفَجْرِ ٢ وَلَيَالٍ عَشْرٍ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ ٥) (١) .

قيل جوابه (الفجر : إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤) وهذا ضعيف لوجهين .

(أَحدهما) طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة .

---

(١) لذى حجر : أى : لذى عقل .

(فائدة) نذكر هنا من معانى الحجر ما يخص منها ما ورد فى القرآن .

أولا : الحجر بكسر الحاء — العقل كما فى آيتنا هذه (لذى حجر) .

ثانياً : حجر الكعبة . وهو ما حواه الحطيم المدار بالبيت الحرام فى جانب الشمال من جهة الميزاب .

ثالثاً : الحجر : منازل ثمود ، ناحية الشمال عند وادى القرى . ومنه قوله تعالى :

[كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ]

رابعاً : الحجر . بكسر الحاء وفتحها وضمها : الحرام والكسر أفصح . وقرىء بهن (بكسر الحاء وضمها وفتحها) قوله تعالى : «٦سورة الأنعام وحرث حجر ١٣٨» . ويقول المشركون يوم القيامة إذا رأوا ملائكة العذاب «حجراً محجوراً» أى : حراماً محرماً . يظنون أن ذلك ينفعهم كما كانوا يقولونه فى الدار الدنيا لمن يخافونه فى الشهر الحرام اهـ من المختار من الصحاح .

(والثانى) قوله (إِنَّ رَبَّكَ لبِالْمِرْصَادِ) ذكر لتقرير عقوبة الله الأُمم المذكورة ، وهى عاد ، وثمود ، وفرعون . فذكر عقوبتهم .

ثم قال - مقرراً ومحذرا - :

(إِنَّ رَبَكَّ لَبالْمِرْصَادِ) فلا نرى تعلقه بذلك ، دون القسم .

وأَحسن من هذا أَن يقال : إن الفجر فى الليالى العشر ، زمن يتضمن أَفعالا معظمة ، من المناسك ، وأَمكنة معظمة ، وهى محلها ، وذلك من شعائر الله ، المتضمنة خضوع العبد لربه . فإن الحج والنسك ، عبودية محضة لله ، وذل وخضوع لعظمته .

وذلك ضد ماوصف به عادا وثمود ، وفرعون ، من العتو ، والتكبر ، والتجبر ، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله .

وهؤلاءِ الأُمم ، عتوا وتكبروا عن أَمر ربهم .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من أَيام العمل الصالح فيهن أَحب إلى الله من هذه الأَيام العشر » .

قيل : يارسول الله ، ولا الجهاد فى سبيل الله ؟

قال « ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله ، لم يرجع من ذلك بشيء » .

فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال ، أَهل أَن يُقْسِمَ الرب عز وجل ، به .

(والفجر) إن أُريد به جنس الفجر ، كما هو ظاهر اللفظ ، فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح ، التى هى أَول الصلوات .

فافتتح القسم بما يتضمن أَول الصلوات ، وختمه بقوله (واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) المتضمن لآخر الصلوات .

وإن أُريد بالفجر : فجر مخصوص ، فهو فجر يوم النحر وليلته ، التى هى ليلة عرفة .

فتلك الليلة من أَفضل ليالى العام ، وما رُئِىَ الشيطان فى ليلة أَدحر ؛ ولا أَحقر ولا أَغيظ منه فيها ، وذلك الفجر ، فجر يوم النحر ، الذى هو أَفضل الأَيام عندالله.

كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : « أَفضل الأَيام عند الله ، يوم النحر » رواه أَبو داود ، بإسناد صحيح .

وهو آخر أيام العشر ، وهو يوم الحج الأكبر ، كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره .

وهو اليوم الذى أذَّن فيه مُؤَذِّن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ٩ سورة التوبة : أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ٣ » وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » .

ولا خلاف أن المؤذن ، أذن بذلك فى يوم النحر ، لا يوم عرفة ، وذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امتثالا وتأويلا للقرآن .

وعلى هذا ، فقد تضمن القَسَمُ المناسك والصلوات ، وهما المختصان بعبادة الله ، والخضوع له ، والتواضع لعظمته .

ولهذا قال الخليل عليه السلام (٦ الأنعام : إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢) .

وقيل لخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم (١٠٨ الكوثر : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ٢) .

بخلاف حال المشركين المتكبرين ، الذين لا يعبدون الله وحده ، بل يشركون به ، ويستكبرون عن عبادته ،

كحال من ذكر فى هذ السورة ، من قوم عاد ، وثمود وفرعون .

وذكر سبحانه مِن جملة هذه الأقسام (الشفعوالوتر) إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ، ومنها وتر ، فى الأَمكنة ، والأَزمنة ، والأَعمال .

فالصفا والمروة ، شفع ، والبيت ، وتر ، والجمرات وتر ، و« منى » و« مزدلفة» شفع ، و« عرفة» وتر .

و أَما الأَعمال ، فالطواف ، وتر ، وركعتاه ، شفع ، والطواف بين الصفا والمروة ، وتر ، ورمى الجمار ، وتر ، كل ذلك سبع سبع ، وهو الأَصل ، فإِن الله ، وتر ، يحب الوتر .

والصلاة ، منها شفع ، ومنها وتر ، والوتر ، يوتر الشفع ، فتكون كلها وترا .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خشيت الصبح ، فأَوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت (١) .

---

(١) رواه أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وأصحاب السنن ،عن ابن عمر.

وأما الزمان ، فإن يوم عرفة ، وتر ، ويوم النحر ، شفع ، وهذا قول أكثر المفسرين .

وروى مجاهد عن ابن عباس : الوتر ، آدم ، وشُفع بزوجته حواءَ .

وقال فى رواية أُخرى : الشفع ، آدم وحواءُ ، والوتر : الله وحده .

وعنه رواية ثالثة ، الشفع ، يوم النحر ، والوتر ، اليوم الثالث .

وقال عمران بن حصين ، وقتادة : الشفع والوتر هى : الصلاة ، وروى فيه حديثا مرفوعا .

وقال عطية العوفى ، الشفع ، الخلق ، قال الله تعالى (٧٨النبأ : وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ٨) والوتر ، هو الله ، وهذا قول الحكم ، قال : كل شىءٍ شفع ، والله وتر .

وقال أَبو صالح خلق الله من كل شىءٍ زوجين اثنين ، والله وتر واحد . وهذا قول مجاهد ومسروق .

وقال الحسن : الشفع والوتر ، العدد كله ، من شفع ووتر .

وقال ابن زيد : الشفع والوتر : الخلق كله ، من شفع ووتر .

وقال مقاتل : الشفع : الأَيام والليالى ، والوتر : اليوم الذى لاليلة بعده ، وهو يوم القيامة .

وذكرت أَقوال أُخر ، هذه أُصولها . ومدارها كلها على قولين .

(أَحدهما) أَن الشفع والوتر ، نوعان للمخلوقات والمـأَمورات .

(والثانى) أَن الوتر الخالق ، والشفع المخلوق ، وعلى هذا القول ، فيكون قد جمع فى القسم بين الخالق والمخلوق ، فهو نظير ما تقدم فى قوله (والشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

ونظير ما ذكر فى قوله (٨٥ البروج : وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣) .

وما ذكر فى قوله (٩٢ واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ٣) .

وقال ههنا (وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) .

وفى سورة المدثر ، أَقسم بالليل إِذا أَدبر .

وفى سورة التكوير ، أَقسم بالليل إذا عسعس ، وقد فسر بأَقبل ، وفسر بـ « أَدبر » .

فإن كان المراد : إقباله ، فقد أَقسم بأَحوال الليل الثلاثة ، وهى : حالة إقباله ، وحالة امتداده وسريانه ، وحالة إدباره ، وهى من آياته الدالة عليه سبحانه .

وعرف « الفجر » باللام ، إذ كل أَحد يعرفه ، ونكَّرَ الليالى العشر ، لأَنها إنما تعرف بالعلم .

وأَيضاً فإن التنكير ، تعظيم لها . فإن التنكير يكون للتعظيم .

وفى تعريف « الفجر » مايدل على شهرته ، وأَنه الفجر ، الذى يعرفه كل أَحد ولايجهله .

فلما تضمن هذا القسم ، ماجاء به إبراهيم ، ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، كان فى ذلك مادل على المُقْسَم عليه ، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى (هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْر ؟) .

فإن عظمة هذا المقسم به ، يعرف بالنبوة . وذلك يحتاج إلى حِجْرٍ يَحْجُر (١) صاحبه عن الغفلة ، واتباع

---

(١) أى : إلى عقل يمنع صاحبه عن الغفلة .

و « حجر يحجر » من باب « دخل يدخل » وهو أن يمنع القاضى السفيه عن التصرف فى ماله . والمراد هنا : العقل المؤمن .

الهوى ، ويحمله على اتباع الرسل ، لئلا يصيبه ، ما أَصاب من كذب الرسل كـ « عاد » ، و« فِرعون » ،و « ثمود » .

ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ، ذكر حال المستكبرين المتجبرين الطاغين ، ثم أَخبر أنه صبَّ عليهم سَوْطَ عذاب (١) .

ونكره ، إما للتعظيم ، وإما لأَن يسيرا من عذابه ، استأْصلهم وأَهلكهم ، ولم يكن معه ، بقاءٌ ولاثبات .

ثم ذكر حال المُوَسَّع عليهم فى الدنيا ، والمُقتَّر عليهم . وأَخبر أَن توسعته على من وسع عليه – وإن كان إكراما له فى الدنيا – فليس ذلك إكراما على الحقيقة ولا يدل على أَنه كريم عنده ، من أَهل كرامته ومحبته

وأَن تقتيره على من قتَّر عليه ، لايدل على إهانته له ، وسقوط منزلته عنده .

بل يوسع ، ابتلاءً وامتحانا ، وَيُقَتِّر ، ابتلاءً وامتحانا .

فيبتلى بالنعم . كما يبتلى بالمصائب .

---

(١) سوط عذاب . أى : عذاباً مؤلماً دائماً .

وسبحانه هو ، يبتلى عبده بنعمة ، تجلب له نقمة ، وبنعمة ، تجلب له نعمة أُخرى .

وبنقمة ، تجلب له نقمة أُخرى ، وبنقمة ، تجلب له نعمة ، فهذا شأن نعمه ، ونقمه ، سبحانه .

وتضمنت هذه السورة ، ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله .

وهم : هؤلاءِ الأُمم الثلاثة : قوم عاد ، اغتروا بقوتهم .

وثمود ، اغتروا بجنانهم (١) وعيونهم ، وزروعهم وبساتينهم .

وقوم فرعون ، اغتروا بالمال والرياسة ، فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله علينا .

وهذا شأنه دائماً ، مع كل من اغتر بشيءٍ من ذلك ، لابد أَن يفسده عليه ، ويسلبه إِياه .

ثم ذكر سبحانه حال الإِنسان فى معاملته لمن هو أَضعف منه ، كاليتيم والمسكين .

---

(١) بجنانهم . جمع : مفرده « جنة » ويجمع على « جنان » و « جنات » بفتح الجيم فيهما والمراد : الحدائق المشتملة على الأشجار المثمرة من نخيل وغيره .

فلا يكرم هذا ، ولايحض على طعام هذا .

ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله ، وحبه له . وذلك هو الذى أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين .

ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة ، وهى الخاشعة المتواضعة لربها ، وماتؤول إليه من كرامته ورحمته .

كما ذكر قبلها حال النفس الأمارة ، وماتؤول إليه ، من شدة عذابه ووثاقه (١) .

(٨) فصل

وأما سورة (لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) فذكر فيها جواب القسم . وهو قوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَد ٤) وفسر « الكبد » بالاستواء ، وانتصاب القامة .

قال ابن عباس ، فى رواية مِقْسَم : « منتصبا على قدميه » وهذا قول أبى صالح ، والضحاك ، وإبراهيم ، وعكرمة ، وعبد الله بن شداد .

قال المنذر : سمعت أبا طالب يقول : الكبد : الاستواءُ والاستقامة . وفسر بالنَّصَب .

---

(١) أى : ربطه بالسلاسل والأغلال حينما يسحبون بها على وجوههم إلى النار .

هذا قول مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ورواية عن عَلِيٍّ ، وعن ابن عباس .

قال الحسن : لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم .

وقال سعيد بن أَبى الحسن (١) : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة .

وقال قتادة : يكابد أَمر الدنيا والآخرة ، فلاتلقاه إلا فى مشقة .

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : يعنى حمله وولادته ، ورضاعه ، وفصاله ، ونَبْتُ أَسنانه وحياته ، ومعاشه ، ومماته . كل ذلك شدة .

قال مجاهد : حملته أُمه كرها ، ووضعته كرها ، ومعيشته فى شدة . فهو يكابد ذلك .

وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأَمر ، وهى معاناة شدته ومشقته .

---

(١) كذا فى الأصل . وفى تفسير ابن كثير : وروى من طريق أبي مودود سمعت الحسن قرأ هذه الآية فقال : يكابد أمراً من أمر الدنيا وأمراً من أمر الآخرة .

والكبد : شدة الأَمر ، ومنه تكبَّد اللبن ، : إذا غلظ واشتد .

ومنه « الكَبِد » لأَنها دم يغلظ ويشتد .

وانتصاب القامة والاستواءِ من ذلك ، لأَنه إنما يكون عن قوة وشدة ، فإن الإنسان مخلوق فى شدة . بكونه فى الرحم ، ثم فى القماط والرباط .

ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ، ومكابدة المعيشة ، والأَمر والنهى .

ثم مكابدة الموت ، وما بعده فى البرزخ ، وموقف القيامة .

ثم مكابدة العذاب فى النار ، ولا راحة له ، إلا فى الجنة .

وفسر « الكبد » بشدة الخلق وإحكامه وقوته ، ومنه قول لبيد :

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أَرْبَدَ ، إِذْ
قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِى كَبَـــدِ ؟ (١)

---

(١) هو من قصيدة يرثى بها أخاه أربد . أولها :

مَا إنْ تَعَدَّى المَنُونَ مِنْ أَحَدٍ   لاَ وَالِدٍ مُشْفِقٍ ، وَلاَ وَلَدِ

أَى : فى شدة وعناءٍ . وهذا يشبه قوله تعالى :
(٨٦ الإنسان: نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ٢٨) قال ابن عباس : أَى خَلْقَهُمْ .

وقال أَبو عبيدة : الأَسر ، شدة الخَلْق يقال : فرس شديد الأَسر .

قال : وكل شيءٍ شددته : من قتب أَوغيره ، فهو مأَسور .

وقال المبرد : الأَسر ، القُوَى كلها .

وقال الليث : الأَسر ، قوة المفاصل والأَوصال . وشد الله أَسر فلان ، أَى قَوَّى خلقه . وكل شيءٍ جمع طرفاه ، فشد أَحدهما بالآخر ، فقد أَسر .

وقال الحسن : شددنا أَوصالهم ، بعضها إلى بعض ، بالعروق والعصب .

وقال مجاهد : هو الشرج ، يعنى موضع البول والغائط . إذا خرج الأَذى تقبُّضا .

والمقصود : أَنَّه سبحانه ، أَقسم فى سورة البلد ، على حال الإنسان ، وأَقسم ، سبحانه ، بالبلد الأَمين وهو « مكة » أُم القرى .

ثم أَقسم بالوالد وما ولد . وهو آدم وذريته فى قول جمهور المفسرين .

وعلى هذا ، فقد تضمن القسم ، أَصل المكان ، وأَصل السكان .

فمرجع البلاد ، إلى مكة ، ومرجع العباد إلى آدم .

وقوله (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) فيه قولان ، أَنه من الإحلال ، وهو ضد الإحرام .

(والثانى) أَنه من الحلول ، وهو ضد الظعن .

فإن أُريد به المعنى الأَول ، فهو حلال ساكن البلد . بخلاف المحرم الذى يحج ويعتمر ، ويرجع ، .

ولأَن أَمْنَهُ ، إنما تظهر به النعمة ، عند الحِلِّ من الإحرام .

وإلَّا ففى حال الإحرام ، هو فى أَمان ، والحرمة هناك ، للفعل ، لا للمكان .

والمقصود : هو ذكر حرمة المكان ، وهى إنما تظهر بحال الحلال ، الذى لم يتلبس بما يقتضى أَمنه .

ولكن على هذا ، ففيه تنبيه ، فإنه إذا أَقسم به ،

وفيه الحلال ، فإذا كان فيه الحرام ، فهو أولى بالتعظيم والأمن .

وكذلك ، إذا أُريد المعنى الثانى ، وهو الحلول ، فهو متضمن لهـذا التعظيم ، مع تضـمنه أمراً آخر . وهو الإقسام ببلده ، المشتمل على رسوله وعبده ، فهو خير البقاع ، وقد اشتمل على خير العباد ، فجعل بيته ، هدى للناس ، ونبيه ، إماما وهاديا لهم ، وذلك من أَعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه ، كما هو من أَعظم آياته ، ودلائل وحدانيته وربوبيته .

فمن اعتبر حال بيته ، وحال نبيه ، وجد ذلك ، من أَظهر أدلة التوحيد والربوبية .

وفى الآية قول ثالث ، وهو أن المعنى : وأَنت مُسْتَحَل قتلك ، وإخراجك من هذا البلد الأَمين ، الذى يأْمن فيه الطير والوحش والجانى .

وقد استحل قومك فيه حرمتك ، وهم لايَعْضِدُون به شجرة ، ولايُنَفِّرون به صيدا . وهذا مروى عن شرحبيل ابن سعد .

وعلى كل حال ، فهى جملة اعتراض فى أَثناء القسم ، موقعها ، من أَحسن موقع وأَلطفه

فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله .

ثم أَنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه ، أَنلن يقدر عليه مَنْ خلقه ، فى هذا الكبد والشدة والقوة ، التى يكابد بها الأُمور .

فإن الذى خلقه كذلك ، أَولى بالقدرة منه ، وأَحق ، فكيف يقدر على غيره ، من لم يكن قادرا فى نفسه .

فهذا برهان مستقل بنفسه ، مع أَنه متضمن للجزاء ، الذى مناطه ، القدرة والعلم .

فنبه على ذلك بقوله : (أَيَحْسَبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ؟٥) وبقوله (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟ ٧) فيحصى عليه ما عمل ، من خير وشر ، ولايقدر عليه ، فيجازيه بما يستحقه ؟

ثم أَنكر سبحانه على الإنسان قوله : (أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَداً ٦) وهو الكثير ، الذى يُلَبَّد بعضه فوق بعض .

فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه ، وإنفاقه فى غير وجهه .

إذ لو أَنفقه فى وجوهه التى أُمر بإنفاقه فيها ،

ووضعه مواضعه ، لم يكن ذلك إهلاكا له ، بل تَقَرُّباً به إلى الله ، وتوصُّلًا به إلى رضاه وثوابه . وذلك ليس بإهلاك له .

فأنكر سبحانه ، افتخاره ، وتبجحه بإنفاق المال فى شهواته وأغراضه ، التى إنفاقه ، فيها إهلاك له .

ثم وبخه بقوله (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟) وأتى ههنا بـ « لم » ، الدالة على المُضِىّ ، فى مقابلة قوله (أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَداً) فإن ذلك فى الماضى .

أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه ، وفيما أهلكه ؟

ثم ذكر برهانا مقدراً أنه سبحانه ، أحق بالرؤية ، وأولى من هذا العبد ، الذى له عينان يبصر بهما .

فكيف يعطيه البصر ، من لم يره ؟ وكيف يعطيه آلة البيان ، من الشفتين واللسان ، فينطق ، ويبين عما فى نفسه ، ويأمر وينهى من لايتكلم ولا يكلم ، ولا يخاطب ، ولا يأمر ، ولا ينهى ؟

وهل كمال المخلوق ، مستفاد إلا من كمال خالقه ؟

ومن جعل غيره عالما بِنَجْدَىِ الخير والشر ــ وهما طريقاهما ــ أليس هو أولى وأحق بالعلم منه ؟

ومن هداه إلى هذين الطريقين ، كيف يليق به أن يتركه سدى ، لا يُعَرِّفه ما يضره وما ينفعه فى معاشه ومعاده ؟

وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين ؟

فدل هذا كله ، على إثبات الخالق ، وصفات كماله ، وصدق رسله ، ووعده .

وهذه أُصول الإيمان ، التى اتفق عليها جميع الرسل ، من أولهم إلى آخرهم ، إذا تأَمل الإنسان حاله ، وَخَلْقَهُ ، وجده من أَعظم الأَدلة على صحتها وثبوتها .

فتكفى الإنسان ، فكرته فى نفسه وخلقه .

والرسل ، بُعِثُوا مذكرين بما فى الْفِطَر والعقول ، مكملين له ، لتقوم على العبد حجة الله ، بفطرته ورسالته

ومع هذا ، فقامت عليه حجته ولم يقتحم العقبة ، التى بينه وبين ربه ، التى لايصل إليها ، حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه ، بفَكِّ الرقبة ، وهو تخليصها من الرق ، ليخلصه الله من رق نفسه ، ورق عدوه .

وبإطعام اليتيم والمسكين فى يوم المجاعة ، وبالإخلاص

له سبحانه ، بالإيمان الذى هو خالص حقه عليه . وهو تصديق خبره ، وطاعة أمره ، وابتغاءُ وجهه .

وبنصيحة غيره ، أن يوصيه بالبر والرحمة ، ويقبل وصية من أوصاه بها ، فيكون صابرا رحيما فى نفسه ، معينا لغيره على الصبر والرحمة .

فمن لم يقتحم هذه العقبة ، وهلك دونها ، هلك منقطعا عن ربه ، غير واصل إليه ، بل محجوبا عنه .

والناس قسمان : ناج ، وهو : من قطع العقبة ، وصار وراءها .

وهالك ، وهو من دون العقبة ، وهم أكثر الخلق ، ولا يقتحم هذه العقبة ، إلا الْمُضَمَّرُونَ ، فإنها عقبة كؤود شاقة ، لايقطعها إلا خفيف الظهر . وهم أصحاب الميمنة .

والهالكون دون العقبة ، الذين لم يصدقوا الخبر ، ولم يطيعوا الأمر .

٩٠ البلد : ف « هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ١٩ » .
عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ٢٠ (١) .

قد أطبقت عليهم ؛ فلا يستطيعون الخروج منها ،

---

(١) مؤصدة : مغلقة عليهم أبوابها ، لا يستطيعون الخروج منها .

كما أَطبقت عليهم أَعمال الغىّ والاعتقادات الباطلة ، المنافية لما أَخبرت به رسله ، فلم تخرج قلوبهم منها .

كذلك أطبقت عليهم هذه النار ، فلم تستطع أَجسامهم الخروج منها .

فتأَمل هذه السورة على اختصارها ، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان .. وبالله التوفيق .

وأيضاً فإن طريقة القرآن ، يذكر العلم والقدرة ، تهديدا ، وتخويفا لترتب الجزاء عليهما كما قال تعالى (٦ الأَنعام : قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ٦٥) وقوله تعالى (٩٦ العلق : أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ١١ أَوْأَمَرَ بِالتَّقْوَى ١٢ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ؟ ١٤) وقوله تعالى (٩ التوبة : وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ١٠٥) وقال (٤٣ الزخرف : أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى ، وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٨٠) وهذا كثير جدا فى القرآن .

وليس المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم ، لكن الإخبار - مع ذلك - بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل

فإنه إذا كان قادراً ، أمكن مجازاته .

وإذا كان عالماً ، أمكن ذلك ، بالقسط والعدل .

ومن لم يكن قادراً ، لم يمكن مجازاته .

وإذا كان قادراً ، لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال ، ومقادير جزائها ، لم يجاز بالعدل .

والرب تعالى موصوف بكمال القدرة ، وكمال العلم .

فالجزاءُ منه ، موقوف على مجرد مشيئته وإرادته .

فحينئذ يجب على العاقل ، أن يطلب النجاة منه بالإخلاص والإحسان ، فهو اقتحام العقبة ، المتضمن للتوبة إلى الله تعالى ، والإحسان إلى خلقه .

وقال (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) وهو فعل ماض ، ولم يكرر معه « لا » إما استعمالا لأداة « لا » كاستعمال « ما » وإما إجراءً لهذا الفعل مجرى الدعاء . نحو فلا سَلِمَ ولا عاش . ونحو ذلك .

وإما لأن (العقبة) ، قد فسرت بمجموع أُمور :

فاقتحامها ، فعل كل واحد منها . فأغنى ذلك عن تكريرها .

فكأنه قال : فلافك رقبة ، ولا أطعم ، ولاكان من الذين آمنوا .

وقراءة من قرأ (فَكَّ رقبة) بالفعل ، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر . لأن قوله (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟١٢) على حد قوله (٦٩الحاقة الحاقَّةُ١ مَاالحاقَّةُ٢ : وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّة٣) (٨٢الانفطار : وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّين ١٧) (١٠١القارعة : وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ١٠ نَارٌحَامِيَةْ١١) ونظائره تعظيما لشأن العقبة ، وتفخيما لأمرها . وهي جملة اعتراض بين المفسِّر والمفسَّر .

فإن قوله (فَكُّ رَقَبَة ١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْم ذِى مَسْغَبَة ١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَة ١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَة ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) تفسير لاقتحام العقبة ، مكان شاق كؤود ، يقتحمه الناس ، حتى يصلوا إلى الجنة .

واقتحامه بفعل هذه الأمور . فمن فعلها ، فقد اقتحم العقبة .

ويدل على ذلك قوله تعالى (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ

آمَنُوا) وهذا عطف على قوله (فَكُّ رَقَبَة) والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة ، التى هى تفسير لما ذكر أولا .

وأيضا فإن من قرأها بالمصدر المضاف ، فلابد له من تقدير ، وهو : ما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ واقتحامها ، فك رقبة .

وأيضاً فمن قرأها بالفعل ، فقد طابق بين المفسِّر وما فَسَّرَه .

ومن قرأها بالمصدر ، فقد طابق بين المفسِّر وبعض ما فسره .

فإن التفسير ، إن كان لقوله (اقتحم) طابقه بقوله (ثُم كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وما بعده ، دون (فَكُّ رَقَبَةٍ) وما يليه .

وإن كان لقوله (العقبة) طابقه (فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ) دون قوله (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وما بعده

وإن كانت المطابقة حاصلة معنى ، فحصولها لفظاً ومعنى أتم وأحسن .

واختلف فى هذه العقبة ، هل هى فى الدنيا أو فى الآخرة ؟

فقالت طائفة : العقبة ههنا ، مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان ، فى أَعمال البر . وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل .

قال الحسن : عقبةٌ – والله – شديدة : مجاهدة الإِنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان .

وقال مقاتل : هذا مَثَلٌ ضربه الله ، يريد أَن المعتق رقبة ، والمطعم اليتيم والمسكين ، يقاحم نفسه وشيطانه ، مثل أَن يتكلف صعود العقبة .

فشبه المعتق رقبة ، فى شدته عليه ، بالمكلف صعود العقبة ، وهذا قول أَبى عبيدة .

وقالت طائفة : بل هى عقبة حقيقة ، يصعدها الناس

قال عطاءٌ : هى عقبة جهنم .

وقال الكلبى : هى عقبة بين الجنة والنار . وهذا قول مقاتل ، إنها عقبة جهنم .

وقال مجاهد والضحاك : هى الصراط ، يضرب على جهنم . وهذا – لعله – قول الكلبى .

وقول هؤلاءِ أَصح نظراً ، وأَثراً ، ولغة .

قال قتادة : فإنها عقبة شديدة ، فاقتحموها بطاعة ، وفى أَثر معروف « إن بين أَيديكم عقبة كؤوداً ،

لا يقتحمها إلا الْمُخِفُّون » أَو نحو هذا . وأَن الله سمى الإيمان به ، وفعل ما أَمر ، وترك ما نهى — عقبة .

فكثيراً ما يقع فى كلام السلف ، الوصية بالتَّضمُّر لاقتحام العقبة .

وقال بعض الصحابة — وقد حضره الموت ، فجعل يبكى ، ويقول : مالى لا أَبكى ، وبين يَدَىَّ عقبة كؤود ، أَهبط منها ، إما جنة ، وإما إلى نار ؟ .

فهذا القول أَقرب إلى الحقيقة ، والآثار السلفية والمأْلوف من عادة القرآن فى استعماله (وَمَا أَدْرَاكَ) فى الأُمور الغائبة العظيمة ، كما تقدم . والله أَعلم .

(٩) فصل

ومن ذلك إقسامه (٩٥التين : ب« وَالتِّين والزَّيْتُون ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِين ٣) .

فأَقسم سبحانه بهذه الأَمكنة الثلاثة العظيمة ، التى هى مظاهر أَنبيائه ورسله ، أَصحاب الشرائع العظام ، والأُمم الكثيرة .

فالتين والزيتون ، المراد به : نفس الشجرتين

المعروفتين ، ومنبتهما . وهو أَرض بيته المقدس فإنها أَكثر البقاع ، زيتونا وتينا .

وقد قال جماعة من المفسرين : إنه سبحانه ، أَقسم بهذين النوعين من الثمار ، لمكان العزة فيهما .

فإن التين ، فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، لا عَجَمَ له (١) وهو على مقدار اللقمة .

وهو فاكهة ، وقوت ، وغذاءٌ ، وأُدْم . ويدخل فى الأَدوية ، ومزاجه من أَعدل الأَمزجة ، وطبعه ، طبع الحياة ، الحرارة ، والرطوبة .

وشكله من أَحسن الأَشكال ، ويدخل أَكله والنظر إليه ، فى باب المفرحات .

وله لذة ، يمتاز بها عن سائر الفواكه ، ويزيد فى القوة ، ويوافق الباءة ، وينفع من البواسير والنقرس ، ويؤكل رطبا ويابسا .

وأَما الزيتون ، ففيه من الآيات ، ما هو ظاهر لمن اعتبر .

فإن عوده ، يخرج ثمرا ، يعصر منه هذا الدهن ،

(١) العجم بفتح حرف العين والجيم ، وكـ « غراب » ، نوى كل شيء .

الذى هو مادة النور ، وصبْغٌ للآكلين ، وطيب ودواء ، وفيه من مصالح الخلق مالايخفى .

وشجره باق على ممر السنين المتطاولة . وورقه لا يسقط .

وهذا الذى قالوه حق ، ولا ينافى أن يكون منبته مرادا .

فإن منبت هاتين الشجرتين ، حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة . فيكون الإقسام ، قد تناول الشجرتين ، ومنبتهما ، وهو مظهر عبدالله ورسوله ، وكلمته ، وروحه ، عيسى بن مريم .

كما أن طور سينين ، مظهر عبده ورسوله وكليمه ، موسى ، فإنه الجبل الذى كلمه عليه وناجاه ، وأرسله إلى فرعون وقومه .

ثم أقسم بالبلد الأمين ، وهو « مكة » مظهر خاتم أنبيائه ورسله ، سيد ولد آدم . وترقّى فى هذا القسم ، من الفاضل ، إلى الأفضل .

فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثَنَّى بموضع مظهر الكليم . ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله ، وأكرم الخلق عليه .

ونظير هذا بعينه فى التوراة ، التى أنزلها الله على

كليمه موسى « جاءَ اللهُ من طور سيناءَ ؛ وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » .

فمجيئه من طور سيناءَ ، بعثته لموسى بن عمران ، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع .

ثم ثنّى بنبوة المسيح ، ثم ختمه بنبوة محمد ، صلى الله عليهم وسلم .

وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح ، ونبوة المسيح بعده ، بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهما بعدهما ، بمنزلة استعلانها وظهورها للعالم .

ولما كان الغالب على بنى إسرائيل حكم الحس ، ذكر ذلك مطابقا للواقع .

ولما كان الغالب على الأُمة الكاملة ، حكم العقل ، ذكرها على الترتيب العقلى .

وأقسم بها على بداية الإنسان ونهايته . فقال (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيم ٤) أى : فى أحسن صورة ، وشكل ، واعتدال ، معتدل القامة ، مستوى الخلقة ، كامل الصورة ، أَحسن من كل حيوان سواه .

والتقويم : تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون ، فى التأليف والتعديل .

وذلك صنعته تبارك وتعالى ، فى قبضة من تراب .

وخلقه بالمشاهدة من نطفة ، من ماءٍ .

وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده ، وقدرته ، وحكمته ، وعلمه ، وصفات كماله .

ولهذا يكررها كثيراً فى القرآن ، لمكان العبرة بها . والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته ، وعلى المبدإ والمعـــاد .

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة ، الدالة عليه ، وعلى علمه وحكمته ، عنايته بخلقه ، بأن أرسل منها رسلا ، أنزل عليهم كتبه ، يُعَرِّفون العباد بربهم ، وحقوقه عليهم ، وينذرونهم بالله ونقمته ، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه .

ثم لما كان الناس فى إجابة هذه الدعوة فريقين ، منهم من أجاب ، ومنهم من أبى ، ذكر حال الفريقين .

فذكر حال الأكثرين ، وهم المردودون إلى أسفل سافلين

والصحيح ، أنه النار . قاله مجاهد ، والحسن ، وأبو العالية .

قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : هى النار ، بعضها أسفل من بعض .

وقالت طائفة ، منهم قتادة ، وعكرمة ، وعطاءُ والكلبى ، وإبراهيم : إنه أرذل العمر ، وهو مروى عن ابن عباس .

والصواب القول الأول لوجو ه (أحدها) أن أرذل العمر ، لايسمى أسفل سافلين ، لافى لغة ، ولاعُرْف .

وإنما أسفل سافلين ، هو سِجِّين ، الذى هو مكان الفجار ، كما أن عِلِّيِّين ، مكان الأبرار .

(الثانى) أن المردودين إلى أسفل العمر ، بالنسبة إلى نوع الإنسان ، قليل جداً ، فأكثرهم يموت ، ولا ير د إلى أرذل العمر .

(الثالث) أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون ، هم وغيرهم فى رد من طال عمر ه منهم ، إلى أرذل العمر .

فليس ذلك مختصاً . بالكفار ، حتى يستثنى منهم المؤمنين .

(الرابع) أن الله سبحانه لما أرا د ذلك ، لم يخصه

بالكفار ، بل جعله لجنس بنى آدم ، فقال (٢٢الحج : وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُردُّ إِلَى أَرْذَل الْعُمُر لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْم شَيْئًا ٥) فجعلهم قسمين :

قسما متوفى قبل الكبر ، وقسما مردوداً إلى أَرذل العمر ، ولم يسمه أَسفل سافلين .

(الخامس) أَنه لا تحسن المقابلة بين أَرذل العمر ، وبين جزاء المؤمنين .

وهو سبحانه ، قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أَهل الإيمان .

فجعل جزاءَ الكفار ، أَسفل سافلين . وجزاءَ المؤمنين أَجراً غير ممنون .

(السادس) أَن قول من فسره بأَرذل العمر ، يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار ، وعاقبة أَمرهم ويستلزم تفسيرها بأَمر محسوس .

فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأَهم . وأَخبر عن أَمر ، يعرف بالحِسِّ والمشاهدة . وفى ذلك هضم لمعنى الآية وتقصير بها ، عن المعنى اللائق بها .

(السابع) أنه سبحانه ، ذكر حال الإنسان فى مَبْدئه ومعاده .

فمبدؤه ، خلقه فى أَحسن تقويم .

ومعاده ، ردّه إلى أَسفل سافلين ، أَو إلى أَجر غير ممنــون .

وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته ، فى ذكر مبدإِ العبد ومعاده .

فما لأَرذل العمر ، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه ؟

(الثامن) أَن أَرباب القول الأَول ، مضطرون إلى مخالفة الحس وإخراج الكلام عن ظاهره ، والتكلف البعيد له .

فإنهم إن قالوا : إن الذى يرد إلى أَرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين ، كابروا الحس .

وإن قالوا : إن من النوعين ، من يرد إلى أَرذل العمر ، احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء .

فمنهم من قدر ذلك ، بأَن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لاتبطل أعمالهم ، إذا رُدُّوا إلى أَرذل العمر ،

بل تجرى عليهم أعمالهم ، التى كانوا يعملونها فى الصحة

فهذا - وإن كان حقا - فإن الاستثناء ، إنما وقع من الرد ، لامن الأجر والعمل .

ولما علم أرباب هذا القول ، مافيه من التكلف ، خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بِقُرَّاء القرآن خاصة .

فقالوا: من قرأ القرآن ، لايرد إلى أرذل العمر . وهذا ضعيف من وجهين .

(أحدهما) أن الاستثناء عام فى المؤمنين ، قارئهم وأُمِّيِّهم ، وأنه لادليل على ما ادَّعَوْه .

وهذا لايعلم بالحس ، ولاخبر يجب التسليم له ، يقتضيه ، والله أعلم .

(التاسع) أنه سبحانه ، ذكر نعمته على الإنسان بخلقه فى أحسن تقويم .

وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان ، وعبادته وحده لاشريك له ، فينقله حينئذ ، من هذه الدار ، إلى أعلى عليين .

فإذا لم يؤمن به . وأشرك به ، وعصى رسله ،

نقله منها إلى أسفل سافلين ، وبَدَّله بعد هذه الصورة التى هى فى أَحسن تقويم ، صورة من أَقبح الصور ، فى أَسفل سافلين .

فتلك نعمته عليه ، وهذا عدله فيه وعقوبته ، على كفرانِ نعمته .

(العاشر) أَن نظير هذه الآية قوله تعالى (٨٤ الانشقاق : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَاب أَلِيم ٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون ٢٥) .

فالعذاب الأَليم ، هو أَسفل سافلين .

والمستثنون ، هنا ، هم المستثنون هناك ، والأَجر غير الممنون هناك ، هو المذكور هنا ، والله أَعلم .

وقوله (غير ممنون) أَى غير مقطوع ولامنقوص ، ولامكدر عليهم ، وهذا هو الصواب .

وقالت طائفة : غير ممنون به عليهم ، بل هوجزاءُ أَعمالهم ؛ ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل ، وهو قول كثير من القدرية .

قال هؤلاء : إن المنة تكدر النعمة . فتمام النعمة ، أَن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه .

وهذا القول خطأٌ قطعا ، أُتِيَ أربابه ، من تشبيه نعمة الله على عبده ، بإنعام المخلوق على المخلوق . وهذا من أبطل الباطل .

فإن المنة التى تكدر النعمة ، هى منة المخلوق على المخلوق .

وأما مِنَّةُ الخالق على المخلوق ، فبها تمام النعمة ، ولذتها ، وطيبها . فإنها منة حقيقة .

قال تعالى (٤٩ الحجرات : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٧) .

وقال تعالى (٣٧ الصافات : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ١١٥) فتكون مِنَّةً عليهما ، بنعمة الدنيا ، دون نعمة الآخرة .

وقال لموسى (٢٠ طه : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ٢٧)

وقال أهل الجنة (٥٢ الطور : فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ٢٧) .

وقال تعالى (٣ آل عمران : لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ١٦٤) الآية .

وقال (٢٨ القصص : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ ٥) الآية .

وفى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : «ألم أجدكم ضُلّالًا فهداكم الله بى ؟ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بى ؟» فجعلوا يقولون له : الله ورسوله أَمَنُّ

فهذا جواب العارفين بالله ورسوله .

وهل المنة كل المنة ، إلا لله الْمَانِّ بفضله ، الذى جميع الخلق فى منته ؟

وإنما قبحت منة المخلوق ، لأنها منة بما ليس منه ، وهى منة يتأذى بها الممنون عليه .

وأما منة المنان بفضله ، التى ما طاب العيش إلا بمنته ، وكل نعمة منه فى الدنيا والآخرة ، فهى مِنَّة ممن بها على من أنعم عليه ، فتلك لايجوز نفيها .

وكيف يجوز أن يقال : إنه لامنة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى دخول الجنة ؟

وهل هذا إلا من أبطل الباطل ؟

فإن قيل : هذا القدر ، لايخفى على من قال هذا القول من العلماء .

وليس مرادهم ماذكر ، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به ، وإن كانت لله فيه المنة عليهم ، فإنه لايمن عليهم به بل يقال : هذا جزاءُ أعمالكم ، التى عملتموها فى الدنيا ، وهذا أجركم ، فأنتم تستوفون أُجور أعمالكم ، لانمن عليكم بما أعطيناكم .

قيل : وهذا أيضا هو الباطل بعينه ، فإن ذلك الأجر ، ليست الأعمال ثمنا له ، ولامعاوضة عنه .

وقد قال أعلم الخلق بالله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل (١) » .

فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله ، وذلك محض منته عليه ، وعلى سائر عباده ؛ .

وكما أنه سبحانه المانُّ بإرسال رسله ، وبالتوفيق لطاعته ، وبالإعانة عليها ، فهو المانُّ بإعطاء الجزاء وذلك كله محض منته ، وفضله ، وجوده ، لاحق لأحد عليه ، بحيث إذا وفاه إياه ، لم يكن له عليه منة . فإن كان فى الدنيا باطلٌ ، فهذا ليس منه فى شيء .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

فإن قيل : كيف تقولون هذا ، وقد أَخبر رسوله عنه بأَن حق العباد عليه ، إذا وحدوه أَن لايعذبهم (١) وقد أَخبر عن نفسه ، أَن حقًّا عليه نصر المؤمنين ؟

قيل : لعمر الله ، هذا من أَعظم منته على عباده ، أَن جعل على نفسه حقاً ، بحكم وعده الصادق : أَن يثيبهم : ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه . فهذا من تمام منتـــه .

فإنه لو عذَّب أَهل سمواته وأَرضه ، لعذبهم ، وهو غير ظالم لهم .

ولكن منته ، اقتضت أَن أَحَقَّ على نفسه ، ثواب عابديه ، وإجابة سائليه .

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبُ
كَلَّا ، وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ ، أَوْ نُعِّمُوا
فَبِفَضْلِهِ ، فَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

---

(١) فى حديث معاذ المتفق عليـــه « هل تدرى يا معاذ ، ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم .

قال « حق الله على عباده ، أن يعبـــدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ، أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » .

وقوله سبحانه (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّين) أَصح القولين أَن هذا خطاب للإِنسان .

أَى : فما يكذبك بالجزاءِ والمعاد ، بعد هذا البيان ، وهذا البرهان ؟

فتقول : إِنك لاتبعث ولا تحاسب .

ولو تفكرت فى مبدإِ خلقك ، وصورتك ، لعلمت أَن الذى خلقك ، أَقدر على أَن يعيدك بعد موتك ، وينشئك خلقا جديدا ، وأَن ذلك لو أَعجزه ، لأَعجزه وأَعياه خلقك الأَول .

وأَيضاً ، فإِن الذى كمل خلقك فى أَحسن تقويم ، بعد أَن كنت نطفة من ماءِ مهين ، كيف يليق به أَن يتركك سُدًى ، لايكمل ذلك بالأَمر والنهى ، وبيان ماينفعك ويضرك ، ولاتنقل لدار هى أَكمل من هذه ، ويجعل هذه الدار طريقا لك إِليها فحكمة أَحكم الحاكمين ، تأَبى ذلك وتقضى خلافه .

قال منصور : قلت لمجاهد (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّين) عنى به محمداً ؟

فقال : معاذ الله ، إِنما عنى به الإِنسان .

وقال قتادة : الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم ، واختاره الفراءُ . وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان .

يقال : كَذَبَ الرجل ، إذا قال الكذب ، وكذَّبتُه أنا ، إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه . وكَذَّبتَه إذا اعتقدت كذبه ، وإن كان صادقا . قال تعالى (٣ آل عمران : فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ١٨٤) وقال (٦ الأَنعام : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ٣٣) .

فالأَول بمعنى : وإن ينسبوك إلى الكذب .

والثانى بمعنى : لايعتقدون أَنك كاذب ، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق ، بعد معرفته ، جحودا وعنادا ، هذا أَصل هذه اللفظة .

ويتعدى الفعل إلى الخبر بنفسه ، وإلى خبره بالباءِ ، وبـ « فى » فيقال : كذبته بكذا ، وكذبته فيه .

والأَول أَكثر استعمالا ، ومنه قوله (٥٠ : بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ٥) وقوله (٧٨ النبأَ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ٢٨).

إذا عرف هذا ، فقوله (فَمَا يُكَذِّبُكَ) اختلف فى « ما » هل هى بمعنى « أَى شيءٍ يكذبك ؟ أَو بمعنى « من الذى يكذبك » ؟

فمن جعلها بمعنى : أى شيء ، تعيّن على قوله ، أن يكون الخطاب للإنسان .

أى : فأى شيء يجعلك بعد هذا البيان ، مكذبا بالدين ، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق ؟

ومن جعلها بمعنى : فمن الذى يكذبك ؟ جعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

قال الفراءُ : كأنه يقول ، من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب ، بعدما تبين له ، من خلق الإنسان ما وصفناه ؟

وقال قتادة : فمن يكذبك أيها الرسول ، بعد هذا ، بالدين ؟

وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين :

(أحدهما) إقامة « ما » مقام « مَنْ » وأمره سهل

(والثانى) أن الجار والمجرور ، يستدعى متعلقاً ، وهو يكذبك ، أى : فمن يكذبك بالدين ؟

فلا يخلو ، إما أن يكون المعنى : فمن يجعلك كاذبا بالدين ، أو مكذبا به ، ولا يصح واحد منهما

أما الثانى والثالث ، فظاهر . فإن كذبته ، ليس

معناه جعلته مكذِّبا أَو مكذَّبا . وإنما معناه نسبته إلى الكذب .

فالمعنى على هذا ، فمن يجعلك بَعْدُ ، كاذبا بالدين ، وهذا إنما يتعدى إليه بالباءِ ، الفعل المضاعف ، لاالثلاثى ، فلا يقال : كذب كذا ، وإنما يقال كذب به .

وجواب هذا الإِشكال ، أَن قوله : كذّب بكذا ، معناه كذب المخبر به ، ثم حذف المفعول به ، لظهور العلم به ، حتى كأَنه نسى ، وعَدَّوُا الفعل إلى المخبر به . فإذا قيل : من يكذبك بكذا ؟ فهو بمعنى كذبوك بكذا ، سواءً ، أَى : نسبوك إلى الكذب ، فى الإِخبار به

بل الإِشكال فى قول مجاهد ، والجمهور ، فإن الخطاب إذا كان للإِنسان ، وهو المكذب ، أَى : فاعل التكذيب ، فكيف يقال له : ما يكذبك ، أَى : يجعلك مكذبا .

والمعروف كذبه إذا جعله كاذبا لامكذَّبا . ومثل فسَّقه إذا جعله فاسقا لامُفسِّقًا لغيره .

وجواب هذا الإِشكال : أَن صدَّق وكذَّب - بالتشديد - يراد به معنيان :

(أحدهما) النسبة . وهى : إنما تكون للمفعول كما ذكرتم .

(والثانى) الداعى والحامل على ذلك ، وهو يكون للفاعل .

قال الكسائى : يقال ، ما صدَّقك بكذا ؟ أو ما كذَّبك بكذا ؟ أى ما حملك على التصديق والتكذيب .

قلت : وهو نظير ما أجرأك على هذا ؟

أى : ما حملك على الاجتراء عليه .

وما قدَّمك وما أخَّرك ، أى : ما دعاك وحملك على التقديم والتأخير ؟ .

وهذا استعمال سائغ ، موافق للعربية . وبالله التوفيق.

ثم ختم السورة بقوله (أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) وهذا تقرير لمضمون السورة ، من إثبات النبوة ، والتوحيد ، والمعاد .

وحكمه يتضمن نصره لرسوله على من كذبه ، وجحد ما جاءَ به ، بالحجة والقدرة والظهور عليه .

وحكمه بين عباده فى الدنيا بشرعه وأمره .

وحكمه بينهم فى الآخرة ، بثوابه ، وعقابه ، وأن أحكم الحاكمين ، لايليق به تعطيل هذه الأحكام ، بعد ما ظهرت حكمته فى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ونقله فى أطوار التخليق ، حالا بعد حال ، إلى أكمل الأحوال .

فكيف يليق بأحكام الحاكمين ، أن لايجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ؟

وهل ذلك إلا قدح فى حكمه وحكمته ؟

فلله ، ما أخصر لفظ هذه السورة ، وأعظم شأنها ، وأتم معناها . والله أعلم .

(١٠) فصل

ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى : (٩٢ سورة الليل : واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ١ والنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ٣) .

وقد تقدم ذكر القسم عليه ، وأنه سعْىُ الإنسان فى الدنيا ، وجزاؤه فى العقبى .

فهو ، سبحانه ، يقسم بالليل فى جميع أحواله ، إذ هو من آياته الدالة عليه .

فأقسم به وقت غشيانه .

وأتى بصيغة المضارع ، لأنه يغشى شيئا بعد شىء .

وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ، ظهر وتجلّى ، وَهْلَةً واحدة . ولهذا قال فى سورة «٩١ :والشمس وضحاها» (والنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا٣ واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا٤) .

وأقسم به وقت سريانه كما تقدم . وأقسم به وقت إدباره . وأقسم به إذا عَسْعَسَ .

فقيل معناه : أدبر ، فيكون مطابقا لقوله (٧٤المدثر : واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤) .

وقيل : معناه : أقبل ، فيكون كقوله (٩٢الليل واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى١ والنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ٢) فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار .

وعلى الأول ، يكون القسم واقعا على انصرام الليل ، ومجىء النهار عقيبه ، وكلاهما من آيات ربوبيته .

ثم أقسم بخلق الذكر والأُنثى ، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله ، على اختلاف أصنافه ، ذكره وأنثـــاه .

وقابل بين الذكر والأُنثى ، كما قابل بين الليل والنهار . وكل ذلك ، من آيات ربوبيته . —

فإن إخراج الليل والنهار ، بواسطة الأَجرام العلوية ، كإخراج الذكر ، والأُنثى ، بواسطة الأَجرام السفلية .

فأَخرج من الأَرض ذكور الحيوان ، وإناثه ، على اختلاف أَنواعها ، كما أَخرج من السماءِ الليل والنهار ، بواسطة الشمس فيها .

وأَقسم سبحانه ، بزمانِ السعى ، وهو الليل والنهار ، وبالساعى ، وهو الذكر والأُنثى ، على اختلاف السعى ، كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والأُنثى ، وسعيه ، وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأَنه ، سبحانه ، لايُسوِّى بين من اختلف سعيه فى الجزاءِ ، كما لم يَسَوِّ بين الليل والنهار ، والذكر والأُنثى

ثم أَخبر عن تفريقه ، بين عاقبة سَعْى المحسن وعاقبة سَعْى المسيءِ فقال :

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ١٠) .

فتضمنت الآيتان ، ذكر شرعه ، وذكر الأعمال وجزائها ، وحكمة القدر فى تيسير هذا لليسرى ، وهذا للعسرى ، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ، ولايظلم ربك أحدا .

وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب .

(أحدها) إعطاءُ العبد ، وحذف مفعول الفعل ، إرادة للإطلاق والتعميم .

أى : أعطى ما أمر به ، وسمحت به طبيعته ، وطاوعته نفسه ، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة ، والإخلاص ، والتوبة ، والشكر ، وإعطاءه الإحسان ، والنفع بماله ، ولسانه ، وبدنه ، ونيته ، وقصده .

فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة ، لا لئيمة مانعة .

فالنفس المطيعة ، هى النافعة المحسنة ، التى طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدى ، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها .

فهى بمنزلة العين ، التى ينتفع الناس ، بشربهم منها ، وسَقْى دوابهم ، وأنعامهم وزرعهم ، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا ، فهى ميسرة لذلك .

وهكذا الرجل المبارك ، ميسر للنفع حيث حَلَّ . فجزاءُ هذا ، أن ييسر ه الله لليسرى ، كما كانت نفسه ميسرة للعطاء .

(السبب الثانى) التقوى ، وهى : اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من أَعظم أَسباب التيسير ، وضده ، من أَسباب التعسير .

فالمتقِّى مُيَسَّرَةٌ عليه أُمور دنياه وآخرته .

وتارك التقوى ، وإن يُسِّرت عليه بعض أُمور دنياه ، تُعَسَّر عليه من أُمور آخرته ، بحسب ما تركه من التقوى .

وأَما تيسير ما تيسر عليه من أُمور الدنيا ، فلو اتقى الله ، لكان تيسيرها عليه ، أَتم .

ولو قدر أَنها لم تتيسر له ، فقد يسر الله له من الدنيا ، ماهو أَنفع له ، مما ناله بغير التقى .

فإن طيب العيش ، ونعيم القلب ، ولذة الروح ، وفرحها وابتهاجها من أَعظم نعيم الدنيا ، وهو أَجل من نعيم أَرباب الدنيا بالشهوات واللذات .

وقال تعالى (٦٥الطلاق : وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ٤) .

فأخبر أنه يُيَسِّرُ على المتقى ، مالاييسر على غيره .

وقال تعالى (٦٥ الطلاق : وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ٢ ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ ٣) وهذا أيضاً ، ييسر عليه بتقواه .

وقال تعالى (٦٥ الطلاق : وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ٥) وهذا يتيسر عليه بإزالة مايخشاه ، وإعطائه ما يحبه ويرضاه .

وقال (٨ الأنفال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ امَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ٢٩) وهذا يتيسر بالفرقان ، المتضمن النجاة ، والنصر والعلم ، والنور ، الفارق بين الحق والباطل ، وتكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب ، وذلك غاية التيسير .

وقال تعالى (٣ آل عمران : واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٣٠) والفلاح ، غاية اليسر ، كما أن الشقاء ، غاية العسر .

وقال تعالى (٥٧ الحديد : يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ

لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ٢٨) فضمن لهم سبحانه بالتقوى ، ثلاثة أمور .

(أَحدها) أعطاهم نصيبين من رحمته ، نصيبا فى الدنيا ، ونصيبا فى الآخرة .

وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة ، فيصير نصيبين .

(الثانى) أعطاهم نوراً يمشون به فى الظلمات .

(الثالث) مغفرة ذنوبهم ، وهذا غاية التيسير .

فقد جعل ، سبحانه ، التقوى سبباً لكل يسر ، وترك التقوى ، سببا لكل عسر .

(السبب الثالث) التصديق بالحسنى ، وفُسِّرت بـ « لاإله إلا الله » ، وفسرت بالجنة ، وفسرت بالْخَلَف ، وهى أَقوال السلف .

واليسرى ، صفة لموصوف محذوف . أَى : الحالة والخَلَّة اليسرى ، وهى « فُعْلَى » من اليسر .

والأَقوال الثلاثة ، ترجع إلى أَفضل الأَعمال ، وأَفضل الجزاء .

فمن فسرها بـ « لا إله إلا الله » فقد فسرها بمفرد يأْتى بكل جمع ، فإن التصديق الحقيقى بـ «لاإلا الله»

يستلزم التصديق بِشُعَبِهَا ، وفروعها كلها ، وجميع أُصول الدين وفروعه من شُعَبِ هذه الكلمة .

فلا يكون العبد مصدقا بها حقيقة التصديق ، حتى يؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، ولقائه .

ولايكون مؤمنا بالله ، إله العالمين ، حتى يؤمن بصفات جلاله ، ونعوت كماله .

ولا يكون مؤمنا بأَن الله ، لا إله إلا هو ، حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه ، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته ، كما هى منفية فى الحقيقة والخارج .

ولا يكون مصدقا بها ، من نَفَى الصفات العليا ، ولا من نَفَى كلامه وتكليمه ، ولا من نَفَى استواءه على عرشه ، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، وأنه رفع المسيح إليه ، وأسرى ، برسوله صلى الله عليه وسلم إليه ، وأنه يدبر الأَمر من السماء إلى الأَرض ، ثم يعرج إليه ، إلى سائر ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ، صلى الله عليه وسلم .

ولا يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقا بها على الحقيقة ، من نفى عموم خلقه لكل شىء ، وقدرته على كل شىء ،

وعلمه بكل شيء ، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور .

ولا يكون مصدقا بها ، من زعم أنه يترك خلقه سُدًى ، لم يأمرهم ولم ينههم ، على ألسنة رسله .

وكذلك التصديق بها ، يقتضى الإذعان والإقرار بحقوقها ، وهى شرائع الإسلام ، التى هى تفصيل هذه الكلمة ، بالتصديق بجميع أخباره ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، هو تفصيل « لا إله إلا الله »

فالمصدق بها على الحقيقة ، الذى يأتى بذلك كله .

وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها ، وبالقيام بحقها .

وكذلك لاتحصل النجاة من العذاب على الإطلاق ، إلا بها وبحقها .

فالعقوبة فى الدنيا والآخرة ، على تركها ، أو ترك حقها .

ومن فسَّر الحسنى بالجنة ، فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله .

ومن فسرها بالخلَف ، ذكر نوعا من الجزاء . فهذا جزاءٌ دنيوى ، والجنة ، الجزاءُ فى الآخرة .

فرجع التصديق بالحسنى ، إلى التصديق بالإيمان وجزائه .

والتحقيق ، أَنها تتناول الأَمرين .

وتأَمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث ، وهى الإِعطاءُ ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى – من العلم والعمل ، وتضمنته من الهدى ، ودين الحق .

فإن النفس ، لها ثلاث قُوَى : قوة البذل والإِعطاء ، وقوة الكَفِّ والامتناع ، وقوة الإِدراك والفهم .

ففيها قوة العلم والشعور ، ويتبعها قوة الحب والإِرادة ، وقوة البغض والنفرة .

فهذه القوى الثلاثة ، عليها مدار صلاحها وسعادتها ، وبفسادها ، يكون فسادها وشقاوتها .

ففساد قوة العلم والشعور ، يوجب له التكذيب بالحسنى .

وفساد قوة الحب والإرادة ، يوجب له ترك الإِعطاء وفساد قوة البغض والنفرة ، يوجب له ترك الاتقاء .

فإذا كملت قوة حبه وإرادته ، بإعطائه ما أَمر به . وقوة بغضه ونفرته ، باتقائه مانهى عنه . وقوة علمه وشعوره ، بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها .

فقد زَكىَّ نفسه ، وأَعدَّها لكل حالة يسرى ، فصارت النفس بذلك ، مُيسَّرةٌ لليسرى .

ولما كان الدين ، يدور على ثلاث قواعد : فعل المأمور ، وترك المحظور ، وتصديق الخبر .

وإن شئت قلت : الدين طَلَبٌ وخبر .

والطلب نوعان : طلب فعل ، وطلب ترك .

فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث ، مراتب الدين أَجمعها .

فالإعطاء ، فعل المأمور ، والتقوى ترك المحظور . والتصديق بالحسنى ، تصديق الخبر .

فانتظم ذلك ، الدين كله .

وأكمل الناس ، من كملت له هذه القُوى الثلاث .

ودخول النقص ، بحسب نقصانها أَو بعضها .

فمن الناس ، من يكون قوة إعطائه وبذله ، أَتم من قوة انكفافه وتركه .

فقوة الترك فيه ، أضعف من قوة الإعطاء .

ومن الناس ، من يكون قوة الترك والانكفاف فيه ، أتم من قوة الإعطاء والمنع .

ومن الناس ، من يكون فيه قوة التصديق ، أتم من قوة الإعطاء والمنع ، فقوته العلمية والشعورية ، أتم من قوته الإرادية وبالعكس .

فيدخل النقص ، بحسب مانقص من قوة هذه القوى الثلاث ، ويفوته من التيسير لليسرى ، بحسب مافاته منها .

ومن كملت له هذه القوى ، يُسِّرَ لكل يُسْرَى .

قال ابن عباس (٩٢ الليل : فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٧) .

أي : نهيئه لعمل الخير ، تيسر عليه أعمال الخير .

وقال مقاتل ، والكلبي ، والفراء : نيسره للعود إلى العمل الصالح .

وحقيقة « اليسرى » أنها الخَلَّة ، والحالة السهلة النافعة ، الواقعة له ، وهي ضد العسرى . وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه ، فيجري الخير ، وييسر على قلبه ، ويديه ولسانه ، وجوارحه .

فتصير خصال الخير ميسرة عليه ، مذللة له ، منقادة ، لا تستعصى عليه ، ولا تستصعب ، لأنه مُهيأٌ لها ، مُيسَّرٌ لفعلها . يسلك سُبُلَهَا ذُلُلًا ، وتقاد له علماً وعملا . فإذا خاللته ، قلت هو الذى قيل فيه :

مُبارَكُ الطَّلْعَةِ مَيْمُونُهَا   يَصْلُحُ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّين

(٩٢ الليل: وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ٨) فعطل قوة الإرادة والإعطاءِ، عن فعل ما أُمربه (وَاسْتَغْنَى٨) بترك التقوى عن ربه ، فعطل قوة الانكفاف ، والترك عن فعل ما نُهِىَ عنه (٩٢الليل: وكَذَّبَ بالْحُسْنَى٩) فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه (٩٢ الليل : فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى١٠) .

قال عطاءُ : سوف أَحُولُ بين قلبه ، وبين الإيمان بى وبرسولى .

وقال مقاتل : يُعَسَّر عليه أن يعطى خيرا .

وقال عكرمة ، عن ابن عباس : نيسره للشر .

قال الواحدى : وهذا ، هو القول . لأَن الشر يؤدى إلى العذاب ، فهو الخَلة العسرى ، والخير يؤدى إلى اليسر والراحة فى الجنة ، فهو الخلة اليسرى يقول :سَنُهَيِّئُهُ للشر ، بأَن يجريه على يديه .

قال الفراءُ : العرب تقول : قد يَسَرَتْ غَنَمُ فلان إذا تهيأَت للولادة ، وكذلك إذا ولدت ، وغزرت أَلبانها ، أَى : يَسَرَتْ ذلك على أَصحابها انتهى .

والتيسير للعسرى ، يكون بأَمرين .

(أَحدهما) أَن يحول بينه وبين أَسباب الخير ، فيجرى الشر على قلبه ، ونيته ، ولسانه ، وجوارحه .

و (الثانى) أَن يحول بينه وبين الجزاء الأَيسر ، كما حال بينه وبين أَسبابه .

فإن قيل : كيف قابل « أَتقى » بـ « استغنى » ؟ وهل يمكن العبد أَن يستغنى عن ربه ، طرفة عين ؟

قيل : هذا من أَحسن المقابلة ، فإن المتقى لما استشعر فقره وفاقته ، وشدة حاجته إلى ربه ، اتقاه ، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ، ومقته ، بارتكاب مانهاه عنه

فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص ، فإنه يتقى غضبه وسخطه عليه ، غاية الاتقاء ، ويجانب مايكرهه ، غاية المجانبة ، ويعتمد فعل مايحبه ويؤثره

فقابل التقوى بالاستغناء ، تبشيعا لحال تارك

لتقوى ، ومبالغة فى ذمه ، بأَن فَعَل فِعْلَ المستغنى عن ربه ، لافعل الفقير المضطر إليه ، الذى لاملجأً له إلا إليه ، ولا غِنًى له عن فضله وجوده وبِرِّه ، طرفة عين .

فلله ما أَحلى هذه المقابلة ، وما أَجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأَسبابها ، والشرور كلها وأَسبابها !

فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه ، وتجلَّى لهم فيه .

فهم لايطلبون أثرا بعد عَيْن ، ولايستبدلون الحق بالباطل ، والصدق بالْمَيْن .

وقد تضمنت هاتان الآيتان ، فصل الخطاب فى فى مسأَلة القَدَر ، وإزالة كل لَبْس وإشكال فيها . وذلك بَيِّنٌ - بحمد الله - لمن وفق لفهمه .

ولهذا أَجاب بها النبى ، صلى الله عليه وسلم ، من أَورد عليه السؤال الذى لايزال الناس ياهجون به فى القـدر .

فأَجاب بفصل الخطاب ، وأَزال الإشكال .

ففى الصحيحين من حديث على بن أَبى طالب رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أَنه قال :

مامنكم من أحد ، إلا وقد عُلِمَ مقعده من الجنة والنار .

قيل : يا رسول الله ، أفلا نَدَعُ العمل ، ونتكل على الكتاب ؟

قال « اعملوا ، فكل ميسَّر لما خُلِق له » ثم قرأ (٩٢ الليل : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى ٥ : وَصَدَّقَ بالْحُسْنَى ٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٧) .

فقد تضمن هذا الحديث ، الرد على القدرية والجبرية ، وإثبات القدر والشرع ، وإثبات الكتاب الأول ، المتضمن لعلم الله سبحانه ، الأشياء قبل كونها ، وإثبات خلق الفعل الجزائي .

وهو يبطل أصول القدرية ، الذين يمنعون خلق الفعل مطلقاً .

ومن أقرَّ منهم بخلق فعل الجزاء ، دون الابتداء ، هدم أصله ، ونقض قاعدته .

والنبي صلى الله عليه وسلم ، أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى أن العبد « ميسر لما خلق له » لامجبور .

فالجبر لفظ بِدْعِيّ ، والتيسير ، لفظ القرآن والسنة .

وفى الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلَمَ

الناس بأُصول الدين . فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق .

وكانوا إذا استشكلوا شيئاً ، سألوه عنه . وكان يجيبهم ، بما يزيل الإشكال . ويبين الصواب .

فهم العارفون بأُصول الدين حقا ، لا أهل البدع والأهواء ، من المتكلمين ، ومن سلك سبيلهم .

وفى الحديث ، استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على مسائل أُصول الدين بالقرآن ، وإرشاده الصحابة ، لاستنباطها منه .

خلافا لمن زعم أن كلام الله ورسوله ، لايفيد العلم بشيء من أُصول الدين .

ولايجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه .

وعبر عن ذلك بقوله : «الأدلة اللفظية ، لاتفيد اليقين»

وفى الحديث ، بيان أن من الناس ، من خلق للسعادة ، ومنهم : من خلق للشقاوة ، خلافا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة ، ولكن اختاروا الشقاوة ، ولم يخلقوا لها .

وفيه إثبات الأسباب ، وأن العبد ميسر للأسباب ، الموصلة له إلى ما خلق له .

وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ، ومطابقتها له.

فتأمل قوله صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكلٌّ مُيسَّر لما خلق له » ومطابقته لقوله تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى) إلى آخر الآيتين ، كيف انتظم الشرع والقدر ، والسبب والمسبب ؟

وهذا الذى أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذى فطر الله عليه عباده ، بل الحيوان البهيم ، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك .

فلو قال كل أحد : إن قُدِّر لى كذا وكذا ، فلابد أن أناله . وإن لم يقدر ، فلا سبيل إلى نيله ، فلا أسعى ولا أتحرك ، لَعُدَّ من السفهاء الجهال ، ولم يمكنه ، طرد ذلك أبدا ، وإن أتى به فى أمر معين .

فهل يمكنه أن يطرد (١) ذلك فى مصالحه جميعها ، من طعامه وشرابه ، ولباسه ومسكنه ، وهروبه مما يضاد بقاءه ، وينافى مصالحه .

---

(١) قوله (أن يطرد) معناه : أن يجعله قاعدة لازمة لا يخرج عنها .

أَم يجد نفسه غير منفكة أَلبتة ، عن قول النبى صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ؟

فإذا كان هذا فى مصالح الدنيا ، وأَسباب منافعها ، فما الموجب لتعطيله فى مصالح الآخرة ، وأَسباب السعادة والفلاح فيها ، ورَبُّ الدنيا والآخرة واحد ؟.

فكيف يُعَطَّلُ ذلك فى شرع الرب ، وأَمره ونهيه ، ويستعمل فى إرادة العبد وأغراضه وشهواته ؟

وهل هذا ، إلا محض الظلم والجهل ؟ والإنسان ظلوم جهول ، ظلوم لنفسه ، جهول بربه .

فهذا الذى أَرشد إليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وتلا عنده هاتين الآيتين ، موافق لما جعله الله فى عقول العقلاءِ ، وركب عليه فِطَرَ الخلائق ، حتى الحيوان البهيم ، وأَرسل به جميع رسله ، وأَنزل به جميع كتبه

ولو اتَّكل العبد على القدر ولم يعمل ، لتعطلت الشرائع ، وتعطلت مصالح العالم ، وفسد أَمر الدنياوالدين

وإنما يستروح إلى ذلك ، معطلوا الشرائع ، ومن خلع ربقة الأَوامر والنواهى من عنقه ، وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أَمر الله ونهيه ،

وعارضوا شرعه بقضائه وقدره ، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم فى غير موضع من كتابه كقوله تعالى : (٦ الأنعام : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ، وَلَا آباؤُنَا ، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩) .

وقال تعالى (١٦ النحل : وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ٣٥ ؟)

وقال تعالى (٤٣ الزخرف : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠) .

وقال تعالى (٣٦ يس : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ٤٧) .

فإن قيل : فالإعطاء ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى ، هى من اليُسرى ، بل هى أَصل اليسرى ، من يسرها للعبد أَولا ؟ وكذلك أَضدادها ؟

قيل : الله سبحانه هو الذى يسر للعبد أَسباب الخير والشر ، وخلق خلقه قسمين : أَهل سعادة ، فيسرهم لليسرى ، وأَهل شقاوة ، فيسرهم للعسرى .

واستعمل هؤلاءِ فى الأَسباب التى خلقوا لغاياتها ، لا يصلحون لسواها .

وهؤلاءِ فى الأَسباب التى خلقوا لغاياتها ، لايصلحون لسواها !

وحكمته الباهرة تأبى أَن يضع عقوبته فى موضع لا تصلح له .

كما يأَبى أَن يضع كرامته وثوابه فى محل لايصلح لهما ، ولا يليق بهما .

بل حكمة آحاد خلقه ، تأَبى ذلك .

ومن جعل محل المسك والرجيع (١) واحداً ، فهو من أَسفه السفهاءِ .

---

(١) الرجيع : الروث والعذرة اهـ مصباح . ومعناه ما يخرج من البهائم من الزبل والبعر وما يخرج من الإنسان من الجزء المعبر عنه بالخراء فى اللغة العامية .

فإن قيل : فلِمَ جعل هذا ، لايليق به إلا الكرامة ، وهذا لايليق به إلا الإهانة ؟

قيل : هذا سؤال جاهل ، لايستحق الجواب ، كأنه يقول : لِمَ خلق الله كذا وكذا ؟

فإن قيل : وعلى هذا ، فهل لهذا الجاهل من جواب ، لعله يشفى من جهله ؟

قيل : نعم ، شأن الربوبية ، خلق الأشياء وأضدادها وخلق الملزومات ولوازمها ، وذلك هو محض الكمال .

فالعلو لازم وملزوم ، للسفل ، والليل لازم ، وملزوم للنهار .

وكمال هذاالوجود ، بالحر والبرد ، والصَّحْو والغيم

ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض ، واختلاف الإرادات والمرادات ، ووجود اللازم بدون ملزومه ، ممتنع .

ولولا خلق المتضادات ، لَمَا عُرِفَ كمال القدرة والمشيئة والحكمة ، ولَمَا ظهرت أَحكام الأَسماءِ والصفات

وظهور أحكامها وآثارها ، لابد منه ، إذ هو مقتضى الكمال المقدس ، والملك التام .

وإذا أَعطيت اسم الملك حقه - ولن تستطيع - علمت أَن الخلق والأَمر ، والثواب والعقاب ، والعطاء والحرمان ، أَمر لازم لصفة الملك ، وأَن صفة الملك ، تقتضى ذلك ولابد ، وأَن تعطيل هذه الصفة ، أَمر ممتنع .

فالملك الحق ، يقتضى إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وأَمر العباد ، ونهيهم ، وثوابهم ، عقابهم ، وإكرام من يستحق الإكرام ، وإهانة من يستحق الإهانة

كما تستلزم حياة الْمَلِكِ ، علمه ، وإرادته ، وقدرته ، وسمعه ، وبصره ، وكلامه ، ورحمته ، ورضاه ، وغضبه ، واستواءه على سرير ملكه (١) ، يدبر أَمر عباده .

وهذه الإشارة ، تكفى اللبيب فى مثل هذا الموضع ، ويطلع منها على أَرض مونقة ، وكنوز من المعرفة ، وبالله التوفيق .

---

(١) قوله (على سرير ملكه) لو قال (على عرش ملكه) : لكان أليق لموافقته لفظ الكتاب والسنة . لأن الله قال : (الرحمن على العرش استوى) ، ولم يقل (على السرير استوى) ، فعبارة المؤلف رحمه الله تفتح باب اتهامه بالتجسيم ، كما نسمع ذلك كثيراً من خصومه وخصوم شيخه ابن تيمية ، فالتزام ألفاظ الكتاب والسنة فى موضوع الصفات الإلهية هو المتعين اللازم فى العقيدة الإسلامية .

(١١) فصل

ثم قال تعالى (٩٢ الليل إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ١٣) .

قيل : معناه ، إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال .

قال قتادة : على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

اختاره أبو إسحاق ، وهو قول مقاتل ، وجماعة .

وهذا المعنى حق . ولكن مراد الآية شيء آخر .

وقيل : المعنى : إن علينا الهدى والإضلال .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، فى رواية عطاء : يريد ، أرشد أوليائى إلى العمل بطاعتى ، وأحول بين أعدائى ، وبين أن يعملوا بطاعتى .

قال الفراءُ : فترك ذكر الإضلال ، كما قال (١٦النحل: سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ٨١) أى : والبرد .

وهذا أضعف من القول الأول . وإن كان معناه صحيحا . فليس هو معنى الآية .

وقيل ، المعنى : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله (١٦النحل : وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ٩) وهذا قول مجاهد ، وهو أَصح الأَقوال فى الآية .

قال الواحدى : علينا للهدى ، أَى : إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله ، وإلى ثوابه وجنته .

وهذا المعنى فى القرآن ، فى ثلاث مواضع : ههنا ، وفى النحل فى قوله (وعلى الله قصد السبيل) وفى الحجر فى قوله (١٥ الحجر : هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ٤١) .

وهو معنى شريف جليل ، يدل على أَن سالك طريق الهدى ، يوصله طريقه إلى الله ولابد .

والهدى هو : الصراط المستقيم ، فمن سلكه ، أَوصله إلى الله .

فذكر الطريق والغاية ، فالطريق : الهدى ، والغاية : الوصول إلى الله .

فهذه ، أَشرف الوسائل ، وغايتها ، أَعلى الغايات

ولما كان مطلوب السالك إلى الله ، تحصيل مصالح دنياه وآخرته ، لم يتم له هذا المطلوب ، إلا بتوحيد طلبه ، والمطلوب منه .

فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئا . وأن الدنيا والآخرة جميعا ، له وحده .

فإذا تيقن العبد ذلك ، اجتمع طلبه ومطلوبه ، على من يملك الدنيا والآخرة وحده .

فتضمنت الآيتان ، أربعة أمور ، هى المطالب العالية :

ذكر أعلى الغايات . وهو الوصول إلى الله سبحانه

وأقرب الطرق والوسائل إليه ، وهى : طريقة الهدى .

وتوحيد الطريق ، فلا يعدل عنها إلى غيرها .

وتوحيد المطلوب ، وهو : الحق . فلا يعدل عنه إلى غيره .

فاقتبس هذه الأمور ، من مشكاة هذه الكلمات ، فإن هذه غاية العلم والفهم . وبالله التوفيق .

والهدى التام ، يتضمن توحيد المطلوب ، وتوحيد الطلب ، وتوحيد الطريق الموصلة . والانقطاع .

وتَخَلُّف الوصول يقع من الشركة فى هذه الأُمور ، أو فى بعضها .

فالشركة فى المطلوب ، تنافى التوحيد والإخلاص .

والشركة فى الطلب ، تنافى الصدق والعزيمة .

والشركة فى الطريق ، تنافى اتباع الأَمر .

فالأَول : يوقع فى الشرك والرياء . -

والثانى : يوقع فى المعصية والبطالة .

والثالث : يوقع فى البدعة ، ومفارقة السنة . فتأَمله .

فتوحيد المطلوب ، يعصم من الشرك . وتوحيد الطلب ، يعصم من المعصية ، وتوحيد الطريق ، يعصم من البدعة .

والشيطان إنما ينصب فَخَّه بهذه الطرق الثلاثة .

ولما أَقام سبحانه الدليل ، وأَنار السبيل ، وأَوضح الحجة ، وبيّن المحجة (١) ، أَنذر عباده عذابه ، الذى أعدّه لمن كذَّب خبره ، وتولَّى عن طاعته .

وجعل هذا الصنف من الناس ، هم أَشقاهم ، كما جعل أَسعدهم ، أَهل التقوى والإحسان والإخلاص .

---

(١) المحجة : جادة الطريق اهـ ، مصباح « والمختار من الصحاح » .
وجادة الطريق معظمه ، كما « فى المختار من الصحاح » .
والمراد : سلك الطريق المستقيم .

فهذا الصنف هو الذى يُجنَّب عذابه . كما قال (٩٢ سورة الليل : وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ١٧ الَّذى يُؤْتى مَالَهُ يَتَزَكَّى ١٨) فهذا المتقى المحسن ، لايفعل ذلك ، إلا ابتغاء وجه ربه ، فهو مخلص فى تقواه وإحسانه .

وفى الآية ، الإرشاد إلى أن صاحب التقوى ، لا ينبغى له أن يتحمل مَنَّ الخلق ونعمهم ، وإن حمل منهم شيئاً ، بادر إلى جزائهم عليه ، لئلا يتبقَّى لأحد من الخلق عليه نعمة تُجْزَى .

فيكون بعد ذلك ، عمله كله ، لله وحده ، ليس للمخلوق جزاءٌ على نعمته .

ونبه بقوله (تُجْزَى) على أن نعمة الإسلام ، التى لرسول الله ﷺ على هذا الأتقى ، لا تُجْزَى .

فإن كل ذى نعمة ، يمكن جزاءُ نعمته ، إلا نعمة الإسلام ، فإنها لايمكن المنعَمُ بها عليه ، أن يجزىَ بها .

وهذا يدل على أن الصديق ، رضى الله عنه ، أول ، وأولى من ذُكِرَ فى هذه الآية ، وأنه أحق الأمة بها .

فإن عليا ، رضى الله عنه تربَّى فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

فلرسول الله صلى الله عليه وسلم عنده نعمة ، غير نعمة الإسلام ، يمكن أن تُجزَى .

ونَبَّه : سبحانه بقوله (إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى ، لايفعل ما يفعلهُ إلا ابتغاءَ وجه ربه الأَعلى .

بخلاف من تَطوَّق نِعَمَ المخلوقين ومِنَنَهم ، فإنه مضطر إلى أَن يفعل لأَجلهم ، ويترك لأَجلهم .

ولهذا كان من كمال الإخلاص ، أَن لايجعل العبد عليه مِنَّةً لأَحد من الناس ، لتكون معاملته كلها لله ، ابتغاءَ وجهه ، وطلب مرضاته .

فكما أَن هذه الغاية ، أَعلى الغايات ، وهذا المطلوب ، أَشرف المطالب ، فهذا الطريق أَقْصَدُ الطرق إليه ، وأَقربها وأَقومها . وبالله التوفيق .

(١٢) فصل

ومن ذلك أَقسامه سبحانه : بـ (٩٣ الضُّحى واللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢) على إنعامه ، على رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وإكرامه له ، وإعطائه ما يرضيه .

وذلك متضمن لتصديقه له ، فهو قَسَمٌ على صحة نبوته ، وعلى جزائه فى الآخرة ، فهو قَسَم على النبوة والمعاد .

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته ، دالتين على ربوبيته ، وحكمته ، ورحمته ، وهما : الليل والنهار .

فتأمل مطابقة هذا القَسَم ، وهو : نور الضحى ، الذى يوافى بعد ظلام الليل ، للمُقْسَم عليه ، وهو : نور الْوَحْى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودَّع محمداً ربُّه .

فأقسم بضوء النهار ، بعد ظلمة الليل ، على ضوء الوحى ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه .

وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار ، هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك ، بنور الوحى والنبوة . فهذان للحس ، وهذان للعقل .

وأيضاً فإن الذى اقتضت رحمته ، أن لايترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم بضوء النهار ، إلى مصالحهم ومعايشهم ، لايليق به أن يتركهم فى ظلمة الجهل والغَىِّ ، بل يهديهم بنور الوحى والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم .

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه .

وتأَمل هذه الجزالة والرونق ، الذى على هذه الأَلفاظ ، والجلالة ، التى على معانيها .

ونفى سبحانه ، أَن يكون ودَّع نبيه أَو قلاه ، فالتوديع : الترك ، والقِلى : البغض .

فما تركه منذ اعتنى به وأَكرمه ، ولا أَبغضه منذ أَحبه .

وأَطلق سبحانه ، أَن الآخرة خير له من الأُولى ، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها ، هى خير له مما قبلها .

كما أَن الدار الآخرة خير له مما قبلها .

ثم وعده بما تَقَرُّ به عينه ، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو أَن يعطيه فيرضى .

وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر ، وكثرة الأَتباع ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته ، وما يعطيه فى موقف القيامة ، وما يعطيه فى الجنة .

وأَما ما يغتر به الجهال . من أَنه لايرضى ، وواحد من أُمته فى النار ، أَو لايرضى أَن يدخل أَحد من أُمته النار ! ! فهذا من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم .

فإنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، يرضى بما يرضى به ربه ، تبارك وتعالى ، وهو - سبحانه - يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ، ثم يَحُدُّ لرسوله حدًّا ، يشفع فيهم .

ورسوله ، أعرف به وبحقه ، من أن يقول : لا أَرضى أن يدخل أحداً من أُمتى النار ، على أَن يدعه فيها .

بل ربه تبارك وتعالى ، يأْذن له ، فيشفع فيمن شاءَ الله أَن يشفع فيه ، ولايشفع فى غير من أَذن له فيه ورضيه .

ثم ذكر سبحانه نعمه عليه ، من إيوائه بعد يُتْمِه ، وهدايته بعد الضلالة ، وإغنائه بعد الفقر .

فكان محتاجا إلى من يؤويه ، ويهديه ويغنيه ، فآواه ربه وهداه ، وأَغناه .

فأَمره سبحانه ، أَن يقابل هذه النعم الثلاث ، بما يليق بها من الشكر .

فنهاه أَن يَقْهَر اليتيم ، وأَن يَنْهَرَ السائل ، وأَن يكتم النعمة ، بل يحدث بها .

فأوصاه - سبحانه - باليتامى والفقراءِ والمتعلمين .

قال مجاهد ، ومقاتل : لا تحقر اليتيم ، فقد كنت يتيما .

وقال الفراءُ : لا تقهره على ماله ، فتذهب بحقه لضعفه .

وكذلك كانت العرب تفعل فى أمر اليتامى ، تأخذ أموالهم ، وتظلمهم . فغلَّظ الخطاب فى أمر اليتيم .

وكذلك من لا ناصر له ، يغلظ فى أمره ، وهو نَهْىٌ لجميع المكلفين .

(وأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) قال أكثر المفسرين : هو سائل المعروف والصدقة . لا تنهره ، إذا سأَلك . فقد كنت فقيراً ، فإما أَن تطعمه . وإما أَن ترده ردًّا لَيِّنًا .

قال الحسن : (١) أما إنه ليس بالسائل الذى يأتيك ولكن طالب العلم .

(١) قوله (قال الحسن إلخ) هذا الذى اقتصر عليه الشيخ محمد عبده فى تفسيره لهذه الآية . وجانبه التوفيق حيث نفى القول الأول مدعياً أن كلمة : (السائل) لم تعهد أن تكون علماً للفقير المحتاج . ونسى (رحمه الله) قوله تعالى : ٧٠ المعارج .

«وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ٢٥ » .
للسائل والمحروم ٢٥» .

ومؤلفنا «ابن القيم» كان موفقاً لما قال : « والتحقيق أن الآية تتناول النوعين «قلت » : لأن (ال) للاستغراق تتناول كل سائل ، سواء كان سائل علم ، أو سائل معروف ، أو صدقة .

وهذا قول يحيي بن آدم قال : إذا جاءك طالب العلم ، فلا تنهره .

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين .

وقوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) قال مجاهد : بالقرآن .

وقال الكلبي : بمعنى أظهرها ، والقرآن ، أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره أن يقرئه ويعلمه .

وروى أبو بشر ، عن مجاهد : حَدِّثْ بالنبوة ، التي أعطاك (١) الله .

وقال الزجاج : بَلِّغْ ما أُرسلت به . وحدث بالنبوة التي آتاك(١) ،وهي أجل النعم .

وقال مقاتل : أُشكر هذه النعمة ، التي ذكرت في هذه السورة .

والتحقيق أن النعم ، تعم هذا كله .

فأمر أن لاينهر سائل المعروف ، والعلم ، وأن يحدث بنعم الله عليه ، في الدين والدنيا .

(١) قوله « أعطاك » و « آتاك » هكذا في الأصول . والصواب أن يقال «أعطاكها» و «آتاكها» يعني :النبوة ، كما يدل عليه سياق الكلام .

(١٣) فصل

ومن ذلك إقسامه سبحانه : بـ (١٠٠ : ـالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ٣) .

وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم ، فى ذلك .

فقال علىٌّ بن أَبى طالب ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما : هى إبل الحاج ، تَغْدُو من عرفة إلى مزدلفة ، ومن مزدلفة إلى مِنَى ، وهذا اختيار محمد ابن كعب ، وأَبى صالح ، وجماعة من المفسرين .

وقال عبد الله بن عباس : هى خيل الغزاة ، وهذا قول أَصحاب ابن عباس ، والحسن ، وجماعة ، واختاره الفراءُ ، والزجاج .

قال أَصحاب الإبل : السورة مكية ، ولم يكن ثَمَّ جهاد ولاخيل تجاهد. وإنما أَقسم بما يعرفونه ويأْلَفُونه وهى إبل الحاج إذا عَدَتْ من عرفة إلى مزدلفة ، فهى عاديات ، و« الضَّبح » و« الضَّبع » مَدُّ الناقة ضبعها فى السير ، يقال : ضبحت وضبعت ، بمعنى واحد ،وأَنشد أَبو عبيدة ، وقد اختار هذا القول :

فَكَانَ لَكُمْ أَجْرَى جَمِيعًا وَأَضْبَحَت
بِىَ الْبَازِلُ الْوَجْنَاءُ فِى الآلِ تَضْبَحُ

قالوا : فهى تَعْدُو ضبحا ، فَتُورِى بأَخفافها النار ، من حَكٍّ الأَحجار بعضها ببعض فتثير النقع - وهو الغبار - بِعَدْوِهَا ، فيتوسط جمعا ، وهى المزدلفة .

قال أَصحاب الخيل : المعروف في اللغة ، أَن الضبح أَصوات أَنفاس الخيل ، إذا عَدوْنَ ، والمعنى : والعاديات ضابحة .

فيكون « ضبحا » مصدرا على الأَول ، وحالًا على الثانى .

وقالوا : والخيل ، هى التى تضبح فى عدوها ضبحا ، وهوصوت يسمع من أَجوافها ، ليس بالصهيل ولا الحمحمة ، ولكن صوت أَنفاسها فى أَجوافها من شدة العـدو .

وقال الجرجانى : كلا القولين ، قد جاءَ فى التفسير ، إلا أَن السياق يدل على أَنها الخيل ، وهو قوله تعالى (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) والإيراءُ ، لايكون إلا للحافر ، لصلابته . وأَما الخف ، ففيه لين واسترخاءٌ . انتهى .

قالوا : والضبح فى الخيل ، أَظهر منه فى الإبل ، والإيراءُ لسنابك الخيل أَبْيَن منه لأَخفاف الإبل .

قالوا : و « النقع » هو : الغبار ، وإثارة الخيل بِعَدْوِهَا له ، أظهر من إثارة أخفاف الإبل ، والضمير فى « به » عائد على المكان الذى تعدو فيه .

قالوا : وأعظم ما يثير الغبار ، عند الإغارة ، إذا توسطت الخيل جمع العدو ، لكثرة حركتها واضطرابها فى ذلك المكان.

وأما حمل الآية فى إثارة الغبار فى وادى مُحسِّر عند الإغارة ، فليس بالبَيِّن ، ولا يثور هناك غبار فى الغالب ، لصلابة المكان .

قالوا : وأما قولكم : « إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية ، جهاد ولا خيل تجاهد » فهذا لا يلزم ، لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل ، إذا كانت فى غزو ، فأغارت ، فأثارت النقْع ، وتوسَّطَتْ جمع العدو . وهذا أمر معروف .

وذكر خيل المجاهدين ، أحق ما دخل فى هذا الوصف ، فذكره ، على وجه التمثيل ، لا الاختصاص. فإن هذا ، شأن خيل المقاتلة . وأشرف أنواع الخيل ، خيل المجاهدين .

والقَسَم ، إنما وقع ، بما تضمنه شأن هذه العاديات ، من الآيات البينات ، من خلق هذا الحيوان ، الذى هو من

أكرم البهيم وأشرفه ، وهو الذى يحصل به العز ، والظفر والنصر على الأعداءِ .

فَتَعْدُوا طالبة للعدو ، وهاربة منه ، فيثير عدوها الغبار ، لشدته ، وتُورِى حوافرها وسنابكها النار ، من الأحجار ، لشدة عدوها ، فتدرك الغارة ، التى طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداءِ .

فهذا من أعظم آيات الرب تعالى ، وأدلة قدرته وحكمته .

فذكرهم بِنِعَمِه عليهم ، فى خلق هذا الحيوان الذى ينتصرون به على أعدائهم ويدركون به ثأْرهم كما ذكرهم سبحانه ، بنعمه عليهم فى خلق الإبل ، التى تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد .

فالإبل ، أخص بحمل الأثقال ، والخيل ، أخص بنصرة الرجال ، فذكرهم بنعمه ، بهذا وهذا .

وخص الإغارة بالصبح ، لأن العدو (١) لم ينتشروا إذ ذاك ، ولم يفارقوا محلهم .

(١) قوله « لأن العدو الخ » هكذا فى الأصول والأوضح للقارئ أن يقال « للأعداء » لأن كلمة «العدو» اسم جنس مثل « قوم » جمعى يثنى ويجمع فيقال : عدو ، وعدوان وأعداء ، كما يقال : «قوم» و«قومان» و « أقوام » ولما كان الأمر كذلك أعاد الضمير إلى «العدو» بضمير الجمع فى الأفعال « لم ينتشروا » ولم « يفارقوا » ولم «يأخذوا» وفى اسمى الفاعل « حامون » و « مستريحون » وفى المصادر «أهبتهم» و «غرتهم » و«غفلتهم» فلو قال «الأعداء» لاكتسب الأسلوب جمالا ووضوحاً ، وابتعاداً عن الالتباس على القارئ والسامع .

وأصحاب الإغارة، حامون مستريحون، يبصرون مواقع الغارة.

والعدو لم يأخذوا أهبتهم ، بل هُم فى غِرَّتهم وغفلتهم .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد الغارة ، صبر حتى يطلع الفجر ، فإن سمع مؤذنا أَمسك ، وإلا أَغار .

ولما علم أَصحاب الإبل أَن أَخفافها ، أَبعد شيء من وَرْىِ النار ، تأَولوا الآية على وجوه بعيدة .

فقال محمد بن كعب : هم الحاج ، إذا أَوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة ، وعلى هذا، فيكون التقدير : فالجماعات الموريات .

وهذا خلاف الظاهر . وإنما الموريات ، هى العاديات ، وهى المغيرات .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس : هم الذين يغيرون ، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم ، كأَنهم أَخذوه من قوله تعالى (٥٦ الواقعة : أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ٧١ ؟) .

وهذا إن أُريد به التمثيل ، وأَن الآية تدل عليه ، فصحيح.

وإن أُريد به اختصاص الموريات ، فليس كذلك ، لأَن الموريات ، هى العاديات بعينها . ولهذا عطفها عليه بالفاء ، التى للتسبب ، فإنها عَدَتَ فأَوْرَتْ .

وقال قتادة : الموريات ، هى : الخيل تُورِى نار العداوة بين المقتتلين .

وهذا ليس بشيء ، وهو بعيد من معنى الآيةوسياقها .

وأَضعف منه قول عكرمة : هى الأَلسنة ، تورى نار العداوة بعظيم ما تتكلم به .

وأَضعف منه ماذكر عنه مجاهد : هى أَفكار الرجال ، تورى نار المكر والخديعة فى الحرب .

وهذه الأَقوال ، إن أُريد أَن اللفظ دل عليها ، وأَنها هى المراد ، فغلط .

وإن أُريد أَنها أُخِذَتْ من طريق الإِشارة والقياس ، فأَمرها قريب .

وتفسير الناس ، يدور على ثلاثة أُصول :

تفسير على اللفظ . وهو : الذى ينحو إليه المتأَخرون .

وتفسير على المعنى . وهو الذى يذكره السلف.

وتفسير على الإِشارة والقياس ، وهو الذى ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم .

وهذا لابأْس به بأَربعة شرائط

(١) أن لاينافض معنى الآية

(٢) وأَن يكون معنى صحيحا فى نفسه .

(٣) وأَن يكون فى اللفظ ، إشعار به .

(٤) وأَن يكون بينه وبين معنى الآية ، ارتباط وتلازم.

فإذا اجتمعت هذه الأُمور الأَربعة ، كان استنباطا حسنا .

وأَضعف من ذلك كله ، قول ابن جريج : قدحا ، يعنى : فالمنجحات أَمراً ، يريد : البالغين - بنجحهم - فيما طلبوه(١)

وعطف قوله (فأَثَرْنَ ، فوَسَطْنَ) وهما فعلان على « العاديات » ، و« الموريات » لما فيه من معنى الفعل .

وكان ذكر الفعل فى « أَثرن » و« وسطن » أَحسن من ذكر الاسم ، لأَنه سبحانه ، قسم أَفعالنا إلى قسمين : وسيلة ، وغاية .

فالوسيلة ، هى : العَدْوُ وما يتبعه من الإيراء والإغارة

والغاية هى : تَوسُّط الجمع ، وما يتبعه من إثارة النقع .

فهن عاديات موريات مغيرات . حتى يتوسطن الجمع ، ويُثِرْن النقع .

---

(١) قوله « فيما طلبوه » هكذا فى الأصول . والصواب أن يقال : البالغين - بنجحهم - ماطلبوه ، لأن « بلغ » يتعدى بنفسه وكذا ما اشتق منه كما قال تعالى فى سورة النحل . « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ٧ » ولم يقل بالغين فيه .

فالأَول ، شأنهن الذى أُعْدِدْنَ له .

والثانى ، فعلهن الذى ، انتهين إليه . والله أَعلم .

(١٤) فصل

فهذا شأْن القَسَم .

وأَما شأْن المقسم عليه ، فهو حال الإِنسان ، وهو كون الإِنسان كنوداً ، بشهادته على نفسه ، أَو شهادة ربه عليه ، وكونه بخيلًا لحبه المال . والكنود للنعمة ، وفعله «كَنَدَ ، يَكْنُد كُنودا» ، مثل « كفر يكفر كفورا » .

والأَرض الكنود : التى لاتنبت شيئا ، وامرأَة كندى ، أَى : كَفور للمعاشرة .

وأَصل اللفظ ، منع الحق والخير ، ورجل كنود : إذا كان مانعا لما عليه من الحق . وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، وأَصحابه رحمهم الله تعالى : هو : الكفور ، وقيل : هو البخيل الذى يمنع رِفْدَه (١) ويُجِيع عبده ، ولايعطى فى النائبة .

---

(١) الرفد : (بكسر الراء) العطاء والصلة ، وبفتحها : المصدر اهـ من المختار من الصحاح .

وقال الحسن : هو اللَّوَّام لربه ، يَعُدُّ المصائب ، وينسى النعم .

وأما قوله ١٠٠ العاديات : (وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧) فقال ابن عباس : يريد إن ربه على ذلك لشهيد ، وقيل : إن الإنسان لشهيد على ذلك ، إن أنكر بلسانه أشهد ربَّه عليه حَالُهُ ، ويؤيد هذا القول ، سياق الضمائر . فإن قوله (١٠٠ العاديات : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨) للإنسان فافتتح الخبر عن الإنسان ، بكونه كنودا ، ثم ثناه بكونه شهيدا على ذلك ، ثم ختمه ، بكونه بخيلا بماله لحبه إياه .

ويؤيد قول ابن عباس رضى الله عنهما أنه أتى بـ « على » . فقال : (وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ) أى مطلع عالم به . كقوله (١٠ يونس ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ٤٦) ولو أُريد شهادة الإنسان لأتى بالباء . فقيل : وإنه بذلك لشهيد . كما قال تعالى (٦ التوبة : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ١٧) فلو أراد شهادة الإنسان لقال : « وإنه على نفسه لشهيد » . فإن كنوده ، المشهود به ، ونفسه ، هى المشهود عليها .

ثم قال تعالى (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لشديد) و« الخير »

هنا ، المال ، باتفاق المفسرين . و«الشديد» :البخيل من أجل حب المال ، فحب المال ، هو الذى حمله على البخل . هذا قول الأكثرين .

وقال ابن قتيبة : بل المعنى : إنه لشديد الحب للخير ، فتكون اللام فى قوله (لحب الخير) متعلقة بقوله (لَشَدِيدٌ) على حد تعلق قولك : إنه لزيد لضارب ، ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها ، وهذه الآيات حجة على الجواز فإن قوله (لِرَبِّه) معمول لـ « كنود » وقوله (على ذلك) معمول (لَشَهِيدٌ) ولاوجه للتكلف البارد فى تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور . فالحق ، جواز «إن لزَيْدٍ لضارب . فوصف سبحانه ، الإنسان ، بكفران نعم ربه ، وبخله بما آتاه من الخير ، فلاهو شكور للنعم ، ولا محسن إلى خلقه . بل بخيل بشكره ، بخيل بماله ، وهذا ضد المؤمن الكريم ، فإنه مخلص لربه ، محسن إلى خلقه . فالمؤمن ، له الإخلاص والإحسان ، والفاجر ، له الكفر والبخل .

وقد ذم الله سبحانه ، هذين الخلقين المهلكين فى غير موضع من كتابه . كقوله (١٠٧ الماعون : فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ٧) .

فالرياءُ ، ضد الإخلاص . ومنع الماعون ، ضد الإحسان .

وكذلك قوله تعالى (٤) النساء : إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُوراً ٣٦ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ٣٧) .

فاختياله وفخره ، من كفره وكنوده .

وهذا ضد قوله (٢ البقرة : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣) .

وقوله (٤ النساء : وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ٣٦ ـ الآية) .

وكذلك ذكر الخُلُقَيْنِ الذميمين فى قوله (٤ النساء : وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ٣٨) ونظيره (النساء : وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ٣٩) .

ونظيره ما تقدم فى سورة « الليل » من ذم المستغنى البخيل ، ومدح المعطى المصدق بالحسنى .

ونظيره قوله (١٠٤ الهمزة : وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ١

الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ٢) فإن الهُمَزة واللُّمَزة ، من الفخر ، والكبر ، وجمع المالُ وتعديده ، من البخل . وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ، ومقصودهما .

ثم خَوَّف - سبحانه - الإنسان الذى هذا وصفه ، حين يُبَعْثَرُ مافى القبور ، ويُحصَّل مافى الصدور ، أى مُيِّز ، وجُمِعَ ، وبُيِّن ، وأُظْهِرَ ، ونحو ذلك .

وجمع ، سبحانه ، بين القبور والصدور ، كما جمع بينهما ، النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله « ملأَ الله أجوافهم وقبورهم ناراً (١) » .

فإن الإنسان ، يوارى صدره ، ما فيه من الخير والشر ، ويوارى قبرُه جسمَه .

فيخرج الرب جسمه من قبره ، وسره من صدره ، فيصير جسمه ، بارزا على الأرض ، وسره ، باديا على وجهه . كما قال تعالى (٥٥ الرحمن : يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ٤١) .

وقال (٦٨ القلم : سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ١٦) .

---

(١) رواه البخارى وغيره ، وذلك فى غزوة الأحزاب ، وهى « الخندق » حين شغل المشركون النبى ﷺ ، عن صلاة العصر .

(١٥) فصل

ومفعول العلم « إن » عملت فيه ، وكسرت ، لمكان السلام .

وقيد سبحانه كونه خبيرا بهم ذلك اليوم – وهو خبير بهم فى كل وقت – إيذانا بالجزاء ، وأنه يجازيهم فى ذلك اليوم بما يعلمه منهم .

فذكر العلم ، والمراد لازمه . والله سبحانه وتعالى أعلم

(١٦) فصل

ومن ذلك إقسامه بـ (الْعَصْرِ) على حال الإنسان فى الآخرة هذه السورة – على غاية اختصارها ، لها شأن عظيم ، حتى قال الشافعى رحمه الله : لو فكَّر الناس كلهم فيها ، لَكَفَتْهُمْ .

« والعصر » المقسم به ، قيل : هو أول الوقت ، الذى يلى المغرب من النهار .

وقيل : هو آخر ساعة من ساعاته .

وقيل : المراد ، صلاة العصر .

وأكثر المفسرين على أنه ، الدهر . وهذا هو الراجح

وتسمية الدهر عصراً ، أمر معروف فى لغتهم .قال :

وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَان يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ
إِذَا طَلبَا أَن يُدْرِكَا ماتَيَمَّمَا

ويوم وليلة ، بدل من العصران .

فأقسم سبحانه ، بالعصر ، لمكان العبرة والاية فيه .

فإن مرور الليل والنهار - على تقدير قدره العزيز العليم - منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام .

وتعاقبهما واعتدالهما ، تارة ، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما فى الضوء ، والظلام ، والحر ، والبرد ، وانتشار الحيوان ، وسكونه ، وانقسام العصر ، إلى القرون والسنين ، والأشهر ، والأيام ، والساعات وما دونها - آية من آيات الرب تعالى ، وبرهان من براهين قدرته وحكمته .

فأقسم بالعصر ، الذى هو زمان أفعال الإنسان ومحلها ، على عاقبة تلك الأفعال وجزائها .

ونبه بالمبدأ ، وهو : خلق الزمان ، والفاعلين وأفعالهم ، على المعاد .

وأَن قدرته ، كما لم تقصر عن المبدأ ، لم تقصر عن المعاد .

وأَن حكمته ، التى اقتضت خلق الزمان ، وخلق الفاعلين وأَفعالهم ، وجعلها قسمين ، خيراً وشراً ، تأْبى أَن يُسَوِّىَ بينهم ، وأَن لايجازى المحسن بإِحسانه ، والمسىءَ بإِساءَته .

وأَن يجعل النوعين رابحين ، أَو خاسرين .

بل الإِنسان من حيث هو إِنسان خاسر ، إِلا من رحمه الله ، فهداه ووفقه للإِيمان ، والعمل الصالح فى نفسه ، وأَمر غيره به .

وهذا نظير رده الإِنسان إِلى أَسفل سافلين ، واستثناءِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، من هؤلاءِ المردودين .

وتأَمل حكمة القرآن لما قال (١٠٣ العصر إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ٢) فإِنه ضيق الاستثناءَ وخصصه ، فقال (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٣) .

ولما قال (٩٥ التين : ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥) وسع الاستثناءَ وعممه ، فقال (٩٥ التين : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٦) .

ولم يقل (وَتَوَاصَوْا) فإن التواصى ، هو أَمرالغير بالإيمان ، والعمل الصالح ، وهو قدر زائد ، على مجر د فعله .

فمن لم يكن كذلك ، فقد خسر هذا الربح ، فصار فى خسر .

ولا يلزم أَن يكون فى أَسفل سافلين . فإن الإنسان ، قد يقوم بما يجب عليه ، ولا يأْمر غيره ، فإن الأَمر بالمعروف والنَّهْىَ عن المنكر ، مرتبة زائدة .

وقد تكون فرضا على الأَعيان . وقد تكون فرضا على الكفاية . وقد تكون مستحبة .

والتواصى بالحق ، يدخل فيه ، الحق الذى يجب ، والحق الذى يستحب .

والصبر ، يدخل فيه ، الصبر الذى يجب ، والصبر الذى يستحب .

فهؤلاءِ إذا تواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، حصل لهم من الربح ، ماخسره أُولئك الذين قاموا بما يجب عليهم فى أَنفسهم ، ولم يأْمروا غيرهم به .

وإن كان أُولئك ، لم يكونوا من الذين خسروا أَنفسهم وأَهليهم .

فمطلق الخسار ، شيءٌ ، والخسار المطلق شيءٌ .

وهوسبحانه ، إنماقال (١٠٣ العصر :إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢) ومن ربح فى سلعة وخسر فى غيرها ، قد يطلق عليه أنه فى خسر ، وأنه ذو خسر ، كما قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

لقد فرَّطنا فى قراريط كثيرة (١) فهذا نوع تفريط ، وهو نوع خسر ، بالنسبة إلى من حصَّل ربح ذلك .

ولما قال فى سورة ٩٥ « والتين » (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥) قال (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٦) فقسم الناس ، إلى هذين القسمين فقط .

ولما كان الإنسان له قوتان ، قوة العلم وقوة العمل . وله حالتان ، حالة يأْتمر فيها بأَمر غيره ، وحالة يأْمر فيها غيره ، استثنى سبحانه من كملت قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وانقاد لأَمر غيره له بذلك ، وأَمر غيره به من الإنسان الذى هو فى خسر .

---

(١) رواه البخارى فى « باب فضل اتباع الجنازة » .
قال الحافظ : أى : من عدم المواظبة على حضور الدفن . لأن ابن عمر كان يصلى على الميت ، ثم ينصرف .

فإن العبد له حالتان ، حالة كمال فى نفسه ، وحالة تكميل لغيره .

وكماله وتكميله ، موقوف على أمرين : علم بالحق ، وصبر عليه .

فتضمنت الآية ، جميع مراتب الكمال الإنسانىّ ، من العلم النافع ، والعمل الصالح ، والإحسان إلى نفسه بذلك ، وإلى أخيه به ، وانقياده ، وقبوله لمن يأمره بذلك.

وقوله تعالى(١٠٣العصر:وَتَوَاصَوْابِالْحَقِّوَتَوَاصَوْابِالصَّبْرِ٣) إرشاد إلى منصب الإمامة فى قوة الدين . كقوله تعالى (٣٢ السجدة : وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِأَيَاتِنَا يُوقِنُونَ٢٤) فبالصبر واليقين ، تُنَال الإمامة فى الدين .

والصبر نوعان : نوع على المقدور ، كالمصائب .

ونوع على المشروع . وهذا النوع أيضاً ، نوعان : صبر على الأوامر ، وصبر عن النواهى . فذاك صبر على الإرادة والفعل . وهذا صبر عن الإرادة والفعل .

فأما النوع الأول من الصبر ، فمشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، لا يثاب عليه لمجرده ، إن لم يقترن به إيمان واختيار .

قال النبي صلى الله عليه وسلم فى حق ابنته « مُرْهَا فلتصبر ولتحتسب (١) »

وقال تعالى (١١ هود : إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١١) وقال تعالى (٣ آل عمران : بَلَى ، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ١٢٥) وقال (٣ آل عمران : وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ١٢٠) فالصبر بدون الإيمان والتقوى ، بمنزلة قوة البدن الخالى عن الإيمان والتقوى ، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور . وقال تعالى : (٣٠ الروم فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠) .

فأمره أن يصبر ، ولا يتشبه بالذين لايقين عندهم ، فى عدم الصبر .

فإنهم — لعدم يقينهم — عُدِم صبرهم ، وخفوا واستخفوا قومهم .

---

(١) ابنته هى زينب . بعثت إليه ، أن ابنا لها قبض ، فائتنا .

فأرسل يقرىء السلام ويقول : « إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى — الحديث » . رواه البخارى وغيره فى كتاب الجنائز ، عن أسامة بن زيد .

ولو حصل لهم اليقين والحق ، لصبروا ، وما خفوا ، ولا استخفوا .

فمن قلَّ يقينه ، قلَّ صبره ، ومن قَلَّ صبره ، خف واستخف .

فالموقن الصابر ، رزين ، لأَنه ذو لُبٍّ وعقل .

ومن لايقين له ، ولا صبر عنده ، خفيف طائش ، تلعب به الأَهواءُ والشهوات ، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف . والله المستعان .

(١٧) فصل

ومن ذلك إقسامه سبحانه : (٨٥ : البروج وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١) التى تنزلها الشمس والقمر . وفسرت بالنجوم ، أَو نوع منها . وفسرت بالقصور العظام ، وكل ذلك من آيات قدرته ، وشواهد وحدانيته .

فإن السماءَ كُرَة متشابهة الأَجزاءِ ، والشكل الكُرِىُّ . لايتميزمنه جانب عن جانب ، بطول ، ولا قِصَر ، ولاوضع ، بل هو متساوى الجوانب .

فجعل هذه البروج فى هذه الكرة ـ على اختلاف صورها وأَشكالها ومقاديرها ـ يستحيل أَن توجد بغير

فاعل ، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ، ولاعالم ، ولا مريد ، ولاحيٍّ ، ولاحكيم ، ولامباين للمفعول .

وهذا ونحوه ، مما هدم قواعد الطبائعية ، والملاحدة ، والفلاسفة ، الذين لايثبتون للعالم ، ربًّا بائنا قادرا ، فاعلا بالاختيار ، عالما بتفاصيله ، حكيما ، مدبرا له .

فبروج السماء ، هى : منازلها ، أَو منازل السيارة ، التى فيها ، من أَعظم آياته سبحانه ، فلهذا أَقسم بها ، مع السماء ، ثم أَقسم باليوم الموعود ، وهو يوم القيامة ، وهو المقسم به وعليه . كما أَن القرآن يقسم به وعليه .

ودال على وقوع اليوم الموعود ، باتفاق جميع الرسل عليه ، وبما عرفه عباده ، من حكمته وعزته ، التى تأْبى أَن يتركهم سدى ، ويخلقهم عبثا .

وبغير ذلك من الآيات والبراهين ، التى يستدل بها سبحانه ، على إمكانه تارة ، وعلى وقوعه تارة وعلى تنزيهه عما يقول أَعداؤه ، من أَنه لايأْتى به تارة .

فالإقسام به - عند من آمن بالله - كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان .

ثم أَقسم سبحانه ، بالشاهد والمشهود ، مطلقين

غير معينين ، وأَعم المعانى فيه أَنه المُدرِك والمدرَك ، والعالم والمعلوم ، والرائى والمرئى .

وهذا أَليق المعانى به ، وما عداه من الأَقوال ، ذكرت على وجه التمثيل ، لا على وجه التخصيص .

فإِن قيل : فما وجه الارتباط بين هذه الأُمور الثلاثة المقسم بها ؟

قيل : هى - بحمد الله - فى غاية الارتباط . والإِقسام بها ، متناول لكل موجود فى الدنيا والآخرة ، وكل منها آية مستقلة ، دالة على ربوبيته وإلهيته .

فأَقسم بالعالم العلوى ، وهى السماءُ وما فيها من البروج ، التى هى أَعظم الأَمكنة وأَوسعها .

ثم أَقسم بأَعظم الأَيام وأَجلها قدرا ، الذى هو مظهر ملكه ، وأَمره ، ونهيه ، وثوابه ، وعقابه ، ومجمع أَوليائه وأَعدائه ، والحكم بينهم بعلمه وعدله .

ثم أَقسم بما هو أَعم من ذلك كله ، وهو الشاهد والمشهود .

وناسب هذا القسم ، ذكر أَصحاب الأُخدود ، الذين عذبوا أَولياءه ، وهم شهود ، على ما يفعلون بهم ،

والملائكة شهود عليهم بذلك ، والأَنبياءُ وجوارحهم تشهد به عليهم .

وأَيضاً فالشاهد هو : المطلع والرقيب ، والمخبر والمشهود ، وهو المطلَّع عليه ، المخبَرُ به ، المشاهد .

فمن نَوَّع الخليقة إلى شاهد ومشهود ، وهو أَقدر القادرين ، كما نوَّعها إلى مرئيّ ولنا وغير مرئى ، كما قال (٦٩الحاقة :فَلَا أُقْسِمُ بِمَاتُبْصِرُون ٣٨وَمَالاَ تُبْصِرُونَ ٣٩) كما نوَّعها إلى أَرض وسماءٍ وليل ونهار ، وذكر وأُنثى .

وهذا التنويع والاختلاف ، من آياته سبحانه — كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود .

وفيه سرٌّ آخر ، وهو أَن من المخلوقات ، ماهومشهود عليه ، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك .

فكيف يكون المخلوق شاهدا رقيبا حفيظا علىغيره

ولا يكون الخالق تبارك وتعالى ، شاهدا على عباده ، مطلعا عليهم رقيبا ؟

وأَيضاً ، فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأَنبيائه ورسله ، فإنهم شاهدون على العباد .

فيكون من باب اتحاد المقسم به ، والمقسم عليه ،

كما أقسم باليوم الموعود ، وهو المقسم به وعليه .

وأيضاً فيوم القيامة مشهود ، كما قال تعالى :
تعالى (١١ هود : ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ١٠٣) يشهده الله وملائكته ، والإنس والجن ، والوحش ، من آياته ، والمشهود من آياته .

وأيضاً فكلامه مشهود كما قال تعالى (١٧ الإسراء : وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ٧٨) تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار .

فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد .

فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود ، فهو داخل فى هذا القسم .

فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان ، إلا على سبيل التمثيل .

وأيضاً فكتاب الأبرار فى عليين ، يشهده المقربون .

فالكتاب مشهود ، والمقربون ، شاهدون .

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب ، لأن القصة للتنبيه على المقسم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة .

ويبعد أن يكون الجواب (٨٥ البروج قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ٤) الذين فتنوا أَولياءه ، وعذبوهم بالنار ذات الوقود .

ثم وصف حالهم القبيحة ، بأَنهم قعود على جانب الأُخدود ، شاهدين ما يجرى على عباد الله تعالى وأَوليائه ، عيانا ، ولا تأْخذهم بهم رأْفة ولا رحمة ، ولا يعيبون عليهم دينا ، سوى إِيمانهم بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأَرض .

وهذا الوصف يقتضى إِكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم فعاملوهم بضد ما يقتضى أَن يعاملوا به .

وهذا شأْن أَعداءِ الله دائماً ، ينقمون على أَوليائه ، ما ينبغى أَن يحبوا ويكرموا لأَجله ، كما قال تعالى (٥ المائدة : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ٥٩) .

وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزههم عن مثل فعلهم ، فقالوا (٧ الأَعراف : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢) .

وكذلك أهل الإشراك ، ينقمون من الموحدين ، تجريدهم التوحيد ، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده .

وكذلك أهل البدع ، ينقمون من أهل السنة ، تجريد متابعتها ، وترك ما خالفها .

وكذلك للمعطلة ، ينقمون من أهل الإثبات ، إثباتهم لله صفات كماله ، ونعوت جلاله .

وكذلك الرافضة ، ينقمون على أهل السنة ، محبتهم للصحابة جميعهم ، وتَرَضِّيهمْ عنهم ، وولايتهم إياهم وتقديم من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، وتنزيلهم منازلهم ، التى أنزلهم الله ورسوله بها .

وكذلك أهل الرَّأْيِ المحدث ، ينقمون على أهل الحديث ، وحزب الرسول ، أخذهم بحديثه ، وتركهم ما خالفه .

وكل هؤلاء لهم نصيب ، وفيهم شَبَهٌ من أصحاب الأخدود . وبينهم وبينهم ، نسب قريب أو بعيد .

ثم أخبر سبحانه ، أنه أعد لهم عذاب جهنم ، وعذاب الحريق ، حيث لم يتوبوا ، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ، لغفر لهم ، ولم يعذبهم . وهذا غاية الكرم والجود .

قال الحسن : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، يقتلون أولياءَه ، ويفتنونهم ، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

أُنظروا إلى كرم الرب تعالى ، يدعوهم إلى التوبة ، وقد فتنوا أَولياءَه ، فحرقوهم بالنار .

فلا ييأَس العبد من مغفرته وعفوه ، ولو كان منه ما كان .

فلا عداوة أَعظم من هذه العداوة ، ولا أَكفر ممن حرّق بالنار ، من آمن بالله وحده ، وعبده وحده ، ومع هذا ، فلو تابوا لم يعذبهم ، وأَلحقهم بأَوليائه .

ثم ذكر سبحانه ، جزاءَ أَوليائه المؤمنين .

ثم ذكر ، شدة بطشه وأَنه لايعجزه شئٌ ، فإنه هو المبدئُ المعيد .

ومن كان كذلك ، فلا أَشد من بطشه ، وهو مع ذلك ، الغفور الودود ، يغفر لمن تاب إليه ، ويوده ويحبه .

فهو ، سبحانه ، الموصوف بشدة البطش ، ومع ذلك ، هو الغفور الودود ، المتودد إلى عباده بنعمه ، الذى يود من تاب إليه وأَقبل عليه .

وهو الودود أَيضاً أَى : المحبوب ، قال البخارى فى صحيحه : .

« الودود : الحبيب » .

والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين ، على كونه وادًّا لأوليائه ، ومودودا لهم .

فأحدهما ، بالوضع . والآخر ، باللزوم . فهوالحبيب ، الْمُحِبُّ لأوليائه ، يحبهم ويحبونه . وقال شعيب عليه السلام (١١ هود : إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ٩٠) .

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور ، فإن الرجل قد يغفر لمن أساءَ إليه ، ولايحبه . وكذلك قد يرحم ، من لايحب .

والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ، ويرحمه ويحبه مع ذلك ، فإنه يحب التوابين ، وإذا تاب إليه عبده ، أحبه ، ولو كان منه ما كان .

ثم قال (ذُو الْعَرْش) فأضاف العرش إلى نفسه ، كما تضاف إليه الأشياءُ العظيمة الشريفة .

وهذا يدل على عظمة العرش ، وقربه منه سبحانه ، واختصاصه به ، بل يدل ، على غاية القرب والاختصاص

كما يضيف إلى نفسه بـ « ذو » صفاته القائمة به ، كقوله (ذو الْقُوّة) (ذُو الْجَلَال وَالْإِكْرَام) .

ويقال :ذو العزة ، و« ذو الملك » و« ذو الرحمة»ونظائر ذلك

فلو كان حظ العرش منه ، حظ الأَرض السابعة ، لكان لافرق أَن يقال : ذو العرش ، وذو الأَرض .

ثم وصف نفسه بـ« المجيد» ، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها ، وعدم إحصاءِ الخلق لها . وسعة أَفعاله ، وكثرة خيره ، ودوامه .

وأَما من ليس له صفات كمال ولا أَفعال حميدة ، فليس له من المجد شئٌ .

والمخلوق ، إنما يصير مجيداً ، بأَوصافه وأَفعاله .

فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيدا . وهو معطل عن الأَوصاف والأَفعال ؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علوا كبيرا ، بل هو المجيد الفعال لما يريد .

و « المجد » فى لغة العرب ،كثرة أَوصاف الكمال ، وكثرة أَفعال الخير .

وأَحسن ماقرن اسم المجيد ، إلى الحميد ، كما قالت الملائكة لبيت الخليل عليه السلام (١١ هود : رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ٧٣) وكما شرع لنا فى آخر الصلاة أَن نُثْنىَ على الرب تعالى ،

بأنه حميد مجيد ، وشرع فى آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول « ربنا ولك الحمد ، أهل الثناءِ والمجد » .

فالحمد والمجد على الإطلاق ، لله الحميد المجيد .

فالحميد : الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال.

والمجيد :العظيم الواسع القادر الغنى ؛ ذو الجلال والإكرام

ومن قرأ (المجيدِ) بالكسر ، فهو صفة لعرشه سبحانه، وإذا كان عرشه مجيداً ، فهو سبحانه أحق بالمجد

وقد استشكل هذه القراءَة بعض الناس ، وقال :

لم يسمع فى صفات الخلق « مجيد » .

ثم خرَّجها على أحد الوجهين ، إما على الجوار (١) ،

(١) أقول: الجر بالجوار أسقطه معظم النحويين من كتبهم ، كابن هشام وغيره ، وذلك لشذوذه .

ولم يحفظ الجر بالمجاورة عندهم إلا فى بابى النعت والتوكيد . فالنعت كقول امرئ القيس :

كَأَنَّ ثَبِيراً فى عَرَانِينِ وَبْلِهِ   كَبِيرُ أُنَاسٍ فى بِجَادٍ مزمّلِ

فجر « مزمل » لقصد المحاورة ومقتضى القياس أن يكون مرفوعاً لأنه نعت لـ « كبير » وقولهم أيضاً (هذا جحر ضب خرب) والقياس أن يقال (خرب) بالرفع لأنه صفة ل (جحر) .

والتوكيد كقول الآخر .

يَا صَاحِ بَلِّغْ ذَوِى الزّوْجَاتِ كُلِّهِمِ
أنْ لَيْسَ وَصْلٌ إِذَا انحَلّتْ عُرَى الذّنَبِ

وإما أن يكون صفة «لربك» وهذا من قلة بضاعة هذا القائل .

فإن الله سبحانه ، وصف عرشه بالكرم ، وهو نظير المجد . ووصفه بالعظمة .

فوصفه سبحانه بالمجد ، مطابق لوصفه بالعظمة والكرم ، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك ، لسعته ، وحسنه ، وبهاء منظره ، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله ، وأجمعه لصفات الحسن ، وبهاء المنظر ، وعُلُوِّ القدر والرتبة والذات .

ولا يقدر قدر عظمته وحسنه ، وبهاء منظره إلا الله .

ومجده ، مستفاد من مجد خالقه ومبدعه .

والسموات السبع ، والأرضون السبع في الكرسي — الذي بين يديه — كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، والكرسي فيه ، كتلك الحلقة في الفلاة .

= فجر « كلهم » لقصد المجاورة ، والقياس أن يكون منصوباً لأنه توكيد لـ « ذوي » .

والجر بالمجاورة لغة قليلة شاذة قياساً واستعمالا لذلك قال مؤلفنا لمن احتج بها « وهذا من قلة بضاعة هذا القائل » ، أي : في العلوم العربية .

قال ابن عباس : السموات السبع فى العرش ، كسبعة دراهم جُعِلْنَ فى تُرْسٍ .

فكيف لايكون مجيدا وهذا شأنه ؟ فهو عظيم كريم مجيد .

وأما تَكَلُّف هذا المتكلف ، جَرَّه إلى الجوار ، أوأنه صفة لربك ، فتكلُّفٌ شديد ، وخروج عن المألوف فى اللغة من غير حاجة إلى ذلك .

وقوله (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) دليل على أُمور .

(أحدها) أنه سبحانه ، يفعل بإرادته ومشيئته

(الثانى) أنه لم يزل كذلك ، لأنه لم يزل كذلك ، لأنه ساق ذلك فى معرض المدح والثناءِ على نفسه ، وأن ذلك من كماله سبحانه ، فلايجوز أن يكون عادِماً لهذا الكمال فى وقت من الأوقات .

وقد قال تعالى (١٦ النحل : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ ؟)

وما كان من أوصاف كماله ، ونعوت جلاله ، لم يكن حادثا ، بعد أن لم يكن .

(الثالث) أنه إذا أراد شيئا ، فعله .

فإن «ما» موصولة عامة ، أى : يفعل كل ما يريد أن يفعله . وهذا فى إرادته المتعلقة بفعله .

وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد ، فتلك لها شأن آخر.

فإن أراد فعل العبد ، ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلا ، لم يوجد الفعل ، وإن أراده ، حتى يريده من نفسه ، أن يجعله فاعلا . « وُجِد الفعل »(١) .

وهذه هى النكتة ، التى خفيت على القدرية والجبرية ، وخبطوا فى مسألة القدر ، لغفلتهم عنها .

فإن هنا إرادتين : إرادة أن يفعل العبد ، وإرادة أن يجعله الرب فاعلا .

وليستا متلازمتين ، وإن لزم من الثانية ، الأولى من غير عكس .

فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده ، وأن يخلق له أسباب الفعل ، فقد أراد فعله .

وقد يريد فعله ، ولايريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل ، فلايوجد الفعل .

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع ، وأشكل عليك ، فانظر إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم ، حاكيا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة :

---

(١) ما بين القوسين زيادة لابد منها لتحصل المقابلة مع ما سبق اهـ مصححه : محمد زهرى النجار .

« قد أردت منك أهون من هذا ، وأنت فى صلب أبيك : أن لاتشرك بى شيئا » .

ولم يقع هذا المراد ، لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه ، وتوفيقه له .

(الرابع) أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان . فما أراد أن يفعله فعله ، وما فعله ، فقد أراده .

بخلاف المخلوق ، فإنه يريد مالايفعل ، وقد يفعل ما لايريد .

فما ثَمَّ فعَّال لما يريد ، إلا الله وحده .

(الخامس) إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال ، وأن كل فعل له إرادة تخصه .

وهذا هو المعقول فى الفطر ، وهو الذى يعقله الناس من الإرادة .

فشأنه تعالى ، أنه يريد على الدوام ، ويفعل ما يريد .

(السادس) أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته ، جاز فعله .

فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماءِ الدنيا . وأن يجىءَ يوم القيامة لفصل القضاءِ ، وأن يُرِىَ نفسه

لعباده ، وأن يتجلَّى لهم كيف شاءَ ، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم ، وغير ذلك مما يريد سبحانه - لم يمتنع عليه فعله ، فإنه فعال لما يريد .

وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به .

فإذا أَخبر به ، وجب التصديق به ، وكان رده ، ردًّا لكماله الذى أَخبر به عن نفسه . وهذا عين الباطل .

وكذلك إذا أَمكن إرادته سبحانه ، مَحْوَ ماشاءَ وإثبات ماشاءَ ، أَمكن فعله .

وكانت الإرادة والفعل ، من مقتضيات كماله المقدس .

وقد اشتملت هذه السورة - على اختصارها من التوحيد - على وصفه سبحانه ، بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة ، وعدم النظير .

والحمد ، المتضمن لصفات الكمال ، والتنزيه عن أَضدادها ، مع محبته وإلهيته .

وملكه السموات والأَرض ، المتضمن لكمال غناه ، وسعة ملكه .

وشهادته على كل شيء ، المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأُمور وبواطنها .

وإحاطة بصره بمرئياتها ، وسمعه بمسموعاتها ، وعلمه بمعلوماتها .

ووصفه بشدة البطش ، المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة ، وتفرده بالإبداء والإعادة ، المتضمن لتوحيد ربوبيته ، وتصرفه فى المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته ، فلا يستعصى عليه منها شيءٌ .

ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه ، وغناه ورحمته .

ووصفه بالودود ، المتضمن لكونه حبيبا إلى عباده ، محبا لهم .

ووصفه بأنه ذو العرش ، الذى لايقدر قدره سواه ، وأن عرشه المختص به ، لايليق بغيره أن يستوى عليه .

ووصفه بالمجد ، المتضمن لسعة العلم ، والقدرة ، والملك ، والغنى ، والجود والإحسان ، والكرم .

وكونه فعَّالًا لما يريد ، المتضمن لحياته ، وعلمه ، وقدرته ، ومشيئته ، وحكمته ، وغير ذلك من أوصاف كماله .

فهذه السورة ، كتاب مستقل فى أُصول الدين ، تكفى مَنْ فهمها .

فالحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده .

ثم ختمها بذكر فعله ، وعقوبته بمن أشرك به ، وكذَّب رسله . تحذيرا لعباده ، من سلوك سبيلهم ، وأَن من فعل فعلهم ، فُعِلَ به كما فُعِلَ بهم .

ثم أَخبر عن أَعدائه ، بأَنهم مكذِّبون بتوحيده ، ورسالاته ، مع كونهم فى قبضته ، وهو محيط بهم .

ولا أَسوأَ حالا ، ممن عادى من هو فى قبضته ، ومن هو قادر عليه من كل وجه ، وبكل اعتبار . فقال : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيب١٩وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ٢٠)

فهذا أَعجب عجب ، ممن كفر بمن هو محيط به ، وآخذ بناصيته ، قادر عليه .

ثم وصف كلامه بأَنه مجيد ، وهو أَحق بالمجد من كل كلام . كما أَن المتكلم به ، له المجد كله .

فهو المجيد ، وكلامه مجيد ، وعرشه مجيد .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « قرآن مجيد » . كريم . لأَن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون : شعر ، وكهانة ، وسحر .

وقد تقدم أن المجد : السعة ، وكثرة الخير ، وكثرة خير القرآن ، لايعلمها إلا من تكلم به .

وقوله (٨٥ البروج فِى لَوْح مَحْفُوظٍ٢٢) أكثر القراءِ على الجر ، صفة لـ « لَوْح » .

وفيه إشارة ، إلى أن الشياطين ، لايمكنهم التَّنزُّل به ، لأن محله محفوظ من أن يصلوا إليه ، وهو فى نفسه ، محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان .

فوصفه ـ سبحانه ـ بأنه محفوظ فى قوله (١٥ الحجر : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٩) .

ووصف محله بالحفظ ، فى هذه السورة .

فالله سبحانه ، حفظ محله ، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل ، وحفظ معانيه من التحريف . كما حفظ ألفاظه من التبديل .

وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ، ومعانيه من التحريف والتغيير .

(١٨) فصل

ومن ذلك إقسامه سبحانه : بـ (الطارق ٨٦ : وَالسَّماءِ والطَّارِقِ ١) وقد فسره بأنه : (النَّجْمُ الثَّاقِب ٣) الذى يثقب ضوؤه .

والمراد به ، الجنس ، لانجم معين .

ومن عيَّنه بأنه الثريا ، أو « زحل » ، فإن أراد التمثيل ، فصحيح .

وإن أراد التخصيص ، فلادليل عليه .

والمقصود ، أنه سبحانه ، أقسم بالسماء ونجومها المضيئة . وكل منها ، آية من آياته الدالة على وحدانيته

وسُمِّىَ النجم ، طارقا ، لأنه يظهر بالليل ، بعد اختفائه ، بضوء الشمس .

فَشُبِّه بالطارق ، الذى يطرق الناس أو أهله ليلا .

قال الفراءُ : ما أتاك ليلًا فهو طارق .

وقال الزجاج ، والمبرد : لايكون الطارق نهاراً . ولهذا تستعمل العرب الطروق ، فى صفة الخيال كثيرا ، كما قال ذو الرمة :

أَلَا طَرَقَتْ مَىٌّ هَيُومًا بِذِكْرِهَا
وَأَيْدِى الثُّرَيَّا جُنَّحٌ بِالْمَغَـــارِب

وقال جرير :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا
وَقْتَ الزِّيارَةِ ، فَارْجعى بِسَلَامِ

ولهذا قيل : أول من ردَّ الطيف ، جرير ، فلم يزل الناس على قبوله ، وإكرامه كالضيف .

فالطيف والضيف ، كلاهما لا يرد . وقال الآخر :

أَلَا طَرَقَتْ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ زَيْنَبُ
عَلَيْكَ سَلَامٌ ، هَلْ لِمَا فَاتَ مَطْلَبُ ؟

(١٩) فصل

والمقسم عليه ههنا ، حال النفس الإنسانية ، والاعتناء بها ، وإقامة الحفظة عليها . وأنها لم تُتْرَك سُدًى ، بل قد أَرصد عليها من يحفظ عليها أَعمالها ويحصيها .

فأَقسم سبحانه ، أَنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها وقولها ، ويحصى ما تكتسب من خير أوشر .

واختلف القراءُ فى (لَمَّا) فشددها بعضهم ، وخففها بعضهم .

فمن قرأَها بالتشديد ، جعلها بمعنى « إلا » .

وهى تكون بمعنى (إلا) فى موضعين .

(أَحدهما) بعد « إنْ » المخففة ، مثل هذا الموضع ، أَو المثقلة ، مثل قوله : (١١ هود : وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ١٢١) .

(والثانى) فى باب القسم ، نحو « سألتك بالله ، لَمَّا فعلت .

قال أبو على الفارسى : من خفف ، كانت عنده هى المخففة من الثقيلة ، واللام فى خبرها ، هى الفارقة بين « إن » النافية والخفيفة و« ما » زائدة ، و« إن » هى التى يُتَلَقَّى بها القسم ، كما يتلقى بالمثقلة .

ومن قرأها مشددة ، كانت « إن » عنده ، نافية ، بمعنى « ما » ، و« لما » فى معنى « إلا » .

قال سيبويه ، عن الخليل – فى قولهم : نشدتك بالله ، لمَّا فعلت .

قال : المعنى : إلا فعلت .

ثم نبَّه سبحانه الإنسان على دليل المعاد ، بما يشاهده من حال مبدئه ، على طريقة القرآن فى الاستدلال على المعاد بالمبدإ ، فقال : (٨٦ الطارق : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥) أى : فلينظر ، نظر الفكر والاستدلال ، ليعلم أن الذى ابتدأ أول خلقه من نطفة ، قادر على إعادته .

ثم أخبر سبحانه ، أنه خلقه من ماءٍ دافق . و« الدَّفْق » صبُّ الماءِ .

يقال : دفقت الماء ، فهو مدفوق ، ودافق ، ومندفق ،

فالمدفوق : الذى وقع عليه فعلك ، كالمكسور ، والمضروب

والمندفق ، المطاوع لفعل الفاعل ، تقول : « دفقته فاندفق » . كما تقول : كسرته فانكسر .

والدافق ، قيل : إنه « فاعل » بمعنى « مفعول » ؛ كقولهم « سر كاتم » و« عيشة راضية » .

وقيل : هو على النسب ؛ لا على الفعل ، أى ذى دفق ، أو ذات . ولم يرد الجريان على الفعل .

وقيل — وهو الصواب — إنه اسم فاعل على بابه ، ولا يلزم من ذلك ، أن يكون هو فاعل الدفق .

فإن اسم الفاعل ، هو من قام به الفعل ، سواءٌ فعله هو ، أو غيره ، كما يقال :

ماءٌ جارٍ ، ورجل ميت ، وإن لم يفعل الموت ، بل لِمَا قام به من الموت ، نسب إليه على جهة الفعل .

وهذا غير منكر فى لغة أُمة من الأُمم ، فضلا عن أَوسع اللغات وأَفصحها .

وأما العيشة الراضية ، فالوصف بها ، أَحسن من الوصف بالمرضية ، فإنها اللائقة بهم ، فشبه ذلك ، برضاها بهم ، كما رضوا بها . كأَنها رضيت بهم ، ورضوا بها .

وهذا أَبلغ من مجرد كونها مرضية فقط ، فتأَمله

وإذا كانوا يقولون : الوقت الحاضر والساعة الراهنة — وإن لم يفعلا ذلك .

فكيف يمتنع أَن يقولوا « ماءٌ دافق » ، و« عيشة راضية ؟ » .

ونبَّه سبحانه ، بكونه دافقا ، على أَنه ضعيف غير متماسك .

ثم ذكر محله الذى يخرج منه ، وهو بين الصلب والترائب .

قال ابن عباس : صلب الرجل ، وترائب المرأَة ، وهو موضع القلادة من صدرها ، والولد يخلق من المائين جميعا .

وقيل : صلب الرجل وترائبه وهى صدره ، فيخرج من صلبه وصدره .

وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه ، نظير إخراجه اللبن الخالص ، من بين الفَرْثِ والدمِ .

ثم ذكر الأَمر المستَدَلَّ عليه والمعاد بقوله (٨٦ : الطارق إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ٨) أَى : على رجعه إليه يوم القيامة ، كما هو قادر على خلقه من ماءٍ هذا شأْنه .

هذا هو الصحيح فى معنى الآية . وفيها قولان ضعيفان .

(أَحدهما) قول مجاهد : على رَدّ الماء فى الإحليل لقادر .

(والثانى) قول عكرمة والضحاك . على رَدّ الماء فى الصلب .

وفيه قول ثالث ، قال مقاتل : إن شئت رددته من الكِبَر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصِّبا ، إلى النطفة .

والقول الصواب هو الأَول لوجوه .

(أَحدها) أنه ، هو المعهود من طريقة القرآن ، من الاستدلال بالمبدإ على المعاد .

(الثانى) أَن ذلك أَدل على المطلوب ، من القدرة على رد الماء فى الإحليل .

(الثالث) أَنه لم يأْت لهذا المعنى فى القرآن ، نظير فى موضع واحد .

ولا أنكره أَحد حتى يقيم سبحانه ، الدليل عليه .

(الرابع) أَنه قيد الفعل بالظرف ، وهو قوله (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) وهو يوم القيامة .

أى : أن الله قادر على رجعه إليه ، حيًّا فى ذلك اليوم

(الخامس) أن الضمير فى (رجعه) هو الضمير فى قوله (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّة وَلَا نَاصِرٌ) وهذا للإنسان قطعاً لا للماء .

(السادس) أنه لاذكر للإحليل ، حتى يتعين كون المرجع إليه .

فلو قال قائل : على رجعه إلى الفرج ، الذى صب فيه ، لم يكن فرق بينه ، وبين هذا القول ، ولم يكن أولى منه .

(السابع) أن رد الماء إلى الإحليل أَو الصُّلب بعد خروجه منه ، غير معروف ، ولا هو أَمر معتاد ، جرت به القدرة ، وإن كان مقدوراً للرب تعالى ، ولكن هو ، لم يُجرِهِ ولم تَجْرِ به العادة . ولا هو مما تكلم الناس فيه ، نَفْيًا أَو إثباتاً .

ومثل هذا ، لايقرره الرب ، ولا يستدل عليه ، وينبه على منكريه .

وهو ، سبحانه ، إنما يستدل على أَمر واقع ولابد ، إما قد وقع ووجد ، أَو سيقع .

فإن قيل : فقد قال تعالى (٧٥ القيامة : أَيَحْسَبُ

الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ؟ ٣ بَلَى ، قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَه ٤) أى : نجعله كخف البعير .

قيل : هذه أيضاً فيها قولان .

(أحدهما) هذا .

(والثانى) ـ وهو الأرجح ـ أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت ، بعد ما فرقها الْبِلَى (١) فى التراب .

(الثامن) أنه سبحانه ، دعا الإنسان إلى النظر فيما خُلِق منه ، ليرده نَظَرُهُ عن تكذيبه بما أخبر به .

وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء فى إحليله ، بعد مفارقته له ، حتى يدعوه إلى النظر فيما خُلِقَ منه ، ليستقبح منه صحة إمكان رد الماء .

(التاسع) أنه لا ارتباط بين النظر فى مبدإ خلقه ، ورد الماء فى الإحليل ، بعد خروجه ، ولا تلازم بينهما ، حتى يُجْعَل أحدهما دليلا على إمكان الآخر .

بخلاف الارتباط ، الذى بين المبدأ والمعاد ، والخلق الأول والخلق الثانى ، والنشأة الأولى والنشأة الثانية .

---

(١) البلى : الفناء . والمراد : أن الفناء جعله ذرات لا يفترق عن ذرات التراب . .

فإنه ارتباط من وجوه عديدة ، ويلزم من إمكان أحدهما ، إمكان الآخر ، ومن وقوعه ، صحة وقوع الآخر

(العاشر) أَنه سبحانه نبه بقوله (إِنْ كُلُّ نَفْس لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) على أَنه قد وَكَّل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه ، فلا يضيع منه شيءٌ .

ثم نبه بقوله (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) على بعثه لجزائه على العمل ، الذى حفظ وأُحْصِىَ عليه .

فذكر شأْن مبدإِ عمله ونهايته ، فمبدؤه محفوظ عليه ، ونهايته ، الجزاءُ عليه .

ونبه على هذا بقوله (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) أَى تختبر. وقال مقاتل : تظهر ، وتبدو ، وبلوت الشىءَ ، إذا اختبرته ، ليظهر لك باطنه ، وما خَفَىَ منه .

« والسرائر » جمع « سريرة » . وهى : سرائر الله ، التى بينه وبين عبده ، فى ظاهره ، وباطنه لله.

فالإِيمان ، من السرائر ، وشرائعه ، من السرائر .

فتختبر ذلك اليوم ، حتى يظهر خيرها من شرها ، ومُؤدِّيها من مُضَيِّعها . وما كان لله ، مما لم يكن له .

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : يُبْدِى الله

يوم القيامة ، كُلَّ سر ، فيكون زَيْنًا فى الوجوه ، وشَيْنًا فيها .

والمعنى : تختبر السرائر بإظهارها . وإظهار مقتضياتها ، من الثواب والعقاب ، والحمد والذم .

وفى التعبير عن الأَعمال بـ « السر » لطيفة ، وهو أَن الأَعمال ، نتائج السرائر الباطنة .

فمن كانت سريرته صالحة ، كان عمله صالحا ، فتبدو سريرته على وجهه ، نورا وإشراقا وحياءً .

ومتى كانت سريرته فاسدة ، كان عمله تابعا لسريرته ، لا اعتبار بصورته .

فتبدو سريرته على وجهه ، سواداً ، وظلمة ، وشيْنًا .

وإن كان الذى يبدو عليه فى الدنيا ، إنما هو عمله ، لاسريرته ، فيوم القيامة ، تبدو عليه سريرته ، ويكون الحكم والظهور لها . قال الشاعر :

فَإِنَّ لَهَا فِى مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا
سَرِيرَةَ حُبٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

ثم أَخبر سبحانه ، عن حال الإنسان فى يوم القيامة

أنه غير ممتنع من عذاب الله . لا بقوة منه ولا بقوة من خارج ، وهو : الناصر .

فإن العبد إذا وقع فى شدة ، فإما أن يدفعها بقوته ، أو قوة من ينصره . وكلاهما معدوم فى حقه .

ونظيره قوله سبحانه (٢١ الأنبياء : لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَاهُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ٤٣) .

ثم أقسم سبحانه : (٨٦ البروج : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ١٢ .

فأقسم بالسماء ،ورجعها بالمطر ، والأرض وصَدْعهابالنبات

قال الفراءُ : تُبْدِى بالمطر ، ثم ترجع به ، فى كل عام

وقال أبو إسحق : الرجع : المطر ، لأنه يجىءُ ويرجع ويتكرر . وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : تبدى بالمطر ، ثم ترجع به . فى كل عام .

والتحقيق أن هذا ، على وجه التمثيل .

ورَجْع السماء ، هو إعطاءُ الخير ، الذى يكون من جهتها ، حالا بعد حال ، على مرور الأزمان . ترجعه رجعا ، أى : تعطيه مرة بعد مرة والخير كله من قِبَلِ السماء ، يجىءُ .

ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان ، المطر ، فسّر الرجع به ، وحسن تفسيره به ، ومقابلته بصدع الأَرض عن النبات .

وفسر الصدع ، بالنبات ، لأَنه يصدع الأَرض ، أَى : يشقها .

فأَقسم سبحانه ، بالسماءِ ذات المطر ، والأَرض ، ذات النبات .

وكل من ذلك ، آية من آيات الله تعالى ، الدالة على ربوبيته .

وأَقسم على كون القرآن حقاً وصدقا فقال (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣ وَمَاهُوَ بِالْهَزْلِ ١٤) كما أَقسم فى أَول السورة ، على حال الإِنسان ، فى مبدئه ومعاده .

والقول الفصل ، هو الذى يفصل بين الحق والباطل فيميز هذا من هذا . ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه .

ومصيب الفصل ، الذى ينفصل عنده المراد ، ويتميز من غيره ، كما قال : أَصاب الفصل ، المرءُ ، إِذا أَصاب بكلامه نفس المعنى المراد ، ومنه فصل وأَصاب الخطاب .

وأيضاً ، فالقول الفصل ، ببيان المعنى ، ضد الإجمال .

فكون القرآن فصلا ، يتضمن هذه المعانى كلها ، ويتضمن كونه حقا ليس بالباطل ، وجِدًّا ليس بالهزل .

ولما كان الهزل ، هو الذى لاحقيقة له – وهو الباطل واللعب – قابل بين الفصل والهزل. وإنما يكيدالمكذبون ، ويحيلون ، ويخادعون لرده ، ولا يردونه بحجة .

والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده .

وكيده (سبحانه) استدراجهم من حيث لايعلمون ، والإملاء لهم ، حتى يأْخذهم على غِرَّة ، كما قال تعالى (٧ الأَعراف : وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ١٨٣)

فالإنسان ، إذا أَراد أَن يكيد غيره ، يُظهِر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه ، فيأْخذه كما يفعل الملوك .

فإذا فعل ذلك أَعداءُ الله بأَوليائِه ودِينِه ، كان كيد الله لهم حسنا لاقبح فيه .

فيعطيهم ويعافيهم ، وهو يستدرجهم ، (حتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) .

ثم قال (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ١٧)
معنى رويدًا و أوجه إعرابه .

أى : أَنْظِرْهُمْ قليلا ولا تستعجل لهم ، والرب تعالى هو الذى يمهلهم .

وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم ، أوعلى معنى ، انتظر بهم قليلا .

و« رويدا » فى كلامهم ، يكون اسم فعل ، فينصب بها الاسم ، نحو : رويدا زيدا ، أى خَلِّهِ وأمهله ، وارفق به .

الثانى أن يكون مصدرا مضافا إلى المفعول ، نحو « رويدَ زيد » أى : إمهال زيد ، نحو « ضرْبَ الرقاب » ،

الثالث أن يكون نعتا منصوبا ، نحو قولك : ساروا رويدا .تقول العرب : ضعه رويدا ، أى : وضعا رويدا .

وفى حديث عائشة فى خروج النبى صلى الله عليه وسلم بالليل من عندها إلى البقيع « فخرج رويدا ، وأجاف الباب رويدا (١) » .

ويجوز فى هذا الوجه وجهان : أحدها أن يكون حالا .

---

(١) أجاف الباب : أغلقه ، والحديث ، رواه الإمام أحمد .

والثانى أَن يكون نعتا لمصدر محذوف .

فإِن أَظهرت المنعوت تعين الوجه الثانى . و«رويداً» فى هذه الآية ، هو من هذا النوع الثالث . والله أَعلم .

(٢٠) فصل

ومن ذلك إقسامه بـ(٨٤ الانشقاق : الشَّفَقِ ١٦ وَالَّلَيْلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ١٨) فأَقسم بثلاثة أَشياءَ متعلقة بالليل .

(أَحدها) الشفق ، وهو — فى اللغة — الحمرة ، بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاءِ الآخر ، وكذلك هو فى الشرع .

قال الفراءُ ، والليث ، والزجاج ، وغيرهم : الشفق الحمرة فى السماءِ .

وأَصل موضوع الحرف ، لرقة الشىءِ . ومنه شىءٌ شفق ، لاتماسك له ، لرقته ، ومنه ، الشفقة ، وهو الرِّقَّة . وأَشفق عليه ، إذا رقَّ له .

وأَهل اللغة يقولون : الشفق بقية ضوءِ الشمس وحمرتها . ولهذا كان الصحيح ، أَن الشفق ، الذى يدخل وقت العشاءِ الآخر بغيبوبته ، هو الحمرة .

فإن الحمرة ، لما كانت بقية ضوءِ الشمس ، جعل بقاؤها حداً لوقت المغرب .

فإذا ذهبت الحمرة ، بعدت الشمس عن الأُفق ، فدخل وقت العشاءِ .

وأَما البياض ، فإنه يمتد وقته بطول لُبْثِهِ ، ويكون حاصلا مع بُعْد الشمس عن الأُفق .

ولهذا صح عن ابن عمر رضى الله عنهما أَنه قال : الشفق : الحمرة .

والعرب تقول : ثوب مصبوغ كأَنه الشفق ، إذا كان أَحمر ، حكاه الفراءُ .

وكذلك قال الكلبي : الشفق : الحمرة التى تكون فى المغرب .

وكذلك قال مقاتل : هو الذى يكون بعد غروب الشمس فى الأُفق قبل الظلمة .

وقال عكرمة : هو بقية النهار .

وهذا يحتمل أَن يريد به أَن تلك الحمرة ، بقية ضوءِ الشمس ، التى هى آية النهار .

وقال مجاهد : هو النهار كله . وهذا ضعيف جداً

وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق ، ظن أنه النهار . وهذا ليس بلازم .

(الثانى) قَسَمُهُ بالليل وما وسق . أى : وما ضم وحوى وجمع

والليل وما ضمه وحواه ، آية أُخرى .

والقمر آية ، واتساقه آية أُخرى . والشفق يتضمن إدبار النهار ، وهو آية ، وإقبال الليل ، وهو آية أُخرى .

فإن هذا ، إذا أَدبر ، خَلَفَهُ الآخر ، يتعاقبان لمصالح الخلق .

فإدبار النهار آية . وإقبال الليل آية ، وتعقب أَحدهما الآخر ، آية .

والشفق ، الذى هو متضمن الأَمرين ، آية .

والليل – آية . وما حواه ، آية ، والهلال آية ، وتزايده كل ليلة ، آية .

واتساقه – وهو امتلاؤه نورا – آية ، ثم أَخذه فى النقص آية .

وهذه وأَمثالها ، آيات دالة على ربوبيته ، مستلزمة للعلم بصفات كماله .

ولهذا شُرِعَ – عند إقبال الليل وإدبار النهار – ذِكْرُ الرب تعالى، بصلاة المغرب .

وفى الحديث « اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك . وأصوات دعائك وحضور صلواتك ، اغفر لى (١) » .

كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر ، عند إدبار الليل وإقبال النهار .

ولهذا يُقْسِمُ سبحانه بهذين الوقتين كقوله (٧٤المدثر : وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤) وهو يقابل إقسامه بالشفق :

ونظيره إقسامه : (٨١ التكوير : وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧ والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨) .

ولما كان الرب تبارك وتعالى ، يحدث عن كل واحد من طَرَفَىْ – إقبال الليل والنهار وإدبارهما ، ما يحدثه ، ويبث من خلقه ما شاء . فينشر الأَرواح الشيطانية ، عند إقبال الليل ، ينشر الأَرواح الإنسانية عند إقبال النهار ، فَيُحدِثُ هذا الانتشار فى العالم أَثره – شرع

(١) رواه أبو داود والترمذي عن أم سلمة ، قالت : « علمنى ﷺ ، أن أقول عند أذان المغرب » وقال الترمذى حديث غريب .

سبحانه ، فى هذين الوقتين ، هاتين الصلاتين العظيمتين ، مع مافى ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين ، وعند انصرام إحداهما ، واتصال الأُخرى بها ، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف .

وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال ، ومن حكم إلى حكم ، وذلك مبدأٌ ومعادٌ يَوْمىٌّ ، مشهود للخليقة كل يوم وليلة .

فالحيوان والنبات فى مبدإٍ ومعاد ، وزمان العالم فى مبدإٍ ومعاد (٢٩ العنكبوت أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ١٩) .

(٢١) فصل

وقوله (٨٤ الإنشقاق : لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق ١٩) الظاهر أَنه جواب القسم .

ويجوز أَن يكون من القَسَمِ المحذوف جوابه ، و « لتركبن » وما بعده ، مستأْنف .

وقرىء (لتركبُنَّ) بضم الباءِ للجميع ، وبفتحها . فمن فتحها ، فالخطاب (عنده) للإنسان ، أَى (لتركبَن) أَيها الإِنسان .

وقيل : هو النبى صلى الله عليه وسلم خاصة .

وقيل : ليست التاءُ للخطاب ، ولكنها للغيبة ، أى لتركبن السماءُ طبقا عن طبق .

ومن ضمها ، فالخطاب للجماعة ليس إلا .

فمن جعل الكناية للسماءِ قال : المعنى لتركبن السماءُ حالا بعد حال من حالاتها التى وصفها الله تعالى ، من الانشقاق ، والانفطار والطَّىِّ ، وكونها كالمهل مرة ، وكالدِّهان مرة ، ومَوَرَانِهَا وتَفَتُّحها ، وغير ذلك من حالاتها ، وهذا قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . ودل على السماءِ ، ذكر الشفق والقمر . وعلى هذا ، فيكون قَسَمًا على المعاد ، وتغيير العالم .

ومن قال : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فله ثلاث معان :

لتركبن سماءً بعد سماءٍ ، حتى تنتهى إلى حيث يصعدك الله .

هذا قول ابن عباس ، فى رواية مجاهد ، وقول مسروق ، والشعبى .

قالوا : والسماء : طبق ، ولهذا يقال للسموات السبع : الطباق .

والمعنى الثانى : لتصعدن درجة بعد درجة ، ومنزلة بعد منزلة ، ورتبة بعد رتبة ، حتى تنتهى إلى محل القرب والزلفى من الله .

والمعنى الثالث : لتركبن حالا بعد حال من الأَحوال المختلفة ، التى نقل الله فيها رسوله صلى الله عليه وسلم ، من الهجرة ، والجهاد ، ونصره على عدوه ، وإدالة العدو عليه تارة ، وغناه وفقره ، وغير ذلك من حالاته ، التى تَنَقَّل فيها ، إلى أَن بلغ ما بلغه إياه .

ومن قال : الخطاب للإنسان أَولجملة الناس ، فالمعنى واحد ، وهو تَنقُّل الإنسان ، حالا بعد حال ، من حين كونه نطفة إلى مستقره ، من الجنة ، أَو النار ، فكم بين هذين من الأَطباق والأَحوال للإنسان ..

وأَقوال المفسرين كلها ، تدور على هذا .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لتصيرن الأُمور ، حالا بعد حال .

وقيل لتركبن ، أَيها الإنسان ، حالا بعد حال ، من النطفة ، إلى العلقة ، إلى المضغة ، إلى كونه حيا ، إلى خروجه إلى هذه الدار .

ثم ركوبه ، طِبْقَ التمييز بين ما ينفعه ويضره ، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر ، وهو طبق البلوغ ، ثم ركوبه ، طبق الأشد ، ثم طبق الشيخوخة ، ثم طبق الهرم ، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت فى البرزخ ، وركوبه فى أثناءِ هذه الأحوال أطباقا عديدة ، لا يزال ينتقل فيها حالا بعد حال ، إلى دار القرار . فذلك آخر أطباقه ، التى يعلمها العباد ، ثم يفعل الله سبحانه ، بعد ذلك ، ما يشاءُ .

واختار أبو عبيدة ، قراءة الضم ، وقال : الْمَعْنِىُّ بالناس ، أشبه منه بالنبى صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه ذكر قبل الآية ، من يؤتى كتابه بيمينه ، ومن يؤتى كتابه بشماله ، ثم ذكر بعدها قوله (٨٤ الانشقاق : فَمَا لَهُمْ لايُؤْمِنُون ٢٠ ؟) فذكر كونهم طبقا بعد طبق .

قال الواحدى : وهذا قول أكثر المفسرين .

قالوا : لتركبن حالا بعد حال ، ومنزلا بعد منزل ، وأمراً بعد أمر .

قال سعيد بن جبير ، وابن زيد : لتكونُنَّ فى الآخرة بعد الأُولى ، ولتصيرُنَّ أغنياءَ بعد الفقر ، وفقراءَ بعد الْغِنَى .

وقال عطاءٌ : شدة بعد شدة .

وقال أبو عبيدة : لتركبن سُنَّةً من كان قبلكم ، فى التكذيب والاختلاف على الرسل .

وأنت إذا تأملت هذا الْمُقْسَمَ به ، والمقسَم عليه ، وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية ، وتغيير الله سبحانه للعالم ، وتصريفه له كيف أراد ، ونقله إياه من حال إلى حال .

وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له

ومحال أن يكون فاعله غير قادر ، ولا حيٍّ ، ولا مريد ، ولاحكيم ، ولاعليم .

وكلاهما فى الامتناع سواءٌ .

فالمقسم به وعليه ، من أعظم الأدلة على ربوبيته ، وتوحيده وصفات كماله ، وصدقه ، وصدق رسله . وعلى المعاد .

ولهذا عقب ذلك بقوله : (٨٤ الانشقاق : فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُون ٢٠) ، إنكارا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها ، أتم استلزام .

وأنكر عليهم عدم خضوعهم ، وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك ، بأفصح عبارة وأَبْيَنِها ، وأجزلها ، وأوجزها .

فالمعنى ، أشرف معنى ، والعبارة ، أشرف عبارة :

غاية الحق ، بغاية البيان والفصاحة .

(٨٤ الانشقاق بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ٢٢) ولايصدقون بالحق جحودا وعنادا (٨٤ الانشقاق وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣) بما يضمرون فى صدورهم ويكتمونه ، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه فيجازيهم عليه بعلمه وعدله (٨٤ الانشقاق إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون ٢٥) .

(٢٢) فصل

ومن ذلك قوله سبحانه (٨١ التكوير : فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨) .

أقسم سبحانه بالنجوم فى أحوالها الثلاثة من طلوعها . وجريانها ، وغروبها . هذا قول علىّ ، وابن عباس ، وعامة المفسرين . وهو الصواب .

و« الخنس » جمع « خانس » والْخَنْسُ : الانقباض والاختفاء ، ومنه سمى الشيطان « خَنَّاسا » ، لانقباضه

وانكماشه حين يذكر العبد ربه ومنه قول أَبي هريرة فانخنست (١) .

و« الكنس » ، جمع كانس ، وهو الداخل فى كناسه ، أَى : فى بيته .

ومنه تكنست المرأة إذا دخلت فى هودجها ، ومنه كنست الظباءُ ، إذا أَوَتْ إلى أَكناسها .

« و« الجواراى » جمع « جارية » ، كـ « غاشية » و«غواش»

قال على بن أَبي طالب رضى الله عنه : النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل .

وهذا قول مقاتل ، وعطاءٍ ، وقتادة وغيرهم .

قالوا : الكواكب تخنس بالنهار ، فتختفى ولاترى ، وتكنس فى وقت غروبها .

---

(١) روى أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ ، لقيه فى بعض طرق المدينة وهو جنب ، فانخنس منه ، فذهب فاغتسل . ثم جاء .

فقال له : « أين كنت يا أبا هريرة ؟ » .

فقال : كنب جنباً ، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة .

فقال « سبحان الله ، إن المؤمن لا ينجس » .

ومعنى « تخنس » — على هذا القول — تتأَخر عن البصر ، وتتوارى عنه بإِخفاءِ النهار (١) لها .

وفيه قول آخر ، وهو : أَن خنوسها : رجوعها ، وهى حركتها الشرقية ، فإِن لها حركتين ، حركةبفعلها ، وحركة بنفسها .

فخنوسها ، حركتها بنفسها راجعة .

وعلى هذا ، فهو قَسَمٌ بنوع من الكواكب ، وهى : السيارة ، وهذا قول الفراءِ .

وفيه قول ثالث ، وهو أَن خنوسها ، اختفاؤها وقت مغيبها ، فتغيب فى مواضعها ، التى تغيب فيها ، وهذا قول الزجاج .

ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاءِ ، وحال جريان ، وحال غروب — أَقسم سبحانه ، بها فى أَحوالها كلها .

ونبَّه بخنوسها على حال ظهورها ، لأَن الخنوس ، هو الاختفاءُ بعد الظهور .

---

(١) قوله (بإخفاء النهار) هكذا فى الأصول التى بين أيدينا . وهو خطأ ولعل الصواب أن يقال (بإخفاء النهار إياها) ، لأن (أخفى) ، يتعدى بنفسه فقط فيقال : (أخفاه) ولا يقال أخفى له .

ولا يقال لما لايزال مختفياً : أنه قد خنس .

فذكر سبحانه ، جريانها وغروبها صريحاً ، وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها ، بجريانها الذى مبدؤه الطلوع ، فالطلوع ، أول جريانها .

فتضمن القسم ، طلوعها ، وغروبها وجريانها ، واختفاءها وذلك من آياته ودلائل ربوبيته .

وليس قول من فسرها بالظباء ، وبقر الوحش ، بالظاهر لوجوه .

(أحدها) أن هذه الأحوال ، فى الكواكب السيارة ، أعظم آية وعبرة .

(الثانى) اشتراك أهل الأرض فى معرفته ، بالمشاهدة والعيان

(الثالث) أن البقر والظباء ، ليست لها حالة تختفى فيها عن العيان مطلقاً ، بل لا تزال ظاهرة فى الفلوات

(الرابع) إن الذين فسروا الآية بذلك ، قالوا : ليس خنوسها من الاختفاء .

قال الواحدى . هو من الخنس فى الأنف ، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة ، والبقر والظباءُ أنوفهن خنس ، والبقرة خنساءُ ، والظبى أخنس .

ومنه سميت الخنساءُ (١) لخنس أنفها .

ومعلوم أن هذا أمر خفيٌّ يحتاج إلى تأمل ، وأكثر الناس لايعرفونه .

وآيات الرب التى يقسم بها ، لاتكون إلا ظاهرة جلية ، يشترك فى معرفتها ، الخلائق .

وليس الخنس فى أنف البقرة والظباءِ ، بأعظم من الاستواءِ والاعتدال ، فى أنف ابن آدم ، فالآية فيه أظهر

(الخامس) أن كنوسها فى أكنتها ، ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات ، فى بيته الذى يأوى فيه ، ولا أظهر منه ، حتى يتعين للقسم .

(السادس) أنه لو كان جمعاً للظَّبى لقال الخُنْسُ بالتسكين – لأنه جمع أخنس ، فهو كأحمر وحُمْر .

ولو أُريد به جمع بقرة خنساءُ ، لكان على وزن فعلاءَ أيضاً ، كحمراءَ وحمر .

فلما جاءَ جمعه على فُعَّل – بالتشديد – استحال أن يكون جمعا لواحد من الظباءِ والبقر : وتعين أن يكون

---

(١) هى : تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الصحابية رضى الله عنها .

جمعا لخانس . كشاهد وشُهَّد ، وصائم وصُوَّم ، وقائم وقُوَّم ، ونظائره .

(السابع) أنه ليس بالبيِّن إقسَام الرب تعالى بالبقر والغزلان ، وليس هذا عُرْفَ القرآن ولاعادته .

وإنما يقسم سبحانه ، من كل جنس بأعلاه ، كما أنه لما أَقسم بالنفوس ، أَقسم بأَعلاها ، وهى النفس الإنسانية .

ولما أَقسم بكلامه ، أَقسم بأَشرفه وأَجله ، وهو القرآن .

ولما أَقسم بالعلويات ، أَقسم بأَشرفها وهى السماءُ ، وشمسها وقمرها ، ونحومها .

ولما أَقسم بالزمان ، أَقسم بأَشرفه ، وهو الليالى العشر .

وإذا أَراد سبحانه أَن يقسم بغير ذلك ، أَدرجه فى العموم ، كقوله (٦٩الحاقة : فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ٣٨ وَمَالَا تُبْصِرُونَ ٣٩) وقوله (الذَّكَر والأُنثى) فى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك .

(الثامن) أن اقتران القسم بالليل والصبح ، يدل على أنها النجوم .

وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان ، والليل والصبح ، فى قسم واحد .

وبهذا احتج أَبو إسحاق على أَنها النجوم . فقال : هذا أَليق بذكر النجوم منه ، بذكر الوحش .

(التاسع) أَنه لو أَراد ذلك سبحانه لَبَيَّنَه ، وذكر مايدل عليه ، كما أَنه لما أَراد بالجوارى : السفن قال (٤٢ الشورى : وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ ٣٢) وهنا ليس فى اللفظ ولا فى السياق ، مايدل على أَنها البقر والظباءُ .

وفيه مايدل على أَنها النجوم ، من الوجوه التى ذكرناها وغيرها .

(العاشر) أَن الارتباط الذى بين النجوم ، التى هى هداية للسالكين ، ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه — وهو القرآن ، الذى هو هدى للعالمين ، وزينة للقلوب ، وداحض لشبهات الشيطان — أَعظم من الارتباط الذى بين البقر والظباءِ والقرآن . والله أَعلم .

(٢٣) فصل

واختلف فى عسعسة الليل ، هل هى إقباله ، أَمْ إدباره ؟

فالأكثرون ، على أَن عسعس ، بمعنى ، ولَّى وذهب ، وأَدبر . هذا قول علىّ ، وابن عباس ، وأَصحابه .

قال الحسن : أَقبل بظلامه ، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد .

فمن رجح الإقبال قال : أَقسم الله سبحانه وتعالى ، بإقبال الليل ، وإقبال النهار .

فقوله (والصُّبْح إذا تَنَفَّس) مقابل لليل إذا عسعس

قالوا : ولهذا أَقسم الله : بـ(اللَّيْل إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَار إِذَا تَجَلَّى) وبالضحى .

قالوا فغشيان الليل نظير عسعسته ، وتجلى النهار ، تنفس الصبح ، إذ هو مبدؤه وأَوله .

ومن رجح أَنه إدباره احتج بقوله تعالى (٧٤ المدثر كَلَّا وَالْقَمَر٣٢ واللَّيْل إِذْ ادْبَرَ ٣٣ والصُّبح إِذَا أَسْفَرَ ٣٤) فأَقسم بإدبار الليل ، وإسفار الصبح .

وذلك نظير عسعسة الليل ، وتنفس الصبح .

قالوا : والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل ، وإقبال النهار . فإنه عقيبه من غير فصل . فهذا أعظم فى الدلالة والعبرة .

بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار ، فإنه لم يعرف القسم فى القرآن بهما ، ولأن بينهما زمنا طويلا .

فالآية فى انصرام هذا ومجىء الآخر عقيبه بغير فصل ، أبلغ .

فذكر سبحانه حالة ضعف هذا ، وإدباره ، وحالة قوة هذا ، وتنفسه .

وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكلما تنفس ، هرب الليل ، وأدبر بين يديه . وهذا هو القول ، والله أعلم .

(٢٤) فصل

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو القرآن ، وأخبر أنه قول رسول كريم ، وهو ههنا ، جبريل قطعا .لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به .

وأما الرسول الكريم فى « الحاقة » فهو محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله . فقال (٦٩ الحاقة : وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ٤٢) فأضافه إلى الرسول الملكى تارة ، وإلى البشرى تارة ، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده ، وإلا تناقضت النسبتان . ولفظ الرسول يدل على ذلك . فإن الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله . وهذا صريح فى أنه كلام من أرسل جبريل ومحمداً صلى الله عليه وسلم ، وأن كلا منهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغا ، وقول الله الذى تكلم به حقا . فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلما بالقرآن وهو كلامه حقا فى هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى ، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله ومحمد صلى وسلم ، سمعه من جبريل .

ووصف رسوله المَلَكى فى هذه السورة ، بأنه كريم ، قويٌّ ، مكينٌ عند الرب تعالى ، مطاع فى السموات ، أمين .

فهذه خمس صفات ، تتضمن تزكية سند القرآن ، القرآن ، وأنه سماع محمد من جبريل ، وسماع جبريل من رب العالمين .

فناهيك بهذا السند ، علوا وجلالة : قول الله سبحانه بنفسه تزكيته .

الصفة الأُولى كون الرسول الذى جاءَ به إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريما ، ليس كما يقول أَعداؤه : إن الذى جاءَ به شيطان ، فإن الشيطان خبيث مخبث ، لئيم ، قبيح المنظر ، عديم الخير ، باطنه أَقبح من ظاهره ، وظاهره أَشنع من باطنه ، وليس فيه ولا عنده خير فهو أَبعد شىءٍ عن الكرم .

والرسول الذى أَلقى القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، كريم ، جميل المنظر ، بهىّ الصورة ، كثير الخير ، طيب مطيب ، معلم الطيبين .

وكل خير فى الأَرض من هدى وعلم ، ومعرفة ، وإيمان ، وبر ، فهو مما أَجراه ربه على يده ، وهذا غاية الكرم الصورى والمعنوى .

الوصف الثانى ، أَنه ذو قوة ، كما قال فى موضع آخر (٥٣ النجم : عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى ٥) وفى ذلك تنبيه على أُمور:

(أَحدها) أَنه بقوته ، يمنع الشياطين أَن تدنو منه ، وأَن ينالوا منه شيئا ، وأَن يزيدوا فيه أَو ينقصوا منه ، بل إِذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه .

(الثانى) أَنه مُوالٍ لهذا الرسول ، الذى كذبتموه ، ومعاضد له ، ومُوادٌّ له ، وناصر ، كما قال تعالى : (٦٦التحريم : وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ٤) .

ومن كان هذا القَوِىُّ ولِيَّه ، ومن أَنصاره ، وأَعوانه ، ومعلمه ، فهو المهْدِىُّ المنصور ، والله هاديه ، وناصره .

(الثالث) أَن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ، ووليه جبريل ، ومن عادى ذا القوة والشدة ، فهو عرضة للهلاك .

(الرابع) أَنه قادر على تنفيذ ما أَمر به لقوته ، فلا يعجز عن ذلك ، مُؤدٍّ له كما أُمر به لأَمانته ، فهو القوىّ الأَمين .

وأَحدكم إِذا انتدب غيره فى أَمر من الأُمور ، لرسالة أَو ولاية ، أَو وكالة ، أَو غيرها ، فإِنما ينتدب لها ، القوىَّ عليه ، الأَمين على فعله .

وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده ، انتدب له قويا أمينا ، معظّماً ، ذا مكانة عنده ، مطاعا فى الناس ، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات .

وهذا يدل على عظمة شأن المرسل ، والرسول ، والرسالة ، وَالْمُرْسَل إليه ، حيث انتدب له الكريم القوِىَّ ، المكين عنده ، المطاع فى الملإ الأعلى ، الأمين حق الأمين .

فإن الملوك ، لاترسل فى مهماتها إلا الأشراف ، ذوى الأقدار ، والرتب العالية .

وقوله (عِنْدِ ذِى الْعَرْشِ مَكِين) أى له مكانة ووجاهة عنده ، وهو أقرب الملائكة إليه .

وفى قوله (عند ذى العرش) إشارة ، إلى علو منزلة جبريل ، إذ كان قريبا من ذى العرش سبحانه .

وفى قوله (مُطَاعٍ ثَمَّ) إشارة إلى أن جنوده ،وأعوانه يطيعونه ، إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله ، محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الذى تكذبونه وتعادونه ، سيصير مطاعا فى الأرض ، كما أن جبريل مطاع فى السماء .

وأن كلا من الرسولين ، مطاع فى محله وقومه .

وفيه تعظيم له ، بأنه بمنزلة الملوك المطاعين فى قومهم ، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم ، إلا مثل هذا الملك المطاع .

وفى وصفه بالأمانة ، إشارة إلى حفظه ماحمله ، وأدائه له على وجهه .

ثم نزه رسوله البشرى وزكاه عما يقول فيه أعداؤه . فقال (٨١ التكوير : وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُون ٢٢) .

وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه ، وإن قالوا بألسنتهم خلافه ، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين .

ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم ، لجبريل وهذا يتضمن أنه مَلَكٌ موجود فى الخارج ، يرى بالعيان ، ويدركه البصر .

لا كما يقوله المتفلسفة ، ومن قلدهم : أنه العقل الفعال ، وأنه ليس مما يدرك بالبصر ، وحقيقته عندهم ، أنه خيال موجود فى الأذهان لا فى الأعيان .

وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم ، وخرجوا به عن جميع الملل .

ولهذا كان تقرير رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل ، أَهم من تقرير رؤيته لربه تعالى .

فإن رؤيته لجبريل ، هى أَصل الإيمان ، الذى لايتم إلا باعتقادها . ومن أَنكرها ، كفر قطعا .

وأَما رؤيته لربه تعالى ، فغايتها أَن تكون مسأَلة نزاع ، لايكفر جاحدها بالاتفاق . وقد صرح جماعة من الصحابة بأَنه لم يره وحكى عثمان بن سعيد الدارمى ، اتفاق الصحابة على ذلك (١) .

فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل ، أَحوج منا ، إلى تقرير رؤيته لربه تعالى . وإن كانت رؤية الرب ، أَعظم من رؤية جبريل ، ومن دونه . فإن النبوة لايتوقف ثبوتها عليها أَلبتة .

ثم نزه رسوليه كليهما — أَحدهما بطريق النطق ، والثانى بطريق اللزوم — عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان ، الذى هو الضِّنَّة والبخل ، والتبديل ، والتغيير الذى يوجب التهمة ، فقال :

---

(١) فى كتاب الرد على بشر المريسى الجهمى . وهو من أنفس ماكتب فى بيان عقيدة أهل السنة من السلف . وفى الرد على الجهمية وغيرهم من أهل العقائد الزائغة الضالة .

(٨١ التكوير : وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤) فإن الرسالة لايتم مقصودها إلا بأمرين : أَدائها من غير كتمان ، وأَدائها على وجهها من غير زيادة ولانقصان .

والقراءتان ، كالآيتين ، فتضمنت إحداهما - وهى قراءة الضاد - تنزيهه عن البخل . فإن « الضنين » هو البخيل ، يقال : ضَنِنْتُ به أَضَنُّ ، بوزن بخلت به أَبخل ومعناه ؛ ومنه قول جميل بن معمر :

أَجُودُ بِمضْنُونِ التِّلَادِ(١) وَإِنَّنِى
بِسِرِّكَ عَمَّنْ سَالَنِى لَضَنِينُ

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس بخيلا بما أنزل الله . وقال مجاهد : لايضن عليهم بما يعلم .

وأَجمع المفسرون على أَن الغيب ههنا ، القرآن والوحى .

وقال الفراءُ ، يقول تعالى : يأْتيه غيب السماءِ ، وهو منفوس فيه ، فلا يضن به عليكم .

(١) قال فى المصباح : التالد والتليد والتلاد : كل مال قديم . وخلافه الطارف والطريف اهـ يعنى المال المستحدث .

وفى « المختار من الصحاح » التالد والتلاد والإتلاد ، بالكسر فيهما . والتلاد بالفتح : المال القديم الأصلى الذى ولد عندك .

وهذا معنى حسن جدا ، فإن عادة النفوس ، الشح بالشيء النفيس ، ولاسيما عمن لايعرف قدره ، ويذمه ، ويذم من هو عنده .

ومع هذا ، فهذا الرسول ، لايبخل عليكم بالوحى ، الذى هو أَنفس شيءٍ وأَجله .

وقال أَبو على الفارسى : المعنى يأْتيه الغيب ، فيبينه ويخبر به ، ويظهره ، ولايكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ، ويخفيه حتى يأْخذ عليه حلوانا .

وفيه معنى آخر ، وهو أَنه على ثقة من الغيب ، الذى يخبر به ، فلا يخاف أَن ينتقض ، ويظهر الأَمر ، بخلاف ما أَخبر به ، كما يقع للكهان وغيرهم ، ممن يخبر بالغيب . فإن كذبهم أَضعاف صدقهم .

وإذا أَخبر أَحدهم بخبر ، لم يكن على ثقة منه ، بل هو خائف من ظهور كذبه .

فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم ، الذى هو أَعظم الغيب ، واثقا به ، مقيما عليه ، مبديا له فى كل مجمع ، ومعيدا ، مناديا به على صدقه ، مجلبا به على أَعدائه ، من أَعظم الأَدلة على صدقه .

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء ، فمعناه : المتَّهم يقال : ظننت زيدا بمعنى اتهمته .

وليس من الظن الذى هو الشعور والإدراك ، فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين ، ومنه ، ما أنشده أبو عبيدة :

أَمَا وَكِتَابِ اللهِ لَاعَنْ شَنَاءَة
هَجَرْتُ ، وَلٰكِنَّ الْمُحِبَّ ظَنِينُ

والمعنى : وما هذا الرسول على القرآن بمتهم ، بل هو أمين ، لايزيد فيه ولاينقص .

وهذا يدل على أن الضمير ، يرجع إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الْمَلَكِيّ بالأمانة .

ثم قال (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُون) ثم قال (وَمَا هُوَ) أى : وما صاحبكم ، بمتهم ولابخيل .

واختار أبو عبيدة قراءة الظاء ، لمعنيين :

أحدهما : أن الكفار لم يبخلوه . وإنما اتهموه ، فَنَفْى التهمة أولى من نَفْى البخل .

الثانى أنه قال (على الغيب) ولو كان المراد : البخل

لقال بالغيب ، لأنه يقال فلان ضنين بكذا ، وقلما يقال : على كذا .

قلت : ويرجحه ، أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكى ، من الأمانة .

فنفى عنه التهمة كما وصف جبريل ، بأنه أمين .

ويرجحه أيضاً ، أنه سبحانه نفى أقسام الكذب كلها ، عما جاء به من الغيب ، فإن ذلك لو كان كذبا ، فإما أن يكون منه ، أو ممن علمه .

وإن كان منه ، فإما أن يكون تعمده ، أو لم يتعمده .

فإن كان من معلمه ، فليس هو بشيطان رجيم ، وإن كان منه مع التعمد ، فهو المتهم ، ضد الأمين . وإن كان عن غير تعمد ، فهو المجنون .

فنفى سبحانه عن رسوله ذلك كله ، وزكّى سند القرآن أعظم تزكية .

فلهذا قال سبحانه (٨١ التكوير : وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ٢٥) ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه ، ولا

يحسن منه كما قال تعالى (٢٦ الشعراء : وَمَا تَنَزلت بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ٢١١) .

فنفى فعله وابتغاءه منهم ، وقدرتهم عليه .

وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين ، وأحوال الرسل ، يعلم علما ، لايمارى فيه ولايشك ، بل علما ضروريا ، كسائر الضروريات — منافاة أحدهما للآخر. ومضادته له. كمنافاة أحد الضدين لصاحبه ، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل ، أَبْيَنُ من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر .

ولهذا وبَّخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين ، بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين . فقال (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟) .

قال أبو إسحاق ، فأى طريق تسلكون ، أَبْيَنَ من هذه الطريقة التى بُيِّنَتْ لكم ؟

قلت : هذا من أحسن اللازم وأَبْيَنِهِ ، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له : إيش تقول خلاف هذا ؟ وأين تذهب خلاف هذا .

قال تعالى (٧٧ المرسلات : فَبِأَىِّ حَدِيث بَعْدَهُ يُؤْمِنُون ٥٠)

وقال (٤٥ الجاثية فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦ ؟

فالأمر منحصر فى الحق والباطل ، والهدى والضلال .
فإذا عدلتم عن الهدى والحق ، فأين العدول ، وأين المذهب ؟ .

ونظير هذا قوله (٤٧ محمد : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ٢٢) .

أى : إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد فى الأرض ،والشرك والمعاصى وقطيعة الرحم

ونظيره قوله تعالى (٥٠ ق : بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ ٥) لما تركوا الحق وعدلوا عنه ، مرج عليهم أمرهم والتبس ، فلا يدرون مايقولون وما يفعلون .

بل لايقولون شيئاً إلا كان باطلا ، ولايفعلون شيئا ، إلا كان ضائعا غير نافع لهم .

وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود .

ونظيره قوله تعالى (٢٨ القصص : فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ٥٠) .

وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز وجل

(١٠ يونس : فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟ ٣٢) .

(٢٥) فصل

ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين .

وفى موضع آخر ، تذكرة للمتقين .

وفى موضع آخر ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم ولقومه.

وفى موضع آخر ، ذكر مطلق . وفى موضع آخر ، ذكر مبارك .

وفى موضع آخر وصفه بأنه ، ذو الذكر .

ويجمع هذه المواضع ، تبين المراد من كونه ذكرا عاما وخاصا .

وكونه ذا ذكر ، فإنه يذكر العباد بمصالحهم ، فى معاشهم ومعادهم .

ويذكرهم بالمبدإ ، والمعاد ، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وحقوقه على عباده .

ويذكرهم بالخير ليقصدوه ، وبالشر ليجتنبوه .

ويذكرهم بنفوسهم ، وأحوالها وآفاتها ، وما تكمل به .

ويذكرهم بعدوهم ، وما يريدمنهم ، وبماذا يحترزون من كيده ، ومن أيِّ الأَبواب والطرق ، يأْتى إليهم .

ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه ، وأنهم مضطرون إليه ، لايستغنون عنه ، نَفَسًا واحدا .

ويذكرهم بنعمه عليهم ، ويدعوهم بها إلى نعم أُخرى ، أَكبر منها .

ويذكرهم بأْسه ، وشدة بطشه ، وانتقامه ممن عصى أمره ، وكذب رسله ، ويذكرهم بثوابه ، وعقابه

ولهذا يأْمر سبحانه عباده أَن يذكروا مافى كتابه ، كما قال : (٢ البقرة : خُذُوا مَاآتَيْنَاكُمْ بِقُوَّة وَاذْكُرُوا مَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ٦٣) وإذاكان كذلك فأَحق وأولىوأَول من كان ذاكرا له من أُنزل عليه ، ثم لقومه . ثم لجميع العالمين . وحيث خص به المتقين ، فلأَنهم الذين انتفعوا بذكره .

وأما وصفه بأَنه ذو الذكر ، فلأَنه مشتمل على الذكر ، فهو صاحب الذكر ، ومنه الذكر ، فهو ذكر ، وفيه الذكر .

كما أنه هدى ، وفيه الهدى ، وشفاءٌ ، وفيه الشفاءُ ، ورحمة ، وفيه الرحمة .

وقوله سبحانه (٨١ التكوير : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٨) بدل من العالمين . وهو بدل بعض من كل .

وهذا من أحسن مايستدل به ، على أن البدل ، فى قوة ذكر عاملين مقصودين .

فإن جهة كونه ذكرا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكراً لأهل الاستقامة ، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة ، وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع .

فكما أن البدل أخص من المبدل منه ، فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ فى المبدل منه . ولا بد من هذا ، فتأمله .

وقوله (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ) ردٌّ على الجبرية القائلين ، بأن العبد لامشيئة له .

أو أن مشيئته ، مجرد علامة على حصول الفعل ، لا ارتباط بينها وبينه ، إلا مجرد اقتران عادِيٍّ ، من غير أن يكون سببا فيه .

وقوله (٨١ التكوير : وَمَا تَشَاؤنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ٢٩)

ردٌّ على القدرية القائلين ، بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله .

بل متى شاء العبد الفعل وجد .

ويستحيل - عندهم - تعلق مشيئة الله بفعل العبد ، بل هو يفعله ، بدون مشيئة الله .

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين .

فإن قال الجبريُّ : هو سبحانه ، لم يقل : إن الفعل واقع بمشيئة العبد .

بل أخبر أن الاستقامة ، تحصل عند المشيئة ، ونحن قائلون بذلك .

وقال القدرى قوله (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) مختلفـة .

فمشيئة العبد ، هى الموجبة للفعل ، التى بها يقع .

ومشيئة الله لفعله ، هو أمره بذلك ونحن لاننكرذلك

فالجواب ، أن هذا من تحريف الطائفتين .

أما الجبرى ، فيقال له : اقتران الفعل عندك ، بمشيئة العبد ، بمنزلة اقترانه بكونه وشكله ، وسائر أغراضه ، التى لاتأثير لها فى الفعل .

فإن نسبة جميع أغراضه إلى الفعل ، فى عدم التأثير ، نسبة إرادية عندك ، والاقتران حاصل بجميع أغراضه ، فما الذى أوجب تخصيص المشيئة ؟ سوى الله سبحانه ، فى فطر الناس أوعقولهم ، أو شرائعهم بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل ، ونسبة سائر أغراض الحىّ ، إذا كان عندك ، ليس إلا مجرد الاقتران عادة ؟ والاقتران العادى حاصل مع الجميع .

وأما القدرى ، فتحريفه أشد ، لأنه حمل المشيئة على الأمر وقال :

المعنى وما تشاؤون ، إلا بأمر الله ، وهذا باطل قطعاً

فإن المشيئة فى القرآن لم تستعمل فى ذلك ، وإنما استعملت ، فى مشيئة التكوين كقوله (٦ الأنعام : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعلُوهُ ١١٢) وقوله (٢ البقرة : وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَااقْتَتَلُوا٢٥٣) وقوله (٣٢ السجدة : وَلَوْ شِئْنَا لَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ١٣) وقوله (١٣ الرعد : أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ٣١) ونظائر ذلك ، مما لايصح فيه حمل المشيئة على الأمر ألبتة .

والذى دلت عليه الآية ، مع سائر أدلة التوحيد ،

وأدلة العقل الصريح ، أن مشيئة العباد ، من جملة الكائنات ، التي لاتوجد ، إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، فما لم يشأ لم يكن ألبته ، كما أن ما شاء كان ولابد

ولكن ههنا أمراً ، يجب التنبيه عليه .

وهو : أن مشيئة الله سبحانه ، تارة تتعلق بفعله ، وتارة ، تتعلق بفعل العبد .

فتعلقها بفعله ، وهو أن يشاء من نفسه ، إعانة عبده ، وتوفيقه ، وتهيئته للفعل .

فهذه المشيئة ، تستلزم فعل العبد ومشيئته .

ولا يكفى فى وقوع الفعل ، مشيئة الله لمشيئة عبده ، دون أن يشاء فعله .

فإنه سبحانه ، قد يشاءُ من عبده المشيئة وحدها ، فيشاءُ العبد الفعل ، ويريده ، ولايفعله ، لأنه لم يشأْ من نفسه ، إعانته عليه وتوفيقه له .

وقد دل على هذا قوله تعالى(٨١ التكوير وَمَاتَشَاؤُون إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العالَمِين) .

وقوله (٧٤ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ٥٦) .

وهاتان الآيتان ، متضمنتان إثبات الشرع والقدر ،

والأسباب والمسببات ، وفعل العبد ، واستناده إلى فعل الرب ، ولكل منهما عبودية مختص بها .

فعبودية الآية الأُولى ، الاجتهاد ، واستفراغ الوسع ، والاختيار ، والسعى .

وعبودية الثانية الاستعانة بالله ، والتوكل عليه ، واللجأُ إليه ، واستنزال التوفيق ، والعون منه ، والعلم بأَن العبد لايمكنه أَن يشاءَ ، ولايفعل حتى يجعله الله كذلك .

وقوله (رَبُّ الْعَالَمِينَ) ينتظم ذلك كله . ويتضمنه

فمن عطل أَحد الأَمرين ، فقد جحد كمال الربوبية وعطلها . وبالله التوفيق .

(٢٦) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٩النازعات : وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ٢ والسَّابِحَاتِ سَبْحًا ٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ٤ فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً ٥) فهذه خمسة أُمور . وهى صفات الملائكة .

فأَقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأَفعال ، إذ

ذلك من أعظم آياته ، وحذف مفعول النزع والنشط لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به ، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين ، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول. كقوله (٩٢ الليل : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى٦) ونظائره ، فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع .

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التى تنزع أرواح بنى آدم من أجسامهم ، وهم جماعة كقوله (٦ الأنعام : تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ٦١) وقوله (٤ النساء : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ٩٧) وأما قوله (٣٢ السجدة : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ١١) فإما أن يكون واحدا ، وله أعوان ، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله (٦٦ التحريم : وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ١٢) وقوله (١٦ النحل : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ١٨) .

والنزع هو : اجتذاب الشىء بقوة .

والإغراق فى النزع ، هو : أن يجتذبه إلى آخره .
ومنه ، إغراق النزع فى جذب القوة ، بأن يبلغ بها غاية

المد ، فيقال : أغرق فى النزع ، ثم صار مثلًا لكل من بالغ فى فعل ، حتى وصل إلى آخره .

و « الغرق » اسم مصدر ، أقيم مقامه ، كالعطاء والكلام ، أقيم مقام الإعطاء والتكلم .

واختلف الناس هل النازعات ، متعد أولازم ؟

فعل القول الذى حكيناه ، يكون متعديا ، وهذا قول عَلِىّ ، ومسروق ، ومقاتل ، وأبى صالح ، وعطية ، عن ابن عباس .

وقال ابن مسعود : هى ، أنفس الكفار ، وهو قول قتادة ، والسُّدِّىُّ ، وعطاء عن ابن عباس .

وعلى هذا ، فهو فعل لازم ، و« غرقا » على هذا معناه : نزعا شديدا ، أبلغ مايكون وأشده .

وفى هذا القول ضعف من وجوه .

(أحدها) أن عطف ما بعده عليه ، يدل على أنها الملائكة ، فهى السابحات والمدبرات ، والنازعات .

(الثانى) أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ، ليس بالبَيِّن ، ولا فى اللفظ مايدل عليه .

(الثالث) أن النزع ، مشترك بين نفوس بنى آدم ،

والإغراق لا يختص بالكافر .

وقال الحسن : النازعات هى النجوم ، تنزع من المشرق إلى المغرب .

و « غرقا » هو : غرو بها .

قال : تنزع من ههنا ، وتغرق ههنا . واختاره الأخفش وأبو عبيد .

وقال مجاهد : هى شدائد الموت وأهواله ، التى تنزع الأرواح نزعا شديدا .

وقال عطاءٌ ، وعكرمة : هى القِسىُّ .

و « النازعات » على هذا القول — بمعنى النسب ، أو ذوات النزع ، التى ينزع بها الرامى ، فهو النازع .

قلت : النازعات ، اسم فاعل من « نزع » ، ويقال : نزع كذا . إذا اجتذبه بقوة ، ونزع عنه ، إذا خلاه وتركه ، بعد ملابسته له ، ونزع إليه ، إذا ذهب إليه ومال إليـه .

وهذا ، إنما توصف به النفوس ، التى لها حركة إرادية ، للميل إلى الشىء أو الميل عنه .

وأحق ما صدق عليه هذا الوصف ، الملائكة ، لأن هذه القوة فيها ، أكمل ، وموضع الآية فيها ، أعظم .

فهى التى تغرق فى النزع ، إذا طلبت ما تنزعه ، أَو تنزع إليه .

والنفس الإِنسانية أَيضاً ، لها هذه القوة .

والنجوم أَيضاً تَنزع من أُفق إلى أُفق .

فالنزع حركة شديدة ، سواءٌ كانت من مَلَك ، أَو نفس إنسانية ، أَونجم .

والنفوس تنزع إلى أَوطانها ، وإلى مأْلفها ، وعند الموت ، تنزع إلى ربها .

والمنايا تنزع النفوس ، والقِسِىُّ تنزع بالسهام ، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان ، وتنزع ما وكلت بنزعه .

والخيل تنزع فى أَعنتها نزعاً تغرق فيه الأَعنة ، لطول أَعناقها .

فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التى هى آية من آيات الرب تعالى ، فإنه هو الذى خلقها ، وخلق محلها ، وخلق القوة والنفس ، التى بها تتحرك .

ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أَراد التمثيل .

وإن كانت الملائكة أَحق ، من تناوله هذا الوصف .

فأَقسم بطوائف الملائكة و أَصنافهم .

فهم النازعات ، التى تنزع الأَرواح من الأَجساد .

والناشطات ، التى تنشطها أى : تخرجها بسرعة وخفة من قولهم : نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ، وأنا أنشط بكذا أى: أخف له وأُسرع .

(وَالسَّابِحَاتِ) التى تسبح فى الهواءِ ، فى طريق ممرها إلى ما أُمرتْ به ، كما تسبح الطير فى الهواءِ .

(فالسابقات) التى تسبق وتسرع إلى ما أُمِرَتْ به ، لا تبطىءُ عنه ولاتتأَخر .

(فالمدبرات) أُمور العباد ، التى أَمرها ربها بتدبيرها وهذا أولى الأَقوال .

وقد روى عن ابن عباس : أَن (النازعات) الملائكة ، تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف .

(والناشطات) الملائكة ، التى تنشط أَرواح المؤمنين بيسر وسهولة .

واختار الفراءُ هذا القول ، فقال : هى الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها ، وتنزع نفس الكافر .

قال الواحدى : إنما اختار ذلك ، لما بين النشط والنزع ، من الفرق فى الشدة واللين .

فالنزع : الجذب بشدة ، والنشط : الجذب ، برفق ولين .

(والناشطات) هى النفوس التى تنشط : لما أُمِرَتْ به .

والملائكة أَحق الخلق بذلك .

ونفوس المؤمنين ، ناشطة لما أُمِرَتْ به .

وقيل (السابحات) هى : النجوم تسبح فى الفلك ، كما قال تعالى (٣٦ يٓس : وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٤٠) .

وقيل : هى : السفن ، تسبح فى الماءِ .

وقيل : هى : نفوس المؤمنين ، تسبح بعد المفارقة ، صاعدة إلى ربها .

قلت : والصحيح أَنها الملائكة ، والسياق ، يدل عليه .

وأَما السفن والنجوم ، فإِنما تسمى جارية وجوارى ، كما قال تعالى (٤٢ الشورى : وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٣٢) .

(٦٩ الحاقة : حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيةِ ١١) وقال

(٨١ التكوير : ١٦ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١)) ولم يسمها سابحات وإن أُطلق عليها فعل السباحة ، كقوله « وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ويدل عليه ذكره « السابقات) بعدها ، و « المدبرات) بالفاء .

وذكره الثلاثة الأُول ، بالواو ، لأَن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله ، فإنها نزعت ونشطت وسبحت ، فسبقت إلى ما أُمرت به ، فدبرته .

ولو كانت السابحات ، هى السفن ، أَو النجوم أَو النفوس الآدمية ، لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء . فتأَمله .

قال مسروق ، ومقاتل ، والكلبي : (فالسابقات سبقا) هى الملائكة .

قال مجاهدو أَبو روق : سبقت ابن آدم بالخير ، والعمل الصالح ، والإيمان والتصديق .

---

(١) الكنس التى تغيب حين غروبها . قال فى الجلالين هى النجوم الخمسة زحل والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ، تخنس — بضم النون — أى : ترجع فى مجراها وراءها ، بينما نرى النجم فى آخر البرج ، إذ كر راجعاً إلى أوله ، وتكنس — بكسر النون — تدخل فى كناسها . أى تغيب فى المواضع التى تغيب فيها .

قال مقاتل : تسبق بأَرواح المؤمنين إلى الجنة .

وقال الفراءُ ، والزجاج : هى الملائكة ، تسبق الشياطين بالوحى إلى الأَنبياءِ إذ كانت الشياطين تسترق السمع . وهذا القول خطأٌ ، لايخفى فساده .

إذ يقتضى الاشتراك بين الملائكة والشياطين ، فى إلقائهم الوحى ، وأَن الملائكة تسبقهم به إلى الأَنبياءِ .

وهذا ليس بصحيح . فإن الوحى الذى تأْتى به الملائكة إلى الأَنبياءِ ، لاتسترقه الشياطين ، وهم معزولون عن سماعه . وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماءِ الدنيا ، من أُمور الحوادث ، فالله سبحانه صان وحيه إلى الأَنبياءِ ، أَن تسترقَ الشياطين شيئا منه ، وعزلهم عن سمعه .

ولو أَن قائل هذا القول ، فسَّر « السابقات » بالملائكة ، التى تسبق الشياطين بالرجم بالشهب ، قبل إلقاءِ الكلمة التى استرقها ، لكان له وجه .

فإن الشيطان يَبْدُرُ مسرعا بإلقائه إلى وليه ، فتسبقه الملائكة فى نزوله ، بالشهب الثواقب ، فتهلكه ، وربما أَلقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له .

وفسرت (السابقات سبقا) بالأَنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته .

وأما (المدبرات أمرا) فأَجمعوا على أَنها الملائكة .

قال مقاتل : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت .

يدبرون أَمر الله تعالى فى الأَرض ، وهم (المقسمات أَمرا) .

قال عبد الرحمن بن سابط : جبريل مُوكَّل بالرياح وبالجنود ، وميكائيل ، موكل بالقطر والنبات ، وملك الموت ، موكل بقبض الأَنفس ، وإسرافيل ، ينزل بأَمر الله عليهم .

وقال ابن عباس : هم الملائكة ، وَكَّلَهم الله بأُمور عَرَّفهم العمل بها ، والوقوف عليها ، بعضهم لبنى آدم يحفظون ، ويكتبون ، وبعضهم وُكِّلُوا بالأَمطار والنبات ، والخسف والمسخ ، والرياح والسحاب ، انتهى .

وقد أَخبر أَن الله وكَّل بالرجم ملكا ، وللرؤيا ملك موكل بها ، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها ، وعمل آلاتها ، وأَوانيها ، وغراسها وفرشها . ونمارقها وأَرائكها .

وللنار ملائكة موكلة بعمل مافيها ، وإيقادها ، وغير ذلك .

فالدنيا وما فيها ، والجنة والنار ، والموت ، وأحكام البرزخ – قد وكَّل الله بذلك كله ، ملائكة يدبرون ما شاءَ الله من ذلك .

ولهذا كان الإيمان بالملائكة ، أَحد أَركان الإِيمان ، الذى لايتم الإِيمان إلا به .

وأما من قال : إنها النجوم ، فليس هذا من قول أَهل الإِسلام .

ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئا من الخلق ، بل هى مُدبَّرة ومُسخَّرَة .

كما قال الله تعالى (١٦ النحل : والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ والنجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ١٢) فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لأَمر العالم العلوى والسفلى .

قال الجرجانى : وذكر السابقات والمدبرات بالفاءِ ، وما قبلها بالواو ، لأَن ما قبلها أَقسام مستأْنفة ، وهذان القسمان ، منشآن عن الذى قبلهما .

كأَنه قال : فاللاتى سبحن فسبقن . كما نقول قام

فذهب ، أوجب الفاءُ ، أَن القيام كان سببا للذهاب .

ولو قلت : قام وذهب ، لم تجعل القيام سببا للذهـاب .

واعتَرض عليه الواحدى ، فقال : هذا غير مطرد فى هذه الآية ، لأَنه يبعد أَن يجعل السبق سببا للتدبير مع أَن السابقات ، ليست الملائكة فى قول المفسرين .

قلت : الملائكة داخلون فى السابقات قطعا .

وأَما اختصاص السابقات بالملائكة ، فهذا محتمل .

وأَما قوله : يبعد أَن يكون السبق سببا للتدبير ، فليس كما زعم ، بل السبق : المبادرة إِلى تنفيذ ما يؤمر به الملك ، فهو سبب للفعل ، الذى أُمر به ، وهو التدبير ، مع أَن الفاءَ دالة على التعقيب ، وأَن التدبير ، يتعقب السبق بلا تراخ . بخلاف الأَقسام الثلاثة . والله أَعلم .

وجواب القسم محذوف ، يدل عليه السياق ـ وهو البعث المستلزم لصدق الرسول ، وثبوت القرآن .

أَو أَنه من القسم ، الذى أُريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمقسم به ، دون أَن يراد به مقسما عليه بعينه .

وهذا القسم ، يتضمن الجواب المقسم عليه ، وإِن لم

يذكر لفظا ، ولعل هذا مراد من قال : إنه محذوف ، للعلم به . لكن هذا الوجه ، أَلطف مسلكا . فإن المقسم به ، إذا كان دالا على المقسم عليه مستلزما ، استغنى عن ذكره بذكره .

وهذا غير كونه محذوفا لدلالة ما بعده عليه فتأَمله .

ولعل هذا قول من قال : إنه إنما أَقسم برب هذه الأَشياء ، وحذف المضاف . فإن معناه صحيح لكن على غير الوجه الذى قدروه .

فإن إقسامه ، سبحانه بهذه الأَشياء ، لظهور دلالتها على ربوبيته ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وحكمته

فالإقسام بها فى الحقيقة ، إقسام بربوبيته ، وصفات كماله ، فتأَمله .

ثم قرر سبحانه ، بعد هذا القسم ، أَمر المعاد ، ونبوة موسى ، المستلزمة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذْ من المحال ، أَن يكون موسى نبيا ، ومحمد ليس نبيا ، مع أَن ما يثبت نبوة موسى ، فلمحمد نظيره ، أَو أَعظم منه .

وقرر سبحانه ، تكليمه لموسى ، بندائه له بنفسه .

فقال (٧٩النازعات : إِذْ نَادَاه رَبُّهُ ١٦) فأثبت المستلزم للكلام والتكليم .

وفى موضع آخر ، أَثبت النجاءَ والنداءَ . والنجاءُ ، نوع من التكليم .

ومحال ثبوت النوع ، بدون الجنس .

ثم أَمره أَن يخاطبه ، بأَلينَ خطاب ، فيقول له :

(٧٩النازعات :هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تزَكَّى ١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ؟ ١٩) فى هذا من لطف الخطاب ولينه ، وجوه :

(أَحدها » إِخراج الكلام ، مخرج العرض ، ولم يخرجه مخرج الأَمر والإلزام ، وهو أَلطف .

ونظيره ، قول إبراهيم لضيفه المكرمين (٥١ الذاريات ، أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧) ولم يقل « كلوا » .

(الثانى) قوله (إلى أَن تزكى) والتزكى النماءُ . والطهارة . والبركة والزيادة .

فعرض عليه أَمرا ، يقبله كل عاقل ، ولايرده إلا كل أَحمق جاهل .

(الثالث) قوله (تزكى) ولم يقل « أُزكيك » فأَضاف التزكية إلى نفسه .

وعلى هذا يخاطب الملوك .

(الرابع) قوله (وأهديك) أى : أكون دليلا لك . وهاديا بين يديك .

فنسب الهداية إليه والتزكى إلى المخاطب .

أى : أكون دليلا لك ، وهاديا ، فتتزكَّى أنت .

كما تقول للرجل : هل لك ، أن أَدلك على كنز ، تأخذ منه ما شئت ؟

وهذا أَحسن من قوله « أُعطيك » .

(الخامس) قوله (إلى ربك) فإن فى هذا ، مايوجب قبول ما دل عليه ، وهو أَنه يدعوه ويوصله إلى ربه ، فاطره ، وخالقه الذى أَوجده . ورباه بنعمه : جنينا . وصغيرا وكبيراً . وآتاه الملك .

وهو نوع ، من خطاب الاستعطاف والإلزام . كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده : أَلا تطيع سيدك ومولاك وما لكك ؟

وتقول للولد : أَلا تطيع أَباك الذى رباك .

(السادس) قوله (فتخشى) أى إذا اهتديت إليه ،

وعرفته ، خشيته . لأَن من عرف الله خافه . ومن لم يعرفه لم يخفه .

فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته . وعلى قدر المعرفة ، تكون الخشية .

(السابع) أَن فى قوله (هل لك) فائدة لطيفة . وهى أَن المعنى « هل لك فى ذلك حاجة أَو أَرب » ؟

ومعلوم أَن كل عاقل ، يبادر إلى قبول ذلك ، لأَن الداعى إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته ، لا إلى حاجة الداعى .

فكأَنه يقول : الحاجة لك ، وأَنت المتزكى ، وأَنا الدليل لك ، والمرشد لك إلى أَعظم مصالحك .

فقابل هذا بغاية الكفر والعناد . وادّعى أَنه رب العالمين .

هذا . وهو يعلم أَنه ، ليس بالذى خلق فسوى ، ولاقدر فهدى .

فكذب الخبر ، وعصى الأَمر ، ثم أَدبر يسعى بالخديعة والمكر .

فحشر جنوده فأَجابوه ، ثم نادى فيهم ، بأَنه ربهم الأَعلى ، واستخفهم فأَطاعوه ، .

فبطش به ، جبار السموات والأرض ، بطشه عزيز مقتدر ، وأخذه نكال الآخرة والأولى ، ليعتبر بذلك من يعتبر .

فاعتبر بذلك من خشى ربه من المؤمنين ، وحق القول على الكافرين .

ثم أقام سبحانه ، حجته على العالمين بخلق ماهو أشد منهم وأكبر ، وأعظم وأعلى وأرفع ، وهو خلق السماء وبناؤها ، ورفع سمكها وتسويتها ، وإظلام ليلها ، وإخراج ضحاها ، وخلق الأرض ومدها ، وبسطها ، وتهيئتها لما يراد منها .

وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم ، وأرسى الجبال ، فجعلها رواسى للأرض ، لئلا تميد بأهلها وأودعها من المنافع ، ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم .

فمن قدر على ذلك كله ، كيف يعجز عن إعادتكم خلقا جديدا ؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور فى أول السورة ، على المعاد والتوحيد ، وصدق الرسل ، كدلالة هذا الدليل المذكور .

وإذا كان هذا هو المقصود ، لم يكن محتاجا إلى جواب . والله أعلم .

(٢٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٧ : وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ٢ والنَّاشِرَاتِ نَشْراً ٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ٥ عُذْراً أَوْ نُذْراً ٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ٧) .

فسرت المرسلات بالملائكة ، وهو قول أبى هريرة ، وابن عباس ، فى رواية مقاتل وجماعة .

وفسرت بالرياح ، وهو قول ابن مسعود ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس ، وقول قتادة . .

وفسرت بالسحاب ، وهو قول الحسن .

وفسرت بالأنبياء ، وهو رواية عطاء عن ابن عباس .

قلت : الله سبحانه ، يرسل الملائكة ، ويرسل الأنبياء ، ويرسل الرياح ، ويرسل السحاب ، فيسوقه حيث يشاءُ ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاءُ ، فإرساله واقع على ذلك كله ، وهو نوعان :

إرسال دين ، يحبه ويرضاه ، كإرسال رسله وأنبيائه .

وإرسال كَوْن وهو نوعان : نوع يحبه ويرضاه ، كإرسال ملائكته ، فى تدبير أمر خلقه .

ونوع لا يحبه ، بل يسخطه ويبغضه ، كإرسال الشيطان على الكفار .

فالإرسال المُقْسَم به ههنا ، مقيد بالعُرْفِ .

فإما أن يكون ضد المنكر ، فهو إرسال رسله من الملائكة ، ولايدخل فى ذلك إرسال الرياح ، ولا الصواعق ولا الشياطين .

وأما إرسال الأنبياء ، فلو أُريد ، لقال : والمرسلين ، وليس بالفصيح ، تسمية الأنبياء مرسلات .

وتكلف الجماعات المرسلات ، خلاف المعهود من استعمال اللفظ .

فلم يطلق فى القرآن جمع ذلك ، إلا جمع تذكير لاجمع تأْنيث .

وأيضاً ، فاقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام ، لايناسب تفسيرها بالأنبياء .

وأيضاً فإن الرسل ، مُقْسَمٌ عليهم فى القرآن ،لا مُقْسَمٌ بهم كقوله (١٦ النحل : تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ٦٣) وقوله (٢ البقرة :وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٢٥٢) وقوله (٣٦ : يس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣)

وإن كان العرف من التابع ، كعرف الفرس ، وعرف الديك ، والناس إلى فلان ، عرف واحد ، أى : سابقون فى قصده والتوجه إليه ـ جاز أن تكون المرسلات الرياح ويؤيده عطف «العاصفات» عليه و« الناشرات » . وجاز أن تكون الملائكة . وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفا عليهما ، ويؤيده ، أن الرياح مُوَكَّل بها ملائكة تسوقها وتصرفها ، ويؤيد كونها الرياح عطف «العاصفات» عليها بفاء التعقيب والتسبب ، فكأنها أُرسلت ، فعصفت .

ومن جعل «المرسلات »الملائكة قال :هى تعصف فى مُضِيِّها مسرعة ، كما تعصف الرياح ، والأكثرون على أنها الرياح .

وفيها قول ثالث أنهاتعصف بروح الكافر ، يقال :عصف بالشيء : إذا أباده وأهلكه . قال الأعشى :

(تَعْصِفُ بالدَّارِعِ والْحَاسِرِ)

حكاه أبو إسحق :

وهو قول متكلف ، فإن المقسم به لابد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية .

وأما الأمور الغائبة ، التى يؤمن بها ، فإنما يقسم عليه وإنما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه ، لظهور شأنهما ، ولقيام الأدلة والأعلام الظاهرة ، الدالة على ثبوتهما .

وأما (النَّاشِرَاتِ نَشْرًا) فهو استئناف قَسَمٍ آخر ، ولهذا أتى به بالواو ، وما قبله معطوف على القسم الأول بالفــــاء .

قال ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة : هى الرياح تأتى بالمطر . ويدل على صحة قولهم قوله تعالى (٧ الأعراف : وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ٥٧) يعنى ، أنها تنشر السحاب نشراً ، وهو ضد الطَّىِّ .

وقال مقاتل : هى الملائكة ، تنشر كتب بنى آدم ، وصحائف أعمالهم . وقاله مسروق ، وعطاء ، عن ابن عباس

وقالت طائفة : هى الملائكة ، تنشر أجنحتها فى الجو ، عند صعودها ، ونزولها .

وقيل : تنشر أوامر الله فى الأرض والسماء .

وقيل : تنشر النفوس ، فتحييها بالإيمان .

وقال أبو صالح : هى الأمطار ، تنشر الأرض ، أى تحييها .

قلت : ويجوز أن تكون « الناشرات » لازما ، لامفعول له ، ولايكون المراد أنهن نَشَرْنَ كذا .

فإنه يقال : نشر الميت : حَيَ ، وأنشره الله : إذا أحياه .

فيكون المراد بها ، الأنفس التى حَيِيَتْ بالعرف ، الذى أرسلت به المرسلات ، أو الأشباح والأرواح ، والبقاع ، التى حييت بالرياح المرسلات .

فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات ، والوحى ، سبب لنشور الأرواح وحياتها .

لكن هنا أمراً ينبغى التفطن له ، وهو أنه سبحانه ، جعل الأقسام فى هذه السورة ، نوعين وفصل أحدهما من الآخر ، وجعل العاصفات ، معطوفا على المرسلات ، بفاء التعقيب ، فصارا ، كأنهما نوع واحد .

ثم جعل الناشرات ، كأنه قسم مبتدأ ، فأتى فيه بالواو ، ثم عطف عليه « الفارقات » و« الملقيات » بالفاء .

فأوهم هذا ، أن«الفارقات»،و «الملقيات » ، مرتبط بـ « الناشرات » ، وأن العاصفات ، مرتبط بـ « المرسلات » .

وقد اختلف فى « الفارقات » والأكثرون على أنها الملائكة . ويدل عليه ، عطف « الملقيات ذكرا »عليها ، بالفاء ، وهى : الملائكة بالاتفاق .

وعلى هذا ، فيكون القسم بالملائكة ، التى تنشر أجنحتها عند النزول ، ففرقت بين الحق والباطل ، فألقت الذكر على الرسل إعذاراً ، وإنذارا .

ومن جعل « الناشرات » الرياح جعل « الفارقات » ، صفة لها .

وقال : هى تفرق السحاب ههنا ، وههنا .

ولكن يأبى ذلك ، عطف « الملقيات » بالفاء عليها .

ومن قال : الفارقات ، أى : القرآن يفرق بين الحق والباطل ، فقوله يلتئم مع كون«الناشرات» ، الملائكة ، أكثر من التئامه إذا قيل : إنها الرياح .

ومن قال : هى جماعات الرسل .

فإن أراد : الرسل من الملائكة ، فظاهر .

وإن أراد : الرسل من البشر ، فقد تقدم بيان ضعف هذا القول .

ويظهر – والله أعلم بما أراد من كلامه – أن القسم فى هذه الآية ، وقع على النوعين : الرياح ، والملائكة .

ووجه المناسبة ، أن حياة الأرض والنبات ، وأبدان الحيوان ، بالرياح ، فإنها من روح الله ، وقد جعلها الله تعالى ، نشوراً .

وحياة القلوب والأرواح بالملائكة .

فبهذين النوعين ، يحصل نوعا الحياة .

ولهذا – والله أعلم – فصل أحد النوعين من الآخر بالواو ، وجعل ماهو تابع لكل نوع بعده ، بالفاء .

وتأمل كيف وقع القسم فى هذه السورة ، على المعاد ، والحياة الدائمة الباقية ، وحال السعداء ، والأشقياء فيها .

وقررها بالحياة الأولى فى قوله (٧٧ المرسلات : أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ٢٠) فذكر فيها المبدأ والمعاد ، وأخلص السورة لذلك ، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة . وهو الرياح ، والملائكة . فكان فى

القَسَم بذلك أَبْيَنُ دليل ، وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه ، وتضمنته السورة .

ولهذا كان المكذب بعد ذلك فى غاية الجحود والعناد والكفر ، فاستحق الويل بعد الويل ، فتضاعف عليه الويل ، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب .

فلا أحسن من هذا التكرار فى هذا الموضع ، ولا أعظم منه موقعا ، فإنه تكرر عشر مرات ، ولم يذكر إلا فى أثر دليل أو مدلول عليه ، عقيب ما يوجب التصديق ، وما يوجب التصديق به . فتأمله .

(٢٨) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٥ القيامة : لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ٢) وقد تقدم ذكر هذين القسمين ، ومناسبة الجمع بينهما فى الذكر ، وكون الجواب غير مذكور ، وأنه يجوز أن يكون مما حذف ، لدلالة السياق عليه ، والعلم به .

ويجوز أن يكون من القَسَم المقصود به ، التنبيه على دلالة المُقْسَم به ، وكونه آية ، ولم يقصد به مُقسماً عليه معينا . فكأنه يقول :

اذكر يوم القيامة ، والنفس اللوامة ، مقسما بها ، لكونها من آياتنا ، وأدلة ربوبيتنا .

ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية ، حسبانه ، وظنه أن الله لايجمع عظامه بعد ما فرقها البِلى .

ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه .

وعلى هذا ، فيكون سبحانه ، قد احتج على فعله ، لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه ، وأخبر عن فعله ، بأنه لايلزمهم من القدرة ، وقوع المقدور .

والمعنى : بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه .

ودل على هذا المعنى المحذوف قوله (بلى) فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفى .

فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليـه .

فدلت الآية ، على الفعل ، وذكرت القدرة ، لإبطال قو ل المكذبين .

وفى ذكر البنان (١) لطيفة أخرى ، وهى : أنها أطرافه ، وآخر مايتم به خلقه .

---

(١) أقول : قد جرب المستشرقون الذين تخصصوا بالدراسات الإسلامية، ولا سيما القرآن،أن بنان الرجل حينما يصيبه الكشط ، ثم يعافى،تعود

فمن قدر على جمع أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه ، مع دقتها وصغرها ولطافتها ، فهو على ما دون ذلك أقدر .

فالقوم ، لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام قيل : إنا نجمع ونُسوِّى أكثرها تفرقا ، وأدقها أجزاءً ، وآخر أطراف البدن ، وهى عظام الأنامل ، ومفاصلها .

وقالت طائفة : المعنى ، نحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ، ونجعلها مستوية شيئا واحدا ، كخف البعير ، وحافر الحمار ، لانفرق بينهما ، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئا ، مما يعمل بأصابعه المفرقة ، ذات المفاصل والأنامل ، من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتِّى لما يريد من الحوائج .

وهذا قول ابن عباس ، وكثير من المفسرين .

والمعنى على هذا القول : إنا فى الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه ، مجموعة دون تفرق ، فكيف لانقدر على جمعها ، بعد تفريقها ؟ !!

= تلك التلافيف والخطوط التى فى أنامل الأصابع كما كانت وقد جربوا البصمات قبل الكشط وبعد عودة المكشوط فوجدوا البصمة هى هى كما كانت سابقاً .

ولهذا فقد آمن الكثير منهم لما رأوا معجزة القرآن فى أخباره ، وقد تقدم العلم ، وبلغ الذروة فى التقدم .

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول ، و و الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التى فرقها . ولم يجمعها

والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها ، وهما وجهان حسنان ، وكل منهما له ترجيح من وجه .

فيرجح الأول ، أنه هو المقصود ، وهو الذى أنكره الكفار ، وهو إجراءٌ على نسق الكلام واطِّراده .

ولأن الكلام لم يُسَقْ لجمع العظام وتفريقها فى الدنيا ، وإنما سيق لجمعها فى الآخرة بعد تفرقها بالموت .

ويرجح القول الثانى – ولعله قول جمهور المفسرين ، حتى إن فيهم من لم يذكر غيره – وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة ، وهى تفريق البنان ، مع انتظامها فى كف واحد . وارتباط بعضها ببعض فهى متفرقة فى عضو واحد ، يقبض منها واحدة ويبسط أُخرى ، ويحرك واحدة ، والأُخرى ساكنة ، ويعمل بواحدة ، والأخرى معطلة ، وكلها فى كف واحد ، قد جمعها ساعد واحد .

فلو شاء سبحانه ، لسواها ، فجعلها صفة واحدة ؛

كباطن الكف ، ففاتته هذه المنافع والمصالح ، التى حصلت بتفريقها .

ففى هذا ، أعظم الأدلة على قدرته سبحانه ، على جمع عظامه بعد الموت .

ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور ، وأنه لايرعوى ولايخاف يوما ، يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا ، بل هو مريد للفجور ما عاش ، فيفجر فى الحال ، ويريد الفجور فى غد وما بعده .

وهذا ضد الذى يخاف الله ، والدار الآخرة ، فهذا لايندم على ما مضى منه ، ولايقلع فى الحال ، ولايعزم فى المستقبل على الترك .

بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضد التائب المنيب .

ثم نبه سبحانه ، على الحامل له على ذلك ، وهو استبعاده ليوم القيامة .

وليس هذا استبعاداً لزمنه مع إقراره بوقوعه ، بل هو استبعاد لوقوعه ، كما حكى عنه فى موضع آخر قوله

(٥٠ ق : ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ٣) أى : بعيد وقوعه ، وليس المراد أنه واقع ، بعيد زمنه .

هذا قول جماعة من المفسرين ، منهم ابن عباس وأصحابه .

قال ابن عباس : يقدم الذنب ، ويؤخر التوبة .

وقال قتادة ، وعكرمة : قدما قدما فى معاصى الله ، لاينزع عن فجوره .

وفى الآية قول آخر ، وهو : أن المعنى « بل يريد الإنسان ليكذب بما أمامه ، من البعث ويوم القيامة .

وهذا قول ابن زيد ، واختيار ابن قتيبة ، وأبى إسحق

قال هؤلاءِ : ودليل ذلك قوله (٧٥ القيامة : يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ٦) ويرجح هذا القول لفظة (بل) فإنها تعطى أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة ، مع هذا البيان والحجة ، بل هو مريد للتكذيب به .

ويرجحه أيضاً ، أن السياق كله ، فى ذم المكذب بيوم القيامة ، لا فى ذم العاصى والفاجر .

وأيضاً فإن ما قبل الآية ومابعدها ، يدل على المراد

فإنه قال (٧٥ القيامة أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ٣ بَلَى قَادِرِين عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ ٤) .

فأنكر سبحانه ، عليه حسبانه أَن الله لايجمع عظامه . ثم قرر قدرته على ذلك .

ثم أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة .

فالأَول ، حسبان منه ، أَن لايحييه بعد موته

والثانى ، تكذيب منه بيوم البعث ، وأَنه يريد أَن يكذب بما وضح ، وبان دليل وقوعه وثبوته ، فهو مريد للتكذيب به .

ثم أَخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال (٧٥ القيامة يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ٦) .

فالأَول ، إرادة التكذيب .

والثانى ، نطق بالتكذيب ، وتكلَّمٌ به . وهذا قول قَوِىٌّ ، كما ترى .

لكن ينبغى إفراغ هذه الأَلفاظ ، فى قوالب هذا المعنى

فإن لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور ، لاعلى التكذيب .

وحذف الموصول ، مع ماجره ، وإبقاءُ الصلة ، خلاف الأَصل .

فإن أَصحاب هذا القول ، قالوا : تقديره ليكفر بما أَمامه .

وهذا المعنى صحيح ، لكن دلالة هذا اللفظ عليه ، ليست بالبَيِّنَة .

فالجواب أَن الأَمر كذلك ، لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر ، لم يلزم إعطاءه حكمه ، من جميع الوجوه .

بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأْن وجزالتها ، أَن يذكر المتكلم فعلا ، ومايضمنه معنى فعل آخر ، ويجرى على المضمن أَحكامه لفظا ، وأَحكام الفعل الآخر معنى .

فيكون فى قوة ذكر الفعلين ، مع غاية الاختصار .
ومن تدبر هذا ، وجده كثيراً فى كلام الله تعالى .

فلفظ (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول ، فأُعطيت ما اقتضته لفظاً ، واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول ، فأُعطيته معنى . فهذا وجه هذا القول ، لفظا ومعنى . والله أَعلم .

ثم أخبر سبحانه ، عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم ، الذى كذب به ، فقال : (٧٥ القيامة : فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ١٠) فبرق بصره أى : يشخص بما يشاهده من العجائب ، التى كان يكذب بها .

وخسف القمر ، ذهب ضوؤه وانمحى .

وجمع الشمس والقمر ، ولم يجتمعا قبل ذلك ، بل يجمعهما الذى يجمع عظام الإنسان بعدما فرقها البِلَى ، ومزَّقهـا .

ويجمع للإنسان يومئذ ، جميع عمله الذى قدمه وأخره ، من خير أو شر .

ويجمع ذلك ، من جمع القرآن فى صدر رسوله .

ويجمع المؤمنين فى دار الكرامة ، فيكرم وجوههم بالنظر إليه .

ويجمع المكذبين فى دار الهـوان ، وهو قادر على ذلك كله .

كما جمع خلق الإنسان من نطفة من مَنِيٍّ يُمْنَى ثم

جعله علقة مجتمعة الأجزاء ، بعد ما كانت نطفة متفرقة فى جميع بدن الإنسان .

وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت ، ويجمع بين الساق والساق .

إما ساق الميت أوساق من يجهز بدنه من البشر ، ومن يجهز روحه من الملائكة .

أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة .

فكيف (أنكر) هذا الإنسان ، أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه ، وأن يجمع مع بنى جنسه ، ليوم الجمع ، وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه ، وعبوديته ، فلا يترك سُدًى ، مهملا ، معطلا ، لايؤمر ولاينهى ، ولايثاب ولايعاقب ، فلا يجمع عليه ذلك .

فما أجمع هذه السورة ، لمعان الجمع ، والضم .

وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة ، الذى يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين .

وبالنفس اللوامة ، التى اجتمع فيها همومها وغمومها ، وإراداتها ، واعتقاداتها .

وتضمنت ذكر المبدإ والمعاد ، والقيامة الصغرى

والكبرى ، وأحوال الناس فى المعاد ، وانقسام وجوههم إلى ناظرة منعمة ، وباسرة معذبة .

وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ، ينتقل من مكان إلى مكان . فتجمع من تفاريق البدن ، حتى تبلغ التراق ، ويقول الحاضرون (مَنْ رَاق ؟) أى : من يرقى من هذه العلة ، التى أعيت على الحاضرين ، أى : التمسوا له من يرقيه . والرقية آخر الطب .

وقيل : من يرقى بها ، ويصعد ؟ أملائكة الرحمة ، أم ملائكة العذاب ؟

فعلى الأول ، تكون من رَقَى يَرْقِى ، كرمى يرمى .

وعلى الثانى من رَقِىَ يَرْقَى كَشَقِىَ يشقَى . ومصدره « الرَّقاءُ » ومصدر الأول الرُّقْيَة .

والقول الأول ، أظهر لوجوه .

(أحدها) أنه ليس كل ميت يقول حاضروه . من يرقى بروحه وهذا إنما يقوله من يؤمن برقى الملائكة ، بروح الميت ، وأنهم ملائكة رحمة ، وملائكة عذاب .

بخلاف التماس الرقية ، وهى الدعاءُ ، فإنه قَلَّ مايخلو منه المحتضر .

(الثانى) أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها، وحينئذ يقال: من يَرْقَى بها.

وأما قبل المفارقة، فطلب الرقية للمريض من الحاضرين، أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله.

(الثالث) أن فاعل الرقية، يمكن العلم به، فيحسن السؤال عنه، ويفيد السامع.

وأما الراقى إلى الله، فلا يمكن العلم بتعيينه، حتى يسأل عنه.

و (مَنْ) إنما يَسْأَل بها عن تعيين مايمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه.

(الرابع) أن مثل هذا السؤال، إنما يراد به تحضيض وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعدُ، من نحو قوله (٢ البقرة: مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ٢٤٥) أو يراد به إنكار فعل مايذكر بعدها كقوله (٢ البقرة: مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ٢٥٥).

وفعل الراقى إلى الله، لايحسن فيه واحد من الأمرين هنا.

بخلاف فاعل الرقية، فإنه يحسن فيه الأول.

(الخامس) أن هـذا ، خرج على عادة العرب وغيرهم ، فى طلب الرقية ، لمن وصل إلى مثل تلك الحال ، فحكى الله سبحانه ، ما جرت عادتهم بقوله

وحذف فاعل القول ، لأنه ليس الغرض متعلقا بالقائل ، بل بالقول .

ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يَرْقَى بروحه ؟

فكان حمل الكلام على ما أُلف ، وجرت العادة بقوله ، أولى ، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ،ويسمعونه

(السادس) أنه لو أُريد هذا المعنى ، لكان وجه الكلام أن يقال « من هو الراقى » ، ومن الراقى ؟ ولا وجه للكلام غير ذلك .

كما يقال : من هو القائل منكما كذا وكذا ؟ .

وفى الحديث « من القائل كلمة كذا (١) .

---

(١) روى البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى واللفظ له — عن رفاعة ابن رافع قال : صليت خلف النبى ﷺ فعطست ، فقلت : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى .

فلما صلى النبى ﷺ ، قال : « من المتكلم فى الصلاة ؟ » . فلم يتكلم أحد .

=

(السابع) إن كلمة «من» إنما يسأَل بها عن التعيين كما يقول : من الذى فعل كذا ؟ ومن ذا الذى قاله ؟ فيعلم أَن فاعلا وقائلا فعل وقال ، ولايعلم تعيينه .

فَيُسْأَل عن تعيينه بـ « مَنْ » تارة وبـ « أَىّ » تارة .

وهم لم يُسْأَلوا عن تعيين الملك الراقى بالروح إلى الله .

فإن قيل : بل علموا أَن ملك الرحمة والعذاب ، صاعد بروحه ، ولم يعلموا تعيينه ، فَيُسْأَل عن تعيين أَحدهما .

قيل : هم يعلمون أَن تعيينه غير ممكن ، فكيف يسأَلون عن تعيين مالاسبيل للسامع إلى تعيينه . ولا إلى العلم به ؟

(الثامن) أَن الآية ، إنما سيقت لبيان يأْسه من نفسه ، ويأْس الحاضرين معه ، وتحقق أَسباب الموت ، وأَنه قد حضر ، ولم يبق شىءٌ ينجع فيه ، ولامخلص منه ، بل هو قد ظن أَنه مفارق لامحالة .

= ثم قالها الثانية ، فلم يتكلم أحد .

ثم قالها الثالثة : فقال رفاعة : أنا يا رسول الله .

فقال : « والذى نفسى بيده لقد ابتدرها بضع وثلاثون ملكاً ، أيهم يصعد بها » .

فالحاضرون ، قد علموا أَنه لم يبق لأَسباب الحياة المعتادة تأْثير فى بقائه .

فطلبوا أَسبابا خارجة عن المقدور ، تستجلب بالرُّقَى والدعوات ، فقالو « مَنْ رَاقٍ ؟ أَى : من يرقِى هذا العليل ، من أَسباب الهلاك ؟ والرقية ، عندهم ، كانت مستعملة ، حيث لايُجْدِى الدواءُ .

(التاسع) أَن مثل هذا ، إنما يراد به النفى والاستبعاد وهو أَحد التقديرين فى الآية .

أَى : لا أَحد يَرْقى من هذه العلة ، بعد ما وصل صاحبها إلى هذه الحال .

فهو استبعاد لِنَفى الرقية ، **لاطلب** لوجود الراقى ، كقوله (٣٦يس : قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨) أَى : لا أَحد يحييها ، وقد صارت إلى هذه الحال .

فإِن أُريد بها ، هذا المعنى ، استحال أَن يكون من الرُّقَى .

وإِن أُريد بها الطلب ، استحال أَيضاً ، أَن يكون منه .

وقد بيَّنَّا أَنها فى مثل هذا ، إنما تستعمل للطلب ، أَو للإِنكار .

وحينئذ فنقول فى الوجه العاشر : إِنها إِما أَن يراد بها الطلب أَو الاستبعاد .

والطلب إما أَن يراد به طلب الفعل ، أَو طلب التعيين .

ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعانى على الرقى ، لما بيناه . والله أَعلم .

(٢٩) فصل

ومن أَسرار هذه السورة ، أَنه سبحانه جمع فيها لأَوليائه ، بين جمال الظاهر والباطن .

فزيَّن وجوههم بالنضرة ، وبواطنهم بالنظر إليه .

فلا أَجمل لبواطنهم . ولا أَنعم ، ولا أَحلى – من النظر إليه .

ولا أَجمل لظواهرهم ، من نضرة الوجه ، وهى : إشراقه ، وتحسينه ، وبهجته .

وهذا كما قال فى موضع آخر (٧٦ الإنسان : وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ١١) .

ونظيره قوله (٧ الأَعراف يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ٢٦) فهذا جمال الظاهر وزينتهُ ثم قال (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) فهذا جمال الباطن .

ونظيره قوله (٣٧ الصافات : إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ٦) فهذا جمال ظاهرها .

ثم قال ٣٧ الصافات : وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ٧) فهذا جمال باطنها .

ونظيره ، قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوسف (١٢ يوسف : وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُن وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ٣٢)

فذكرها لهذا ، هو من تمام وصفها لمحاسنه ، وأنه فى غاية المحاسن ، ظاهرا وباطنا .

وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه ، قوله (٢٠ طه : إِنَّ لَكَ أَنْ لَاتَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ١١٩) .

فَقَابل بين الجوع والْعُرْىِ ، لأَن الجوع ، ذُلُّ الباطن ، والعُرْىَ ، ذُلُّ الظاهر .

وقابل بين الظمإ ، وهو حر الباطن ، والضَّحْىِ ، وهو حر الظاهر ، بالبروز للشمس .

وقريب من هذا قوله (٢ البقرة : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى١٩٧) فى ذكر الزاد الظاهر الحسى ، والزاد الباطن المعنوى .

فهذا زاد سفر الدنيا . وهذا زاد سفر الآخرة .

ويلم به قول هود (١١ هود : وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ٥٢) .

فالأول ، القوة الظاهرة المنفصلة عنهم .

والثانى ، الباطنة المتصلة بهم .

ويشبهه قوله (٨٦ الطارق : (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّة وَلَا نَاصِرٌ ١٠) .

فنفى عنهم الدافعين : الدافع من أنفسهم ، والدافع من خارج ، وهو الناصر .

(٣٠) فصل

ومن أسرارها ، أنها تضمنت إثبات قدرة الرب ، على ما علم أنه لايكون ، ولا يفعله .

وهذا ، على أحد القولين فى قوله (٧٥ القيامة : بَلَى

قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ٤) فأخبر أنه قادر عليه ، ولم يفعله ، ولم يرده . —

وأصرح من هذا قوله تعالى (٢٣ المؤمنون : وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءًا بِقَدَر فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ١٨) .

وهذا أيضاً على أحد القولين ، أى : تغور العيون فى الأرض ، فلايقدر على الماء .

قال ابن عباس : يريد أن سيغيض فيذهب .

فلا يكون من هذا الباب ، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله .

وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى (٦ الأنعام : قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ٦٥) .

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال — عند نزول هذه الآية — « أعوذ بوجهك (١) » .

---

(١) روى البخارى فى باب التفسير من « سورة الأنعام » عن جابر قال : لما نزلت هذه الآية (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ) قال رسول الله ﷺ « أعوذ بوجهك » .

ولكن قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، أَنه لابد أَن يقع فى أُمته خسف ، ولكن لايكون عاما ، وهذا عذاب من تحت الأَرجل .

وروى أَنه كان فى الأُمة قذف أَيضاً . وهذا عذاب من فوق .

فيكون هذا من باب الإِخبار بقدرته على ماسيفعله .

وإِن أُريد به القدرة على عذاب الاستئصال ، فهو من القدرة ، على مالايريده .

وقد صرح سبحانه ، بأَنه لو شاءَ ، لفعل ، مالم يفعله فى غير موضع من كتابه كقوله (١٠ يونس :

قال : (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : « أعوذ بوجهك » .

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قال رسول الله ﷺ . « هذا أهون – أو هذا أيسر » اهـ .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨ : ٢٠٣) وقد روى ابن مردويه من حديث ابن عباس،ما يفسر به حديث جابر.ولفظه عن النبى ﷺ.

« دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا ، فرفع عنهم اثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع الرجم من السماء ، والخسف من الأرض ؛ وأن لا يلبسهم شيعاً ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الخسف والرجم ؛ وأبى أن يرفع عنهم الآخرين » .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ منْ فِى الْأَرْضِ كُلُّهمْ جَمِيعًا٩٩) وقوله (٣٢ السجدة : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْس هُدَاهَا ١٣) ونظائره .

وهذا مما لاخفاءَ فيه بين أَهل السنة ، وبه تبين فساد قول من قال : إن القدرة لاتكون إلا مع الفعل لاقبله ، وأَن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة ، فنفى القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقا خطأٌ . والله أَعلم .

(٣١) فصل

ومن أَسرارها ، أَنها تضمنت التأَنِّى والتَّثبُّت فى تَلقِّى العلم .

وأَن لايحمل السامع ، شدة محبته وحرصه وطلبه ، على مبادرة المعلم ، بالأَخذ قبل فراغه من كلامه .

بل من آداب الرَّب ، التى أَدب بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، أَمْرُه بترك الاستعجال ، على تَلقِّى الوحى ، بل يصبر إلى أَن يفرغ جبريل من قراءَته ، ثم يقرأه بعد فراغه عليه .

فهكذا ينبغى لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضى كلامه ، ثم يعيده عليه . أو يسأل ، عما أشكل عليه منه ، ولايبادره قبل فراغه .

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى ، فى ثلاثة مواضع من كتابه ، هذا أحدها .

والثانى قوله (٢٠ طه وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ١١٣ فتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ١١٤)

والثالث قوله (٨٧ الأعلى : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ٧) .

فضمن لرسوله ، أن لاينسى ما أقرأه إياه . وهذا يتناول حال القراءة ، وما بعدها .

وقد ذم الله سبحانه ، فى هذه السورة ، من يؤثر العاجلة على الآجلة .

وهذا ، لاستعجاله بالتمتع بما يفنى ، وإيثاره على ما يبقى .

ورتب كل ذم ووعيد فى هذه السورة ، على هذا الاستعجال ، ومحبة العاجلة .

فإرادته أن يفجر أمامه ، هو من استعجاله وحب العاجلة ، وتكذيبه بيوم القيامة ، من فرط حب العاجلة ، وإيثاره لها ، واستعجاله بنصيبه ، وتمتعه به قبل أوانه .

ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال ، لتمتع به فى الآجلة ، أكمل ما يكون .

وكذلك تكذيبه وتَولِّيه ، وترك الصلاة ، هو من استعجاله ، ومحبته العاجلة .

والرب سبحانه ، وصف نفسه بضد ذلك ، فلم يعجل على عبده ، بل أَمهله ، إلى أَن بلغت الروح التراقى ، وأيقن بالموت ، وهو إلى هذه الحال ، مستمر على التكذيب والتولِّى .

والرب تعالى ، لايعاجله بل يمهله ، ويحدث له الذكر ، شيئا بعد شيء ، ويصرف له الآيات ، ويضرب له الأَمثال ، وينبهه على مبدئه : من كونه نطفة ، من مَنِيٍّ يُمْنَى ، ثم علقة ، ثم خَلْقًا سويًّا .

فلم يعجل عليه بالخلق ، وهلة واحدة ، ولا بالعقوبة إذ كذب خبره ، وعصى أَمره .

بل كان خلقه وأمره وجزاؤه ، بعد تمهيل ، وتدريج

وأناة ، ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله : (١٧ الإسراء : (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ١١) وقال (٢١ الأنبياء : (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَل سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَاتَسْتَعْجِلُونَ ٣٧) .

(٣٢) فصل

ومن أسرارها ، أن إثبات النبوة والمعاد ، يعلم بالعقـل .

وهذا أحد القولين ، لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب .

فإن الله سبحانه ، أنكر على من حسب ، أنه يترك سدى : فلا يؤمر ، ولاينهى ، ولايثاب ، ولا يعاقب

ولم ينف سبحانه ، ذلك ، بطريق الخبر المجرد ، بل نفاه نَفْى ما لايليق نسبته إليه ، ونَفْى منكر على من حكم به وظنه .

ثم استدل سبحانه على فساد ذلك ، وبين أن خلقه الإنسان فى هذه الأطوار ، وتنقله فيها ، طورا بعد طور ، حتى بلغ نهايته - يأبى أن يتركه سدى ، فإنه ينزه عن ذلك ، كما ينزه عن العبث ، والعيب ، والنقص .

وهذه طريقة القرآن فى غير موضع كما قال تعالى (٢٣ المؤمنون : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ ١١٦) .

فجعل كمال ملكه ، وكونه سبحانه الحق ، وكونه لا إله إلا هو ، وكونه رب العرش ، المستلزم لربوبيته ، لكل ما دونه - مبطلا لذلك الظن الباطل ، والحكم الكاذب .

وإنكار هذا الحسبان عليهم ، مثل إنكاره عليهم ، حسبانهم أنه لا يسمع سرهم ونجواهم ، وحسبان أنه لا يراهم ، ولا يقدر عليهم ، وحسبان أنه يسوى بين أوليائه وبين أعدائه ، فى محياهم ومماتهم .

وغير ذلك مما هو منزه عنه ، تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص .

وأن نسبة ذلك ، كنسبة ما يتعالى عنه ، مما لا يليق : من اتخاذ الولد ، والشريك ، ونحو ذلك ، مما ينكره سبحانه ، على من حسبه أشد الإنكار .

فدل على أن ذلك ، قبيح ممتنع نسبته إليه ، كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافى كماله المقدس .

ولو كان نفى تركه سدى ، إنما يعلم بالسمع المجرد ، لم يقل بعد ذلك (٧٥ القيامة : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً ٣٧) إلى آخره .

ومما يدل أن تعطيل أسمائه وصفاته ، ممتنع ، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها ، فإن ملكه الحق ، يستلزم أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه .

وكذلك يستلزم ، إرسال رسله ، وإنزال كتبه ، وبعث المعاد ، ليوم يجزى فيه المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

فمن أنكر ذلك ، فقد أنكر حقيقة ملكه ، ولم يثبت له الملك الحق .

ولذلك كان منكر ذلك ، كافرا بربه ، وإن زعم أنه يقر بصانع العالم ، فلم يؤمن بالملك الحق ، الموصوف بصفات الجلال ، والمستحق لنعوت الكمال .

كما أن المعطل لكلامه ، وعلوه على خلقه ، لم يؤمن به سبحانه .

فإنه آمن برب ، لايتكلم ، ولا يأمر ، ولاينهى ، ولا يصعد إليه قول ، ولاعمل ، ولاينزل من عنده ملك ، ولا أمر ، ولا نهى ، ولاترفع إليه الأيدى .

ومعلوم أن هذا الذى آمن به ، رب مقدر فى ذهنه ، ليس هو رب العالمين ، وإله المرسلين .

وكذلك إذا اعتبرت اسمه « الحى » وجدته مقتضيا لصفات كماله ، من علمه ، وسمعه وبصره ، وقدرته ، وإرادته ، ورحمته ، وفعله ما يشاءُ .

واسمه « القيوم » ، مقتض لتدبير أمر العالم العلوى والسُّفلى وقيامه بمصالحه . وحفظه له .

فمن أنكر صفات كماله ، لم يؤمن بأنه الحى القيوم ، وإن أقر بذلك ، ألحد فى أسمائه ، وعطل حقائقها ، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها ، وبالله التوفيق .

(٣٣) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٤ المدثر : (كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٢ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٥ نَذِيراً لِلْبَشَرِ ٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) .

أَقسم سبحانه ، بالقمر الذى هو آية الليل ، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه ، وبارئه . وحكمته وعلمه ، وعنايته بخلقه ـ ما هو معلوم بالمشاهدة .

وهو سبحانه ، أَقسم بالسماءِ وما فيها ، مما لانراه من الملائكة ، وما فيها ، مما نراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر : من الليل والنهار .

وكل ذلك ، آية من آياته ، ودلالة من دلائل ربوبيته

ومن تدبر أَمر هذين النيرين العظيمين ، وجدهما من أَعظم الآيات فى خلقهما ، وجرمهما ، ونورهما ، وحركتهما ، على نهج واحد ، لاينِيان ولايفتران دائبين ،

ولا يقع فى حركتهما اختلاف بالبطءِ ، والسرعة ، والرجوع ، والاستقامة ، والانخفاض ، والارتفاع .

ولايجرى أَحدهما فى فلك صاحبه ، ولايدخل عليه فى سلطانه ولاتدرك الشمس القمر ولايجىءُ الليل قبل انقضاءِ النهار .

بل لكلٍّ حركة مقدرة ، ونهج معينٌ لايشركه فيه الآخر .

كما أَن له تـأْثيراً ومنفعة ، لايشركه فيها الآخر .

وذلك مما يدل ، مَنْ له أَدنى عقل ، على أَنه بتسخير مسخر ، وأَمر آمر ، وتدبير مدبر ، بهرت حكمته العقول ، وأَحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفرق ماعلمه الناس من الحكم التى فى خلقهما ، مالاتصل إِليه عقولهم ، ولاتنتهى إِلى مباديها ، أَوهامهم .

فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما ، وكمال حكمته ، ولطف تدبيره ، وأَن نقول ماقاله ، أَولو الأَلباب قبلنا (٣ آل عمران : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ١٩١) .

ولو أَن العبد ، وصف له جرم أَسود مستدير عظيم الخلق ، يبدو فيه النور ، كخيط متسخن ، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره ، فيصير أَضوأَ شيءٍ وأَحسنه وأَجمله ، ثم يأْخذ فى النقصان ، حتى يعود إِلى حاله الأَول ، فيحصل بسبب ذلك ، معرفة الأَشهر والسنين ، وحساب آجال العالم : من مواقيت حجهم ، وصلاتهم ، ومواقيت أَجائرهم ، ومداييناتهم ، ومعاملاتهم ، التى لاتقوم مصالحهم إِلا بها ، فمصالح الدنيا والدين ، متعلقة بالأَهلة .

وقد ذكر سبحانه ، ذلك ، فى ثلاث آيات من كتابه : أَحدها قوله (٢ البقرة : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ١٨٩) .

والثانية قوله (١٠ يونس : (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءًا وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّل الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥) .

والثالثة قوله (١٧ الإِسراءِ : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْن فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ١٢) .

فلولا مايحدثه الله سبحانه ، فى آيات الليل ، من زيادة ضوئها ونقصانه ، لم يعلم ميقات الحج ، والصوم والعدد ، ومدة الرضاع ، ومدة الحمل ، ومدة الإِجارة ، ومدة آجال الحاملات .

فإِن قيل : كان يمكن هذا بحركة الشمس والأَيام ، التى تحفظ بطلوع الشمس وغروبها ، كما يعرف أَهل

الكتابين ، مواقيت صيامهم وأعيادهم ، بحساب الشمس

قيل : هذا ، وإن كان ممكناً ، إلا أنه يعسر ضبطه ، ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس .

ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور ، وأوساطها ، وأواخرها ، بالقمر ، أمر يشترك فيه الناس ، وهو أسهل من معرفة ذلك ، بحساب الشمس ، وأقل اضطرابا واختلافا ، ولايحتاج إلى تكلف حساب وتقليد من لايعرفه من الناس ، لمن يعرفه .

فالحكمة البالغة ، التى فى تقدير السنين والشهور ، بسير القمر ، أظهر ، وأنفع ، وأصلح ، وأقل اختلافا من تقديرها ، بسير الشمس .

فالرب جل جلاله ، دَبَّر الأَهلة بهذا التدبير العجيب ، لمنافع خلقه ، فى مصالح دينهم ودنياهم ، مع ما يتصل به ، من الاستدلال به على وحدانية الرب ، وكمال حكمته ؛ وعلمه وتدبيره .

فشهادة الحق ، بتغير الأَجرام الفلكية ، وقيام أَدلة الحدوث والخلق عليها .

فهى آيات ناطقة ، بلسان الحال على تكذيب الدهرية ، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين : بأنها أزلية أبدية ، لا يتطرق إليها التغيُّر ، ولايمكن عدمها .

فإذا تأمل البصير القمر مثلا ، وافتقاره إلى محلٍ يقوم به ، وسيره دائبا لايفتر ، مُسَيَّرٌ ، مُسَخَّرٌ ، مُدَبَّرٌ ، وهبوطه تارة ، وارتفاعه تارة ، وأُفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئا فشيئا ، ثم عَوْدُه إليه كذلك . وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف – علم قطعا ، أنه مخلوق مربوب مسخر ، تحت أمر خالق قاهر ، مُسَخِّرٍ له . كما يشاءُ .

وعلم أن الرب سبحانه ، لم يخلق هذا باطلا ، وأن هذه الحركة فيه ، لابد أن تنتهى إلى الانقطاع والسكون

وأن هذا الضوءَ والنور ، لابد أن ينتهى إلى ضده .

وأن هذا السلطان ، لابد أن ينتهى إلى العزل .

وسيجمع بينهما جامع المتفرقات ، بعد أن لم يكونا مجتمعين ، ويذهب بهما حيث شاءَ .

ويُرِىَ المشركين من عبدتهما ، حال آلهتهم التى عبدوها من دونه .

كما يُرى عُبَّاد الكواكب ، انتثارها ، وعُبَّـــادَ السماء ، انفطارها ، وعُبَاد الشمس تكويرها ، وعباد الأَصنام ، إهانتها وإلقاءها فى النار ، أَحقر شئ ، وأَذله ، وأَصغره .

كما أَرى عباد العجل فى الدنيا ، حاله ومباره وعباده ، تسحقه وتمحقه ، والريح تمزقه وتذروه ، وتنسفه فى اليم .

وكما أَرى الأَصنام فى الدنيا ، صورها مكسرة مخردلة ، ملقاة بالأَمكنة القذرة .

ومَعَاوِلُ الموحدين ، قد هشمت منها تلك الوجوه ، وكسرت تلك الرؤوس ، وقطعت تلك الأَيدى والأَرجلِ ، التى كانت لايوصل إليها بغير التقبيل والاستلام .

وهذه سنة الله التى لاتبدل ، وعادته ، التى لاتحول : أَنه يُرِى عابد غيره حال معبوده فى الدنيا والآخرة ، وإن كان المعبود غير راض بعبادة غيره ، ويُريه تَبَرِّيهِ منه ، ومعاداته له أَحوج ما يكون إليه (٨ الأنفال : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ٤٢) ويعلم الذين كفروا ، أَنهم كانوا كاذبين :

تَـأَمَّلْ سُطُورَ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَـا
مِنَ الْمَلِكِ الْأَعْلَى إِلَيْكَ رَسَائِلُ
وَقَدْ خُطَّ فِيهَا ـ لَوْ تَـأَمَّلْتَ خَطَّها ـ
أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِـلُ

ولو شاء تعالى ، لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير ، وجعل التغيير فى الشمس . ولو شاء لَغَيَّرَهُمَا معا ، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة .

ولكن يُرِى عباده آياته ، فى أنواع تصاريفها ، ليدلهم على أنه الله ، الذى لا إله إلا هو ، الملك الحق المبين ، الفعال لما يريد (٧ الأعراف : أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ٥٤) وأما تأثير القمر فى ترطيب أبدان الحيوان والنبات ، وفى المياه ، وجَزْرِ البحر ومَدِّه ، وبحرانات الأمراض . وتنقلها من حال إلى حال ، وغير ذلك من المنافع ، فأمر ظاهر .

(٣٤) فصل

وأما إقسامه سبحانه : (٧٤ المدثر : بـ(واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ٣٣) فَلِمَا فى إدباره ، وإقبال النهار مِنْ أَبْيَن الدلالات

الظاهرة ، على المبدإ والمعاد ، فإنه مبدأٌ ، ومعاد يَوْمِيٌّ ، مشهود بالعيان .

بينما الحيوان فى سكون الليل ، قد هدأت حركاتهم ، وسكنت أصواتهم ، ونامت عيونهم ، وصاروا إخوان الأموات ، إذ أقبل من النهار داعيه ، وأسمع الخلائق مناديه .

فانتشرت منهم الحركات ، وارتفعت منهم الأصوات حتى كأنهم قاموا أحياءً من القبور ، يقول قائلهم :

الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» (١)

فهو معاد جديد ، بدأه وأعاده الذى يبدئُ ويعيد .

فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار ، سوى الواحد القهار ؟

فمن تأمل حال الليل ، إذا عسعس وأدبر ، والصبح ، إذا تنفس وأسفر ، فهزم جيوش الظلام

---

(١) روى البخارى فى صحيحه فى «باب وضع اليد تحت الخد اليمنى» عن حذيفة قال : كان النبى ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ، ثم يقول « اللهم باسمك أموت وأحيا » .

وإذا استيقظ قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

بنفسه ، وأضاء أُفق العالم بقبسه ، وفلّ كتائب الكواكب بعساكره ، وأَضحك نواحى الأَرض بتباشيره ، وبشائره

فيالهما آيتان شاهدتان ، بوحدانية منشئهما ، وكمال ربوبيته ، وعظم قدرته وحكمته .

فتبارك الذى جعل طلوع الشمس وغروبها ، مقيما لسلطان الليل والنهار .

فلولا طلوعها ، لبطل أمر العالم كله .

فكيف كان الناس يسعون فى معاشهم ، ويتصرفون فى أُمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ؟

وكيف كانت تهنيهم الحياة ، مع فقد لذة النور وروحه ، وأَى ثمار ونبات ، وحيوان ، كان يوجد ؟

وكيف كانت تتم مصالح أَبدان الحيوان والنبات ؟

ولولا غروبها ، لم يكن للناس هُدوءٌ ، ولاقرار ، مع علم حاجتهم إِلى الهدوء ، لراحة أَبدانهم ، وجموم حواسهم .

فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ، ما هدأُوا ، ولا قَرُّوا ، ولاسكنوا .

بل جعله أحكم الحاكمين ، سكنا ولباسا ، كما جعل النهار ، ضياءً ومعاشا .

ولولا الليل وبرده ، لاحترقت أبدان النبات والحيوان ، من دوام شروق الشمس عليها وكان ، يحرق ما عليها ، من نبات وحيوان .

فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين ، أن جعلها سراجا يطلع على العالم ، فى وقت حاجتهم إليه ، ويغيب فى وقت استغنائهم عنه .

فطلوعه لمصلحتهم ، وغيبته لمصلحتهم .

وصار النور والظلمة على تضادهما ، متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه .

فلو جعل الله سبحانه النهار سرمدا إلى يوم القيامة ، والليل سرمدا إلى يوم القيامة ، لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده .

وتأمل حكمته سبحانه ، فى ارتفاع الشمس ، وانخفاضها ، لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة ، وما فى ذلك من مصالح الخلق .

فى الشتاء ، تغور الحرارة فى الشجر والنبات ،

فيتولد منها مواد الثمار ، ويكثف الهواءُ ، فينشأُ منه السحاب ، وينعقد ، فيحدث المطر الذى به حياة الأَرض ونماءُ أَبدان الحيوان والنبات ، وحصول الأَفعال والقوى ، وحركات الطبائع .

وفى الصيف ، يخرم الهواء ، فينضج الثمار ، وتشتد الحبوب ، ويجف وجه الأَرض ، فيتهيأُ العمل .

وفى الخريف ، يصفو الهواءُ ، وتبرد الحرارة ، ويمتد الليل ، وتستريح الأَرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين .

ففى هذه الأَزمنة ، مبدأٌ ومعاد مشهود ، وشاهد بالمبدإ ، والمعاد الغيبى .

والمقصود ، أَن بحركة هذين النيرين ، تتم مصالح العالم . وبذلك يظهر الزمان ، فإِن الزمان مقدار الحركة .

فالسنة الشمسية ، مقدار سير الشمس من نقطة الْحَمَل ، إلى مثلها .

والسنة القمرية ، مقدرة بسير القمر ، وهو أَقرب إلى الضبط . واشتراك الناس فى العلم به .

وقدر أحكم الحاكمين ، تنقلهما فى منازلهما ، لما فى ذلك من تمام الحكمة ، ولطف التدبير .

فإن الشمس ، لو كانت تطلع وتغرب فى موضع واحد لاتتعداه ، لما وصل ضوءُها وشعاعها إلى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك .

فجعل الله سبحانه ، طلوعها دُوَلًا بين الأَرض ، لينال نفعها وتأْثيرها البقاع ، فلا يبقى موضع من المواضع ، التى يمكن أن تطلع عليها ، إلا أَخذ بقسطه من نفعها

واقتضى هذا التدبير المحكم ،أَن وقع مقدار الليل والنهار ، على أَربعة وعشرين ساعة ، ويأْخذ كل منهما من صاحبه .

ومنتهى كل منهما ، إذا امتد خمسة عشر ساعة .

فلو زاد مقدار النهار على ذلك ، إلى خمسين ساعة مثلا أَو أَكثر ، لَاخْتَلَّ نظام العالم ، وفسد أَكثر الحيوان والنبات .

ولو نقص مقداره عن ذلك ، لاختل النظام أَيضاً ، وتعطلت المصالح .

ولو استويا دائما ، لما اختلفت فصول السنة ، التى باختلافها ، مصالح العباد والحيوان .

فكان فى هذا التقدير والتدبير المحكم ، من الآيات والمصالح ، والمنافع ، مايشهد بأن ذلك تقدير العزيزالعليم

ولهذا يذكر سبحانه ، هذا التقدير ، ويضيفه إلى عزته وعلمه ، كما قال تعالى (٣٦ يس : وآيةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ٣٧ والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزيز الْعَلِيم ٣٨) .

وقال تعالى (٤١ فصلت : قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْن وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِين ٩ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّام سَوآءً لِلسَّائِلِينَ ١٠ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم ١٢)

وقال تعالى (٦ الأنعام : فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم ٩٦)

فهذه ثلاثة مواضع ، يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر ، والأجرام العلوية ، وما ينشأ عنها ، كان من مقتضى عزته وعلمه ، وأنه قدره بهاتين الصفتين .

وفى هذا ، تكذيب لأعداء الله الملاحة الذين ينفون قدرته واختياره ، وعلمه بالمغيبات .

(٣٥) فصل

وأقسم سبحانه ، بهذه الأشياء الثلاثة - وهى القمر ، والليل إذْ أدبر ، والصبح إذا أسفر - على المعاد ، لما فى القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه .

فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته ، وعنايته بخلقه ، وإبداء الخلق ، وإعادته .

كما هو مشهود فى إبداء النهار والليل ، وإعادتهما ، وفى إبداء النور وإعادته فى القمر ، وفى إبداء الزمان . وإعادته ، الذى هو حاصل بسير الشمس والقمر .

وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما ، وإبداء فصول السنة ، وإعادتها .

وإبداء ما يحدث فى تلك الفصول ، وإعادته .

فكل ذلك دليل ظاهر على المبدإ والمعاد ، الذى أَخبرت به الرسل كلهم عنه .

فَصَرَّف سبحانه ، الآيات الدالة على صدق رسله ، ونَوَّعها ، وجعلها للفطر تارة ، وللسمع تارة ، وللمشاهدة تارة .

فجعلها آفاقية ، ونفسية ، ومنقولة ، ومعقولة ، ومشهودة بالعيان ، ومذكورة بالجنان . فأَبى الظالمون إلا كفورا .

(٢٥ الفرقان : واتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَايَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً ٣) .

ولما أَقام الحجة وبيَّن المحجةَ ، ارتهن كل نفس بكسبها ، وآخذها بذنبها .

واستثنى من أُولئك من قَبِلَ هداه ، واتبع رضاه ، وهم أَصحاب اليمين ، الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين . وسلكوا غير سبيل المجرمين ، الذين ليسوا من المصلين ، ولامن مطعمى المسكين ، وهم من أَهل الخوض مع الخائضين ، المكذبين بيوم الدين

فهذه أَربع صفات ، أَخرجتهم من زمرة المفلحين ، وأَدخلتهم فى جملة الهالكين :

(الأُولى) ، ترك الصلاة ، وهى عمود الإخلاص للمعبـود .

(الثانية) ترك إطعام المسكين ، الذى هو من مراتب الإحسان للعبيد .

فلا إخلاص للخلق ، ولا إحسان للمخلوق ، كما قال تعالى (١٠٧ الماعون : الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُون ٦ وَيَمْنَعُونَ الماعُونَ ٧) .

وقال (٩ التوبة : وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّاوَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ٥٤) .

وهذا ضد ماوصف به أَصحاب اليمين بقوله (٨ الأَنفال : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣)

وقال (٣٢ السجدة : تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ١٦) .

وقرن سبحانه ، بين هذين الأَصلين ، فى غير موضع فى كتابه .

فأَمر بهما تارة ، وأَثنى على فاعليهما تارة ، وتوَّعد

بالويل والعقاب تاركهما تارة ، فإن مدار النجاة عليهما ، ولا فلاح لمن أَخَلَّ بهما .

الصفة الثالثة والرابعة ، الخوض بالباطل ، والتكذيب بالحق .

فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق .

واجتمع لأَصحاب (اليمين) (١) الإخلاص ، والإحسان ، والتصديق بالحق ، والتكلم به .

فاستقام إخلاصهم ، وإحسانهم ، ويقينهم ، وكلامهم .

واستبدل أَصحاب الشمال بالإخلاص شِرْكًا ، وبالإحسان إساءة ، وباليقين ، شَكًّا وتكذيبا ، وبالكلام النافع خوضا فى الباطل .

فلذلك ، لم تنفعهم شفاعة الشافعين ، أَى : لم يكن لهم من شفيع فيهم ، لأَن الشفاعة ، تقع فيهم ولا تنفع .

---

(١) هذه زيادة لا بد منها لتصحيح المقابلة بين الفريقين وهى مأخوذة من الآيات التى يشرحها المؤلف ا هـ أبو رجاء .

وهذا لما أَعرضوا عن التذكرة ، ولم يرفعوا بها رأْسا ، وجفلوا عن سماعها ، كما تجفل حُمُرُ الوحش من الأَسْدِ ، أَو الرماة .

ثم ختم السورة ، بأَنه جمع فيها بين شرعه وقدره ، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم ، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية ، وأَن ذلك إليه لا إليهم .

فالأَول : عدله ، والثانى : فضله .

فالأَول : يوجب السَّعْىَ والطلب ، والحرص على ماينجيهم ، كما يفعلون ذلك فى مصالح دنياهم ، بل أَشد .

والثانى : يوجب الاستعانة ، والتوكل ، والتفويض ، والرغبة إلى مَنْ ذلك بيده ، ليسهل لهم ويوفقهم .

والله المستعان ، وعليه التكلان .

(٣٦) فصل

ومن ذلك قوله (٦٩ الحاقة : فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَالَا تُبْصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠) إلى آخرها .

قال مقاتل : بما تبصرون من الخلق ، ومالا تبصرون منه .

وقال قتادة : أقسم بالأشياء كلها ، بما يبصر منها ، ومالا يبصر .

وقال الكلبى : تبصرون من شيء ، ومالاتبصرون من شيء .

وهذا أعم قَسَم وقع فى القرآن ، فإنه يعم العلويات ، والسفليات ، والدنيا والآخرة ، وما يُرَى ومالايُرَى ، ويدخل فى ذلك ، الملائكة كلهم ، والجن ، والإنس والعرش ، والكرسى ، وكل مخلوق .

وكل ذلك من آيات قدرته ، وربوبيته .

وهو سبحانه ، يُصَرِّف (١) الأقسام كما يُصَرِّفُ الآيات .

ففى ضمن هذا القسم ، أن كل ما يُرَى ومالايُرَى ، آية ، ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به ، هو من عند الله ، وهو كلامه ، لا كلام شاعر ، ولامجنون ، ولا كاهن .

---

(١) قوله : « يصرف الأقسام » أى : ينوعها كما ينوع الآيات .

ومن تأمل المخلوقات ، مايراه منها ومالايراه ، واعتبر ما جاءَ به الرسول بها ، ونقَّل فكرته فى مجارى الخلق والأَمر ، ظهر له أَن هذا القرآن من عند الله ، وأَنه كلامه ، وهو أَصدق الكلام ، وأَنه حق ثابت .

كما أَن سائر الموجودات ، مايرى منها ومالايرى حق . كما قال تعالى :

(٥١ الذاريات : فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ٢٣) أَى : إن كان نطقكم حقيقة ، وهو أَمر موجود ، لاتمارون فيه ولاتشكون .

فهكذا ما أَخبرتكم به ، من التوحيد ، والمعاد ، والنبوة ، حق .

كما فى الحديث « إنه لحق مثل ما أَنك ههنا » .

فكأَنه سبحانه يقول : إن القرآن حق ، كما أَن ما شاهدوه من الخلق ، ومالايشاهدونه حق موجود .

بل لو فكرتم فيما تبصرون ، ومالاتبصرون ، لَدلَّكُمْ ذلك ، على أَن القرآن حق ، ويكفى الإنسان من جميع مايبصره ومالا يبصره بعينه ، ومبدأ خلقه ونشأَته ، وما يشاهده من أَحواله ، ظاهرا وباطناً .

فى ذلك أَبْيَنُ دلالة على وحدانية الرب ، وثبوت صفاته ، وصدق ما أَخبر به رسوله ، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة ، لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال (٦٩ الحاقة : إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم ٤٠) وهذا رسوله البشرى محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى إضافته إليه باسم الرسالة أَبين دليل أَنه كلام الْمُرْسِل . فمن أَنكر أَن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أَنكر حقيقة الرسالة . ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاءٍ وابتداءٍ لم يكن رسولا ، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكى فى سورة التكوير .

ثم بين سبحانه كذب أَعدائه وبهتهم فى نسبة كلامه تعالى إلى غيره ، وأَنه لم يتكلم به ، بل قاله ، من تلقاءِ نفسه ، كما بين كذب من قال (٧٤ المدثر : إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَر ٢٥) .

فمن زعم أَنه قول البشر ، فقد كفر ، وسيصليه الله سقر .

ثم أَخبر سبحانه أَنه تنزيل من رب العالمين ، وذلك يتضمن أُمورا :

(أحدها) أنه تعالى ، فوق خلقه كلهم ، وأن القرآن نزل من عنده .

(والثانى) أنه تكلم به حقيقة ، لقوله (٥٦ الواقعة : تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٨٠) .

ولو كان غيره هو المتكلم به ، لكان من ذلك الغير ونظير هذا قوله (٣٢ السجدة : : وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى ١٣) ونظيره قوله (١٦ النحل : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ١٠٢) وقوله (٣٩ الزمر : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١) وقوله (٤١ فصلت : تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢) وما كان من الله ، فليس بمخلوق .

ولا ينتقض هذا ، بأن الرزق والمطر ، وما فى السموات والأرض جميعا منه ، وهو مخلوق ؛ لأن ذلك كله ، أعيان قائمة بنفسها ، وصفات وأفعال ، لتلك الأعيان .

فإضافتها إلى الله سبحانه ، وأنها منه ، إضافة خلق .

كإضافة بيته ، وعبده ، وناقته ، وروحه ، وبابه — إليه .

بخلاف كلامه ، فإنه لابد أن يقوم بمتكلمه ؛ إذ كلام من غير متكلم ، كسمع من غير سامع ، وبصر ، من غير مبصر ، وذلك عين المحال .

فإذا أضيف إلى الرب ، كان بمنزلة إضافة سمعه ، وبصره ، وحياته ، وقدرته ، وعلمه ، ومشيئته إليه .

ومن زعم أن هذه إضافة مخلوق إلى خالق ، فقد زعم أن الله لاسمع له ، ولابصر ، ولاحياة ، ولا قدرة ، ولا مشيئة تقوم به .

وهذا هو التعطيل ، الذى هو شر من الإشراك .

وإن زعم أن إضافة السمع ، والبصر ، والعلم ، والحياة والقدرة ، إضافة صفة إلى موصوف ، فإضافة الكلام إليه ، إضافة مخلوق إلى خالق .

فقد تناقض ، وخرج عن موجب العقل والفطرة ، والشرع ولغات الأمم ، وفَرَّق بين متماثلين حقيقة ، وعقلا ، وشرعا ، وفطرة ، ولغة .

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول ، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام فى قوله (٩ التوبة : حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ٦) فإن الرسول يقول

للمرسل إليه ما أُمر بقوله ، فيقول : قلت كذا وكذا . وقلت له : ما أَمرتنى أَن أَقوله كما قال المسيح (٥ المائدة : مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ ١١٧) والمرسل يقول للرسول : قل لهم كذا وكذا . كما قال تعالى (١٤ إبراهيم : قُلْ لِعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ٣١) (١٧ الإسراءِ : وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٥٣) (٢٤ النور : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ٣٠) ونظائره .

فإِذا بلغ الرسول ذلك ، صح أَن يقال : قال الرسول كذا .

وهذا قول الرسول - أَى : قاله مبلغا - وهذا قوله مبلغا عن مرسله ، ولايجىءُ فى شىءٍ من ذلك تكلم لهم ، بكذا وكذا ، ولاتكلم الرسول بكذا وكذا ، ولا أَنه بكلام رسول كريم ، ولا فى موضع واحد .

بل قيل للصِّديق - وقد تلا آية - هذا كلامك وكلام صاحبك .

فقال : ليس بكلامى ولا كلام صاحبى . هذا كلام الله .

(٣٧) فصل

الأَمر الثالث ماتضمنه قوله (٥٦ الواقعة : : تَنْزِيل مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٨٠) إن ربوبيته الكاملة لخلقه ، تأْبى أن يتركهم سدى : لايأْمرهم ، ولاينهاهم ولايرشدهم إلى ماينفعهم ، ويحذرهم ما يضرهم . بل يتركهم هَمَلًا بمنزلة الأَنعام السائمة .

فمن زعم ذلك ، لم يقدر رب العالمين قدره ، ونسبه إلا مالا يليق به تعالى (٢٣ المؤمنون : فتعالى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ ١١٦) .

ثم أَقام سبحانه ، البرهان القاطع على صدق رسوله ، وأنه لم يتقوَّلْ عليه فيما قاله ، وأَنه لو تقول عليه ، لما أَقره ، ولَعَاجله بالإِهلاك .

فإن كمال علمه وقدرته وحكمته ، تأْبى أَن يقر من تقوَّل عليه ، وافترى عليه ، وأَضل عباده ، واستباح دماء من كذبه ، وحريمهم ، وأَموالهم ، وأَظهر فى الأَرض الفساد والجور والكذب . وخالف الخلق .

فكيف يليق بأَحكم الحاكمين ، وأَرحم الراحمين وأَقدر القادر من ، أَن يُقره على ذلك ؟

بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ، ويعليه ، ويظهره ، ويظفره ، بأهل الحق : يسفك دماءهم ، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم ، قائلا :

إن الله أمرني بذلك وأباحه لي ؟

بل كيف يليق به ، أن يصدقه بأنواع التصديق كلهـــا .

فيصدقه بإقراره ، وبالآيات المستلزمة لصدقه ، التي دلالتها على التصديق ، كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها . فكل آية على انفرادها مصدقة له .

ثم يحصل باجتماع تلك الآيات ، تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها .

ثم يعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقـــوله .

ثم يقيم الدلالة القاطعة ، على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله .

فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبْيَن البهتان ، أن يجوز على أحكم الحاكمين ، ورب العالمين ، أن

يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه ، الذى هو شر الخلق على الإطلاق .

فمن جَوَّز على الله أن يفعل هذا ، بِشَرِّ خلقه وأكذبهم ، فما آمن بالله قطعا ، ولاعرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولايحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل ، وحكمة ، وحِجًى .

ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهلـــه .

وأذكر فى هذا ، مناظرة جرت لى مع بعض اليهود .

قلت له – بعد أن أقضى فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم – إلى أن قلت له : إنكار نبوته ، يتضمن القدح فِى رب العالمين ، وتنقصه بأقبح التنقص فكان الكلام معكم فى الرسول والكلام الآن فى تنزيه الرب تعالى

فقال : كيف تقول مثل هذا الكلام ؟

فقلت له : بيانه عَلَىَّ فاسمع الآن :

أنتم تزعمون ، أنه لم يكن رسولا ، وإنما كان ملكا قاهراً ، قهر الناس بسيفه ، حتى دانوا له ، ومكث ثلاثا وعشرين سنة ، يكذب على الله ويقول : أَوْحَى إلَىَّ

ولم يُوحِ إليه ، وأمرنى ولم يأْمره ، ونهانى ولم ينهه ، وقال الله كذا ، ولم يقل ذلك ، وأَحل كذا ، وحرم كذا ، وأَوجب كذا ، ، وكره كذا .

ولم يحل ذلك ولاحرمه ، ولا أَوجبه ، بل هو فعل ذلك من تلقاءِ نفسه ، كاذبا مفتريا على الله ، وعلى أَنبيائه ، وعلى رسله وملائكته .

ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة ، يستعرض عباده : يسفك دماءَهم ، ويأْخذ أَموالهم ، ويسترق نساءَهم وأَبناءَهم ، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته .

وهو فى ذلك كله يقول : الله أَمرنى بذلك ، ولم يأْمره .

ومع ذلك فهو ساع فى تبديل أَديان الرسل ، ونسخ شرائعهم ، وحل نواميسهم فهذه حاله عندكم .

فلا يخلو إما أَن يكون الرب تعالى عالما بذلك ، مطلعا عليه من حاله ، يراه ويشاهده ، أَم لا .

فإن قلتم : إن ذلك جميعه غائب عن الله ، لم يعلم به ، قدحتم فى الرب تعالى ، ونسبتموه إلى الجهل

المفرط ، إذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم ، ولاعلمه ، ولا رآه .

وإن قلتم : بل كان ذلك بعلمه واطلاعه ومشاهدته ، قيل لكم :

فهل كان قادرا على أن يغير ذلك ويأخذ على يده ، ويحول بينه وبينه أم لا ؟

فإن قلتم : ليس قادرا على ذلك ، نسبتموه إلى العجز المنافى للربوبية ، وكان هذا الإنسان ، هو وأتباعه ، أقدر منه على تنفيذ إرادتهم .

وإن قلتم : بل كان قادرا ، ولكن مكّنه ونصره ، وسلّطه على الخلق ، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله ، نسبتموه إلى أعظم السَّفَهِ والظلم والإخلال بالحكمة :

هذا لو كان مُخلًّى بينه وبين ما فعله .

فكيف ، وهو فى ذلك كله ، ناصره ومؤيده ، ومجيب دعواته ، ومهلك من خالفه وكذبه ، ومصدقه بأنواع التصديق ، ومظهر الآيات على يديه ، التى لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها ، لما أمكنهم ، ولعجزوا عن ذلك .

وكل وقت من الأَوقات ، يحدث له من أَسباب النصر والتمكين والظهور ، والعلو وكثرة الأَتباع ، أَمراً خارجا عن العادة .

فظهر أَن من أَنكر كونه رسولا نبياً ، فقد سبَّ الله وقدح فيه ، ونسبه إلى الجهل والعجز والسفه .

قلت له : ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة ، الذين مكنهم الله فى الأَرض وقْتاًمَّا ، ثم قطع دابرهم ، وأَبطل سنتهم ، ومحا آثارهم وجورهم .

فإن أُولئك ، لم يعيدوا شيئا من هذا ، ولا أَيَّدوا . ونصروا ، وظهرت على أَيديهم الآيات ، ولاصدقهم الرب تعالى ، بإقراره ، ولا بفعله ، ولا بقوله .

بل أَمرهم ، كان بالضد من أَمر الرسول ، كفرعون ، ونمرود ، وأَضرابهما .

ولا ينتقض هذا ، بمن ادَّعى النبوة من الكذابين ؛ فإن حاله ، كانت ضد حال الرسول من كل وجه .

بل حالهم ، من أَظهر الأَدلة على صدق الرسول .

ومن حكمة الله سبحانه ، أَن أَخرج مثل هؤلاء إلى إلى الوجود ، ليعلم حال الكذابين ، وحال الصادقين .

وكان ظهورهم ، من أَبْيَنِ الأَدلة على صدق الرسل والفرق بين هؤلاءِ وبينهم ، فبضدها تتبين الأَشياءُ ، والضد يظهر حسنه الضد .

فمعرفة أَدلة الباطل وشبهه ، من أَنواع أَدلة الحق ، وبراهينه .

فلما سمع ذلك قال : معاذ الله ، لا نقول : إنه ملك ظالم ، بل نبي كريم ، من اتبعه فهو من السعداءِ ، وكذلك ، من اتبع موسى ، فهو كمن اتبع محمداً .

قلت له : بطل كل ما تُموِّهونَ به بعد هذا ؛ فإنكم ، أَقررتم أَنه نبي صادق ، فلا بد من تصديقه فى جميع ما أَخبر به .

وقد علم أَتباعه ، وأَعداؤه بالضرورة ، أَنه دعا الناس كلهم إلى الإيمان .

وأَخبر أَن من لم يؤمنْ به ، فهو كافر مخلد فى النار .

وقاتل من لم يؤمن به من أَهل الكتاب ، وسَجَّلَ عليهم بالكفر ، واستباح أَموالهم ودماءَهم ، ونساءَهم وأَبناءَهم .

فإن كان ذلك عدوانا منه وجوراً لم يكن نبيا ، وعاد الأَمر إلى القدح فى الرب تعالى .

وإن كان ذلك بأَمر الله ووحيه ، لم يسع أَحدا مخالفته وترك اتباعه ، ولزم تصديقه ، فيما أَخبر به ، وطاعته فيما أَمر .

وقد أَرشد سبحانه إلى هذا المسلك ، فى غير موضع من كتابه فقال :

(٦٩ الحاقة : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ٤٧) .

يقول سبحانه : لو تقول علينا قولا واحدا من تلقاء نفسه ، لم نقله ، ولم نوجه إليه ، لما أَقررناه ، ولأَخذنا بيمنه ، ثم أَهلكناه . هذا أَحد القولين .

قال ابن قتيبة : فى هذا قولان :

أَحدهما أَن اليمين ، القوة والقدرة ، وأَقام اليمين مقام القوة ، لأَن قوة كل شيء فى ميامنه .

قلت : وعلى هذا ، تكون اليمين من صفة الأَخذ ، وهذا قول ابن عباس فى اليمين .

قال : ولأهل اللغة فى هذا مذهب آخر .

وهو أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس ، من الأخذ بيد من يعاقب ، وهو قولهم . إذا أرادوا عقوبة رجل : خذبيده ،

وأكثر ما يقوله السلطان ، والحاكم بعدوجوب الحكم : خذ بيده ، واسفع بيده .

فكأنه قال : لو كذب علينا فى شيء (ممابَلَّغ) إليكم عنا ، لأخذنا بيمينه ، ثم عاقبناه بقطع الوتين .

وإلى هذا المعنى ، ذهب الحسن اه .

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئا من الأقاويل ، لما أقره ، ولعاجله بالعقوبة فإن كذباً على الله ، ليس ككذب على غيره .

ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه ، فضلا عن أن ينصره ، ويؤيده ، ويصدقه .

وقوله (٦٩ الحاقة : ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ٤٦) والوتين : نياط القلب .

وهو : عرق يجرى فى الظهر ، حتى يتصل بالقلب ، إذا انقطع ، بطلت القوى ، ومات صاحبه. هذا قول جميع أهل اللغة .

قال ابن قتبية : ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق

بعينه ، ولكنه أَراد ، لو كذب علينا ، لأَمتناه أَوقتلناه ، فكان كمن قطع وتينه .

قال : ومثله قوله صلى الله عليه وسلم « مازالت أَكلة خيبر تعاودنى ، وهذا أَوان قطعت أَبهرى » (١) .

والأَبهر : عرق يتصل بالقلب ، فإذا انقطع ، مات صاحبه .

فكأَنه قال : فهذا أَوان قتلنى السم ، فكنت كمن انقطع أَبهره .

ثم قال تعالى (٦٩ الحاقه : فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ٤٧) أَى لايحجزه منى أَحد ، ولايمنعه منى .

---

(١) رواه البخارى معلقاً : ووصله البزار وغيره ، عن عائشة رضى الله عنها . والأبهر : عرق فى الظهر .

وفى النهاية : ما زالت أكلة خيبر تعادنى — بضم التاء وتشديد الدال — وأتى للأبهر ، بمعان كثيرة .

وقال الحافظ فى الفتح (٧ : ٣٤٨) قال ابن إسحاق : لما اطمأن النبى ﷺ بعد فتح خيبر ، أهدت إليه زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم ، شاة مشوية كانت سألت : أى عضو من الشاة أحب إليه ؟ قيل لها : الذراع فأكثرت فيها من السم .

فلما تناول الذراع ؛ لاك منها مضغة ، ولم يسغه . وأكل معه بشر بن البراء ، فأساغ لقمته فمات .

الموضع الثانى قوله تعالى : (٤٢ الشورى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُو اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور ٢٤)

وفى معنى الآية للناس قولان :

أَحدهما قول مجاهد ومقاتل : إن يشإِ الله ، يربط على قلبك بالصبر على أَذاهم ، حتى لايشق عليك .

والثانى : قول قتادة : إن يشإِ الله يُنْسِكَ القرآن ، ويقطع عنك الوحى .

وهذا القول دون الأَول لوجوه :

(أَحدها) أَن هذا ، خرج جوابا لهم ، وتكذيبا لقولهم : إِن محمدا كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن.

فأَجابهم بأَحسن جواب ، وهو أَن الله تعالى قادر ، لايعجزه شئٌ .

فلو كان كما تقولون ، لختم على قلبه ، فلايمكنه أَن يأْتى بشىءٍ منه ، بل يصير القلب ، كالشىءِ المختوم عليه ، فلا يوصل إلى ما فيه .

فيعود المعنى ، إلى أَنه لو افترى علىَّ ، لم أُمكنه ، ولم أُقرَّه .

ومعلوم أن مثل هذا الكلام ، لايصدر من قلب مختوم عليه .

فإن فيه من علوم الأولين والآخرين ، وعلم المبدإ والمعاد ، والدنيا والآخرة ، والعلم الذى لايعلمه إلا الله ، والبيان التام ، والجزالة والفصاحة والجلالة ، والإخبار بالغيوب ، مالم يمكن من ختم على قلبه ، أن يأتى به ، ولا ببعضه .

فلولا أنى أنزلته على قلبه ، ويسرته بلسانه — لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه .

فأين هذا المعنى ، إلى المعنى الذى ذكره الآخرون ؟

وكيف يلتئم مع حكاية قولهم ؟ وكيف يتضمن الرد عليهم ؟

(الوجه الثانى) أن مجرد الربط على قلبه ، بالصبر على أذاهم ، يصدر من المحق والمبطل ، فلايدل ذلك على التمييز بينهما ، ولا يكون فيه رد لقولهم

فإن الصبر على أذى المكذب ، لايدل ، بمجرده ، على صدق المخبر .

(الثالث) أن الرابط على قلب العبد ، لا يقال له ختم على قلبه ، ولايعرف هذا ، فى عرف المخاطب ، ولا لغة العرب ، ولا هو المعهود فى القرآن .

بل المعهود ، استعمال الختم على القلب ، فى شأن الكفار ، فى جميع موارد اللفظ فى القرآن كقوله : (٢البقرة : خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ٧) .

وقوله (٤٥ الجاثية : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ٢٣) ونظائره .

وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله (١٨الكهف : وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ١٤) .

(٢٨ القصص : وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ١٠)

والإنسان ، يسوغ له فى الدعاء أن يقول : اللهم اربط على قلبي ، ولايحسن أن يقول : اللهم اختم على قلبي .

(الرابع) أنه سبحانه ، حيث يحكى أقوالهم « أنه افتراه » لا يجيبهم عليه هذا الجواب ، بل يجيبهم ، بأنه لو افتراه ، لم يملكوا له من الله شيئا ، بل كان يأخذه ولايقدرون على تخليصه ، كقوله (٤٦ الأحقاف : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِن افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللهِ شَيْئًا ٨) .

وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله ، أو شيء منه .

وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون .

وهذا ، هو الذى يحسن فى جواب هذا السؤال ، لامجرد الصبر .

(الخامس) أن هذه الآية ، نظير ما نحن فيه ، وأنه لو شاء ، لما أقره ، ولا مكّنه . وتفسير القرآن بالقرآن ، من أبلغ التفاسير .

(السادس) أنه لا دلالة فى سياق الآية على الصبر بوجه مّا : لا بالمطابقة ؛ ولا التضمن ، ولا اللزوم .

فمن أين يعلم ، أنه أراد ذلك ، ولم يستمر هذا المعنى فى غير هذا المعنى ، فيحمل عليه ؟ .

بخلاف كونه يحول بينه وبينه ، ولايمكنه من الافتراءِ عليه ، فقد ذكره في مواضع .

(السابع) أنه سبحانه أخبر أنه لو شاءَ ، لما تلاه عليهم ، ولا أدراهم به ، وأن ذلك ، إنما هو بمشيئته ، وإذنه ، وعلمه ، كما قال تعالى : (١٠ يونس : قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ١٦) وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها .

أى : هذا الكلام ، ليس من قِبَلى ، ولا من عندى ، ولا أقدر أن أفتريه على الله ، ولو كان ذلك مقدورا لى ، لكان مقدورا لمن هو من أهل العلم والكتابة ، ومخالطة الناس والتعلم منهم ولكن الله بعثنى به .

ولو شاءَ سبحانه ، لم ينزله ، ولم ييسره بلسانى ، فلم يَدَعْنى أتلوه عليكم وأن أُعلمكم به ألبتة ، لا على لسانى ، ولا على لسان غيرى .

ولكنه أوحاه إلىَّ ، وأذن لى فى تلاوته عليكم ، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به .

فلو كان كذبا وافتراءً كما تقولون ، لأمكن غيرى

أَن يتلوه عليكم ، وتدرون به من جهته ، لأَن الكذب ، لا يعجز عنه البشر .

وأَنتم لم تدروا بهذا ، ولم تسمعوه إلا منى ، ولم تسمعوه من بشر غيرى .

ثم أَجاب عن سؤال مقدر ، وهو : أَنه تعلمه من غيره ، أَو افتراه من تلقاءِ نفسه ، فقال : (١٠يونس: فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ ١٦) تعلمون حالى ، ولا يخفى عليكم سيرى ومدخلى ومخرجى ، وصدقى وأَمانتى

ومن هذا لم أَتمكن من قول شيءٍ منه أَلبتة ، ولا كان لى به علم ، ولا ببعضه ، ثم أَتيتكم به وهلة ، من غير تَعمُّل ولا تعلُّمٍ ، ولا معاناة للأَسباب ، التى أَتمكن بها منه ، ولا من بعضه .

وهذا من أَظهر الأَدلة وأَبْيَنِ البراهين ، أَنه من عند الله ، أَوحاه إلىَّ ، وأَنزله عَلىَّ ، ولو شاءَ مافعل . فلم يُمَكِّنِّى من تلاوته ، ولا أَمكنكم من العلم به ، بل مكننى من تلاوته ، ومكنكم من العلم به .

فلم تكونوا عالمين به ، ولا ببعضه .

ولم أَكن قبل أَن يوحى إلىّ ، تاليا له ، ولا لبعضه .

فتأمل صحة هذا الدليل ، وحسن تأليفه ، وظهور دلالتـه .

ومن هذا قوله سبحانه (١٧ الإسراء : وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ٨٦) وهذا هو المناسب لقوله (٤٢ الشورى : أَمْ يَقُولُون افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ٢٤) ولقوله (٦٩ الحاقة وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذْنَا بِالْيَمِينِ ٤٥) وبرهان مستقل مذكور فى القرآن ، على وجوه متعددة ، والله أعلم .

(الثامن) أن مثل هذا التركيب إنما جاء فى القرآن للنفى لا للإثبات ، كقوله تعالى (١٧ الإسراء : وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ٨٦) وقوله (٤ النساء : إِنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّها النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخرين ١٣٣) (وقوله : ٤٢ الشورى : إِنْ يَشأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فيَظْلَلْن رَوَاكِدَ عَلَى ظهْره ٣٣) وقوله (٣٤ سبا : إِنْ نشأْ نخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْض أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِن السَّمَاءِ ٩) ونظائره ، لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة ، مَنْفِيًّا .

(التاسع أن الختم على القلب لايستلزم الصبر ، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره ، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف ، بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر ، كما قال تعالى (٨ الأنفال : وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ١١) .

ومعنى الربط فى اللغة : الشد . ولهذا يقال لكل من صبر على أمر «ربط قلبه» ، كأنه حبس قلبه عن الاضطراب .

ومنه يقال : هو رابط الجأش .

وقد ظن الواحدى أن « على » زائدة ، والمعنى يربط قلوبكم .

وليس كما ظن ، بل بين ربط الشيء ، والربط عليه ، فرق ظاهر .

فإنه يقال « ربط الفرس والدابة » ولايقال« ربط عليها » .

فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل : ربط عليه .

كأنه أحاط عليه بالرباط . فلهذا قيل : ربط على قلبه ، وكان أحسن من أن يقال . ربط قلبه .

والمقصود ، أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت ، بخلاف الختم .

(العاشر) ان الختم هو : شد القلب ، حتى لايشعر ولا يفهم ، فهو مانع ، يمنع العلم والتَّقَصُّد .

والنبى صلى الله عليه وسلم ، كان يعلم قول أعدائه : أنه افترى القرآن ، ويشعر به .

فلم يجعل الله على قلبه ، مانعا من شعوره بذلك وعلمه به .

فإذا قيل : الأمر كذلك ، ولكن جعل الله على قلبه مانعا من التَّأَذِّى بقولهم ..

قيل : هذا أولى أن يسمى ختما ، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنه ، كما قال تعالى (٦ الأنعام : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ٣٣) وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة الله له ، فإنه لم يُؤْذَ نَبِىٌّ ما أُوذى . فالقول فى الآية هو قول قتادة . والله أعلم .

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر

به المتقّي ، فيبصر ماينفعه فيأتيه ، وما يضره فيجتنبه ، ويتذكر به أسماءَ الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن ، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ، ونهيه وآياته فى أَوليائه وأَعدائه ونفسه ، وما يزكيها ويطهرها ويعليها ، وما يُدَسِّيها ويخفيها ويحقرها . ويذكر به علم المبدإ والمعاد والجنة والنار ، وعلم الخير والشر . فهو التذكرة على الحقيقة ، تذكرة حجة للعالمين ، ومنفعة وهداية للمتعلمين .

ثم قال سبحانه (٦٩ الحاقة : وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ٤٩) أي : لايخفون علينا ، فسنجازيهم بتكذيبهم .

ثم أَخبر سبحانه ، أَن رسوله وكلامه ، حسرة على الكافرين ، إِذا عاينوا حقيقة ماأَخبر به ، كان تكذيبهم عليهم من أَعظم الحسرات ، حين لاينفعهم التحسر .

وهكذا كل من كذب بحق ، وصدق بباطل ، فإِنه إِذا انكشف له حقيقة ماكذب به وصدق به ، كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه .

كمن فرَّط فيما ينفعه وقت تحصيله ، حتى إِذا اشتدت حاجته إِليه ، وعاين فوز المحصلين ، صار تفريطه عليه حسرة .

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول ، حق اليقين .

فقيل : هو من باب إضافة الموصوف إلى صفته ، أى : الحق اليقين ، نحو مسجد الجامع ، وصلاة الأُولى . وهذا موضع ، يحتاج إلى تحقيق ، فنقول ؛ وبالله التوفيق :

ذكر الله سبحانه فى كتابه مراتب اليقين وهى ثلاثة : حق اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، كما قال تعالى (١٠٢ التكاثر : كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ٧) فهذه ثلاث مراتب ، لليقين .

أَولها ، علمه ، وهو : التصديق التام به ، بحيث لايعرض له شك ، ولا شبهة تقدح فى تصديقه ، كعلم اليقين بالجنة مثلا ، وتيقنهم ، أَنها دار المتقين ، ومقر المؤمنين .

فهذه مرتبة العلم ، كيقينهم أَن الرسل أَخبروا بها عن الله ، وتيقنهم صدق المخبر .

(والمرتبة الثانية) عين اليقين وهى : مرتبة الرؤية والمشاهدة .

كما قال تعالى (التكاثر ١٠٢ : ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٧)
وبين هذه المرتبة والتى قبلها ، فرق ما بين العلم والمشاهدة
فاليقين ، للسمع ، وعين اليقين ، للبصر .

وفى المسند للإمام أحمد مرفوعا « ليس الخبر كالمعاين »
وهذه المرتبة ، هى التى سألها إبراهيم الخليل ربه ، أن يريه كيف يحي الموت ، ليحصل له مع علم اليقين ، عين اليقين .

فكان سؤاله ، زيادة لنفسه ، وطُمَأْنِينَةً لقلبه . فيسكن القلب عند المعاينة ، ويطمئن لقطع المسافة التى بين الخبر والعيان .

وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال « نحن أحق بالشك من إبراهيم (١) .

ومعاذ الله أن يكون هناك شك من إبراهيم ، وإنما هو عين بعد علم ، وشهود بعد خبر ، معاينة بعد سماع .

(المرتبة الثالثة) مرتبة حق اليقين ، وهى : مباشرة الشيء بالإحساس به .

كما إذا أُدخلوا الجنة ، وتمتعوا بما فيها .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير « سورة البقرة » عن أبى هريرة .

فهم فى الدنيا فى مرتبة علم اليقين ، وفى الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها فى مرتبة عين اليقين .

وإذا دخلوها ، وباشروا نعيمها ، فى مرتبة حق اليقين ومباشرة المعلوم ، تارة يكون بالحواس الظاهرة .

وتارة يكون بالقلب ، فلهذا قال (٦٩ الحاقة : وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ٥١) فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه ، كما يباشر بالحواس ، ما يتعلق بها .

فحينئذ يخالط بشاشته ، القلوب ، ويبقى لها حق اليقـــــن .

وهذه أعلى مراتب الإيمان ، وهى الصديقية ، التى تتفاوت فيها مراتب المؤمنين .

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثالا فقال :

إذا قال لك من تجزم بصدقه : « عندى عسل ، أريد أن أطعمك منه » فصدقته كان ذلك علم اليقين .

فإذا أحضره بين يديك ، صار ذلك عين اليقين .

فإذا ذقته ، صار ذلك حق اليقين .

وعلى هذا ، فليست هذه الإضافة ، من باب إضافة الموصوف إلى صفته .

بل من إضافة الجنس إلى نوعه ، فإن العلم ، والعين ، والحق ، أعم من كونها يقينا ، فأُضيف العام إلى الخاص ، مثل ، بعض المتاع ، وكل الدراهم .

ولما كان المضاف والمضاف إليه فى هذا الباب ، يصدقان على ذات واحدة ، بخلاف قولك : دار عمرو ، وثوب زيد ، ظن من ظن أَنها من إضافة الموصوف إلى صفتـــه .

وليس كذلك ، بل هى من باب إضافة الجنس إلى نوعه ، كثوب خز ، وخاتم فضة .

فالمضاف إليه ، قديكون مغايرا للمضاف ، لايصدقان على ذات واحدة .

وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد ، والله أَعلم .

ثم ختم السورة بقوله (٦٩ الحاقة : فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٥٢) .

وهى جديرة بهذه الخاتمة ، لما تضمنته ، من الإخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله ، وذكر عظمة ملكه ،

وجريان حكمه بالعدل على عباده ، فى الدنيا والآخرة ، وذكر عظمته تعالى فى إرساله رسوله ، وإنزال كتابه .

وأنه تعالى ، أعظم وأجل وأكبر ، عند أهل سمواته والمؤمنين ، من عباده ، من أن يقر كذبا متقولا عليه ، مفترى عليه ، يبدل دينه ، وينسخ شرائعه ، ويقتل عباده ، ويخبر عنه بما لاحقيقة له .

وهو سبحانه ، مع ذلك ، يؤيده وينصره ، ويجيب دعواته ، ويأخذ أعداءه ، ويرفع قدره ، ويعلى ذكره .

فهو سبحانه العظيم ، الذى تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم .

فسبحان ربنا العظيم ، وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون ، علوا كبيرا .

(٣٨) فصل

ومن ذلك قوله عز وجل (٧٠ المعارج : فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ٤٠ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٤١) .

أقسم سبحانه ، برب المشارق والمغارب . وهى :

إما مشارق النجوم ومغاربها ، أومشارق الشمس ومغاربها . وأن كل موضع من الجهة ، مشرق ومغرب .

فكذلك جمع فى موضع ، وأفرد فى موضع .

وثَنَّى فى موضع آخر ، فقال (٥٥ الرحمن : رَبُّ الْمَشْرِقَيْن وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ١٧) .

فقيل : هما مشرقا الصيف والشتاء ، وجاء فى كل موضع مايناسبه .

فجاء : فى سورة الرحمن (رب المشرقين ورب المغربين) لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات .

فذكر فيها الخلق والتعليم ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والشجر ، والسماء ، والأرض ، والحب ، والثمر ، والجن ، والإنس ، ومادة أبى البشر ، وأبى الجن . والبحرين ، والجنة والنار .

وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين ، وجنتين دونهما . وأخبر أن فى كل جنة عينين .

فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين ، والمغربين .

وأما سورة (سأل سائل) فإنه أقسم سبحانه ، على عموم قدرته وكمالها ، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم .

فذكر المشارق والمغارب ، بلفظ الجمع ؛ إذ هو أدل على المقسم عليه ، سواءٌ أُريد مشارق النجوم ومغاربها ، أَو مشارق الشمس ومغاربها ، أَوكل جزءٍ من جهتى المشرق والمغرب .

فكل ذلك آية ودلالة ، على قدرته تعالى ، على أَن يبدل أَمثال هؤلاءِ المكذبين ، وينشئهم فيما لايعلمون .

فيأْتى بهم فى نشأْة أُخرى ، كما يأْتى بالشمس كل يوم من مطلع ، ويذهب (بها) فى مغرب .

وأَما فى سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإِفراد ، لما كان المقصود ، ذكر ربوبيته ، ووحدانيته .

وكما أَنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده ، فكذلك يجب أَن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده فليس للمشرق والمغرب ، رب سواه .

فكذلك ينبغى أَن لايتخذ إِله ولا وكيل ، سواه .

وكذلك قال موسى لفرعون حين سأَله (٢٦ الشعراء : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٣ ؟) . (٢٦ الشعراءِ ف (قالَ : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ٢٨) ، وفى ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب ، تنبيه على ربوبيته

السموات ، وما حوته ، من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، وربوبيته ما بين الجهتين ، وربوبيته ، الليل والنهار ، وما تضمناه .

ثم قال (٧٠ المعارج : إِنَّا لَقَادِرُونَ ٤٠ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٤١) أى : لقادرون على أن نذهب بهم ، ونأتى بأطوع لنا منهم ، وخيراً منهم ، كما قال تعالى (٤ النساء : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً ١٣٣) .

وقوله (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أى : لايفوتنى ذلك ، إذا أردته ولا يمتنع منى .

وعبر عن هذا المعنى بقوله (وما نحن بمسبوقين) لأن المغلوب يسبقه الغالب ، إلى ما يريده ، فيفوت عليه ، ولهذا عُدِّىَ بـ « على » دون « إلى » كما فى قوله (٥٦ الواقعة : وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦٠ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ٦١) .

فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداهُ بـ « على »

بخلاف سبقه إليه ، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه .

فالأَول بمعنى غلبته وقهرته عليه . والثانى بمعنى وصلت إليه قبله .

(٣٩) فصل

وقد وقع الإخبار عن قدرته عليه سبحانه ، على تبديلهم بخير منهم ، وفى بعضها ، تبديل أَمثالهم ، وفى بعضها ، استبداله قوما غيرهم ثم لايكونوا أَمثالهم .

فهذه ثلاثة أُمور ، يجب معرفة ما بينهما ، من الجمع ، والفرق .

فحيث وقع التبديل بخير منهم ، فهو إخبار عن قدرته ، على أَن يذهب بهم ، ويأْتى بأَطوعَ وأَتقى له منهم فى الدنيا ، وذلك قوله (٤٧ سورة محمد : وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ٣٨) يعنى بل يكونوا خيرا منكم .

قال مجاهد : يستبدل بهم من شاءَ من عباده ، فيجعلهم خيرا من هؤلاءِ .

فلم يتولوا ، بحمد الله ، فلم يستبدل بهم . وأَما ذكره تبديل أَمثالهم ، ففى سورة (الواقعة) وسورة (الإِنسان) .

فقال فى الواقعة (٦٠ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦٠ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ٦١) .

وقال فى (٧٦ سورة الإنسان (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ٢٨)

قال كثير من المفسرين : المعنى ، أنا إذا أردنا أن نخلق خلقا غيركم ، لم يسبقنا سابق ، ولم يفتنا ذلك . وفى قوله (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً) إذا شئنا أهلكناهم ، وأتينا بأشباههم . فجعلناهم بدلا منهم .

قال المهدوى : قوما موافقين لهم فى الخلق ، مخالفين لهم فى العمل .

ولم يذكر الواحدى ، ولا ابن الجوزى غير هذا القول .

وعلى هذا ، فتكون هذه الآيات ، نظير قوله تعالى (٣٥ فاطر(١) : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيد ١٦)

(١) فى الأصل (٣٥ : ١٦) « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين » وهو خطأ ، لأن هذه الآية : بعض من آية (١٣٣ من سورة ٤ النساء المتقدمة لا من سورة ٣٥ فاطر .

فيكون استدلالا بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم ، على إتيانه بهم أنفسهم ، إذا ماتوا .

ثم استدل سبحانه بالنشأة الأولى فذكرهم بها فقال (٥٦ الواقعة : وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢) فنبههم بما علموه وعاينوه ، على صدق ما أخبرتهم به رسله ، من النشأة الثانية .

والذى عندى فى معنى هاتين الآيتين ، وهما ، آية الواقعة ، والإنسان : أن المراد بتبديل أمثالهم ، الخلق الجديد ، والنشأة الآخرة ، التى وعدوا بها .

وقد وفق الزمخشرى لفهم هذا من سورة الإنسان ، فقال :

وبدلنا أمثالهم فى شدة الأسر ، يعنى النشأة الأخرى ، ثم قال : :

وقيل: وبدلنا غيرهم ممن يطيع ، وحقه أن يأتى بـ « إن » لا بـ « إذا » ، كقوله (٤٧ محمد : وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ٣٨) .

قلت : وإتيانه بـ (إذا) التى لاتكون إلا للمحقق الوقوع ، يدل على تحقق وقوع هذا التبديل ، وأنه واقع لامحالة .

وذلك هو النشأة الأُخرى ، التى استدل على إمكانها بقوله (٥٦ الواقعة : وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ٦٢) .

واستدل بالمثل على المثل ، وعلى ما أنكروه ، بما عاينوه وشاهدوه .

وكونهم أمثالهم ، هو إنشاؤهم خلقا جديداً بعينه ، فهم هم بأعيانهم ، وهم أمثالهم ، فهم أنفسهم يعادون

فإذا قلت : المعاد هذا ، هو الأول بعينه ، صدقت .

وإن قلت : هو مثله ، صدقت ، فهو هو ، معاد ، أو هو مثل الأول .

وقد أوضح هذا سبحانه بقوله (٥٠ قٓ : بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدِ ١٥) .

فهذا الخلق الجديد ، هو المتضمن لكونهم أمثالهم . وقد سماه الله سبحانه وتعالى ، إعادة ، والمعاد مثل المبدإ .

وسماه نشأة أخرى ، وهى مثل الأولى .

وسماه خلقا جديداً وهو مثل الخلق الأول كما قال (٥٠ قٓ : أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيد ١٥) .

وسماه أمثالا ، وهم هم . فتطابقت ألفاظ القرآن ، وصدق بعضها بعضا ، وبين بعضها بعضا .

وبهذا تزول إشكالات ، أوردها من لم يفهم المعاد ، الذى أخبرت به الرسل عن الله .

ولا يفهم من هذا القول ، ما قاله بعض المتأخرين : « إنهم غيرهم من كل وجه » فهذا خطأ قطعا - معاذ الله من اعتقاده - بل هم أمثالهم ، وهم أعيانهم .

فإذا فهمت الحقائق ، فلايناقش فى العبارة ، إلا ضيق العطن ، صغير العقل ، ضعيف العلم .

وتأمل قوله تعالى فى (٥٦ الواقعة : أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ٥٨ أَءَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ٦٠) .

كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها ، مستدلا بها على النشأة الثانية بقوله (٥٦الواقعة : وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ٦٠عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِى مَالَا تَعْلَمُون ٦١) .

فإنكم إنما علمتم النشأة الأُولى فى بطون أُمهاتكم ، ومبدأها مما تمنون ، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة

ثانية فيما لاتعلمون . فإذا أنتم أمثال ما كنتم فى الدنيا ، فى صوركم وهيئاتكم .

وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته .

لو تذكرتم أحوال النشأة الأُولى ، لدلكم ذلك ، على قدرة منشئها على النشأة التى كذبتم بها .

فأى استدلال وإرشاد ، أحسن من هذا وأقرب إلى العقل والفهم ، وأبعد من كل شبهة وشك ؟

وليس بعد هذا البيان والاستدلال ، إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان .

وقال فى سورة ٧٦ الإنسان (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ٢٨) .

فهذه النشأة الأُولى .

ثم قال (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا) فهذه النشأة الأُخرى .

ونظير هذا (٥٣ النجم : وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ٤٥ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ٤٧) .

وهذا فى القرآن كثير جدا ، يقرن بين النشأتين ، مُذَكِّرًا للفطر والعقول ، بإحداهما على الأُخرى . وبالله التوفيق .

(٤٠) فصل

فلما أَقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال (٧٠ المعارج : فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ٤٢) .

وهذا تهديد شديد ، يتضمن ترك هؤلاءِ الذين قامت عليهم حجتى ، فلم يقبلوها ، ولم يخافوا بأسى ، ولا صدقوا رسالاتى ، فى خوضهم بالباطل ، ولعبهم .

فالخوض فى الباطل ، ضد التكلم بالحق ، واللعب ، ضد السعى الذى يعود نفعه على ساعيه .

فالأَول ، ضد العلم النافع . والثانى ، ضد العمل الصالح .

فلا تكلم بالحق ، ولاعمل بالصواب .

وهذا شأْن كل من أَعرض عما جاءَ به الرسول ، لابد له من هذين الأَمرين .

ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور .

فقال (٧٠ المعارج : يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ٤٣) أى : يسرعون .

والنصب : العلم والغاية ، التى تنصب ، فيؤمونها .

وهذا من ألطف التشبيه وأَبْيَنِهِ وأحسنه .

فإن الناس يقومون من قبورهم ، مهطعين إلى الداعى يَؤُمُّون الصوت ، لايعرجون عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَةً كما قال (٢٠ طه : يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ١٠٨) .

أَى : يُقْبِلُون من كل أَوب إلى صوته وناحيته ، لايعرجون عنه .

قال الفراءُ : وهذا كما تقول : دعوتك دعوة لاعوج لك عنها .

وقال الزجاج : المعنى ، لاعوج لهم عن دعائه ، أَى : لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده .

فإن قلت : إذا كان المعنى : لاعوج لهم عن دعوتى ، فكيف قال (لاعِوَج له) ؟

قيل : قالت طائفـة : اللام بمعنى « عن » .

أى : لاعوج عنه .

وقالت طائفة : المعنى لاعوج لهم عن دعائى ،كما قال الزجاج .

وفى القولين تكلف ظاهر .

ولما كانت الدعوة تسمع الجميع ، لا تعوج عنهم ، وكلهم يؤم صوت الداعى ويتبعه ، لايعوج عنه ، كان مجىءُ اللام منتظما للمعنيين ، ودالا عليهما .

والمعنى لاعوج لدعائه ، لا فى إسماعهم إياه ، ولا فى إجابتهم له .

ثم قال تعالى (٧٠ المعارج : خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ٤٤) فوصفهم بذل الظاهر ، وهو خشوع الأَبصار ، وذل الباطن ، وهو ما يرهقهم من الذل الذى خشعت عنه أَبصارهم ، وقريب من هذا قوله (٧٥ القيامة : وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٤ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ٢٥) .

ونظيره قوله (١٠ يونس : وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ٢٧) .

وضد هذا قوله تعالى (٢٠ طه : إِنَّ لَكَ أَنْ لَاتَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ١١٨) .

فنفى عنه الجوع ، الذى هو ذل الباطن ، و« الْعُرْىَ » الذى هو ذل الظاهر .

وضده أيضاً قوله (٧٦ الإنسان : وَلَقَّاهُمْ نَضْرةً وَسُرُوراً ١١) .

فالنضرة ، عز الظاهر وجماله ، والسرور ، عز الباطن وجماله .

ومثله أيضاً قوله (٧٦ الإنسان : عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَاسْتَبرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً ٢١) فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن .

ومثله قوله (٧ الأعراف : يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ٢٦) .

فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن .

ومثله قوله (٣٧ الصافات : إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ

الْكَواكِبِ ٦ وحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ٧) فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم .

ومثله قوله أيضاً (٤٠ غافر : وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ٦٤) .

وقريب منه قوله تعالى (٢ البقرة : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ١٩٧) .

ومنه قوله (٣ آل عمران : فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٠٧) فجمع لهؤلاء ، بين جمال الظاهر والباطن ، ولأُولئك ، بين تسويد الظاهر والباطن .

ومنه قول امرأة العزيز (١٢ يوسف : فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ٣٢) فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة فوصفته بجمال الظاهر والباطن.

فكأنها قالت : هذا ظاهره . وباطنه ، أحسن من ظاهره .

وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن ، قدرا وشرعا . والله أعلم بالصواب .

(٤١) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٦٨ القلم : نٓ وَالْقَلَمِ وَمَايَسْطُرُونَ١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ٢) الصحيح أن «نٓ» و«قٓ» و« صٓ » من حروف الهجاءِ التى يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور .

وهى أُحادية ، وثنائية ، وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تجاوز الخمسة ، ولم تذكر قط فى أَول سورة ، إلا وعقبها بذكر القرآن ، إما مقسما به ، وإما مخبراً عنه ، ماخلا سورتين سورة « كهيعص ، و«نٓ» كقوله (٢ البقرة : آلم ١ ذلِكَ الْكِتَابُ ٢) (٣ آل عمران : الٓم ١ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ٣) (٧ الأَعراف : المٓص ١ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ٢) (١٣ الرعد : المٓر تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ١) وهكذا إلى آخره .

ففى هذا ، تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها ، وجلالتها .

إذ هى مبانى كلامه وكتبه ، التى تكلم سبحانه بها ، وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده .

وعرفهم بواسطتها ، نفسه ، وأسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأمره ، ونهيه ، ووعيده ، ووعده .

وعرفهم بها ، الخير والشر ، والحسن والقبيح ، وأقدرهم على التكلم بها ، بحيث يبلغون بها أقصى ما فى أنفسهم . بأسهل طريق ، وقلة كلفة ومشقة ، وأوصله إلى المقصود ، وأدله عليه .

وهذا من أعظم نعمه عليهم ، كما هو من أعظم آياته ، ولهذا عاب سبحانه ، على من عبد إلها لايتكلم .

وامتن على عباده ، بأن أقدرهم على البيان به بالتكلم

فكان فى ذكر هذه الحروف ، التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال إحسانه وإنعامه .

فهى أَوْلَى أَن يُقسَم بها ، من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرها من المخلوقات .

فهى دالة ، أظهر دلالة ، على وحدانيته وقدرته ، وحكمته وكماله وكلامه ، وصدق رسله .

وقد جمع سبحانه بين الأمرين - أعنى القرآن ونطق اللسان - وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه ،

كما قال (٥٥ الرحمن : الرَّحْمٰنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤) .

فبهذه الحروف ، علم القرآن ، وبها علم البيان ، وبها فضل الإنسان على سائر أَنواع الحيوان ، وبها أَنزل كتبه ، وبها أَرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد فى المعاش والمعاد .

وبها يتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد .

وبها جمعت أَشتات العلوم ، وبها أَمكن تنقلها فى الأَذهان .

وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة ؟ وأُقيلت بها من عثرة ، وأُقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من ضلالة ، وأُقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟

فآياته سبحانه ، فى تعليم البيان ، كآياته فى خلق الإنسان .

ولولا عجائب صنع الله ، ماثبتت تلك الفضائل ، فى لحم ولا عصب .

فسبحان من هذا صنعه ، فى هواء يخرج من قصبة الرئة ، فينضم فى الخلقوم وينفرش فى أَقصى الحلق ،

ووسطه . وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا ، وفى الشفتين ، والخيشوم .

فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع ، صوت غير صوت المقطع المجاور له . فإذا هو حرف .

فألْهَمَ سبحانه الإنسان ، بضم بعضها إلى بعض ، فإذا هى كلمات قائمة بأنفسها .

ثم ألهمهم تأْليف تلك الكلمات ، بعضها إلى بعض .

وإذا هى كلام دال على أنواع المعانى ، أمرا ونهيا ، وخبرا ، واستخبارا ونفيا ، وإثباتا ، وإقرارا ، وإنكارا وتصديقا ، وتكذيبا . وإيجابا واستحبابا . وسؤالا ، وجوابا .

إلى غير ذلك من أنواع الخطاب ، نظمه ونثره ، ووجيزه ، ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق .

كل ذلك صنعته ، تبارك وتعالى ، فى هواءٍ مجرد ، خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره ، فى مجار قد هُيِّئتْ ، وأُعدت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأْليفه وتوصيله .

فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين .

فهذا شأن الحرف المخلوق .

وأما الحرف الذى به تكون المخلوقات ، فشأنه أعلى وأجل .

وإذا كان هذا شأن الحروف ، فحقيق أن تفتتح بها السور . كما افتتحت بالإقسام ، لما فيها ، من آيات الربوبية ، وأدلة الوحدانية .

فهى دالة على كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال رحمته ، وعنايته بخلقه . ولطفه وإحسانه .

وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه ، استدللت بها على المبدإ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد والرسالة .

فهى من أظهر أدلة شهادة ، أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . وأن القرآن كلام الله . تكلم به حقا ، وأنزله على رسوله وحيا . وبلغه كما أُوحِىَ إليه صدقا .

ولا تهمل الفكرة ، فى كل سورة افتتحت بهذه الحروف . واشتمالها على آيات هذه المطالب ، وتقريرها . وبالله التوفيق .

(٤٢) فصل

ثم أَقسم سبحانه بـ (٦٨ : الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١) .
فأَقسم بالكتاب وآلته وهو القلم ، الذى هو إِحدى آياته ، وأَول مخلوقاته ، الذى جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحى . وقيد به الدين . وأُثبتت به الشريعة ، وحفظت به العلوم . وقامت به مصالح العباد فى المعاش والمعـــاد .

فوطدت به الممالك ، وأُمنت به السبل والمسالك .

وأَقام فى الناس أَبلغ خطيب وأُفصحه . وأَنفعه لهم وأَنصحه . وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم . وطبيبا يبرئُ بإِذنه من أَنواع الأَلم .

يكسر العساكر العظيمة ، على أَنه الضعيف الوحيد ، ويَخَافُ سطوته وبأْسه ، ذو البأْس الشديد ،

وبالأَقلام ، تدبر الأَقاليم ، وتساس الممالك .

والعلم لسان الضمير ، يناجيه ، بما استتر عن الأَسماع فينسج حلل المعانى فى الطرفين ، فتعود أَحسن من الوَشْىِ المرقـوم .

ويُودِعها حِكَمَه ، فتصير بوادر الفهوم .

والأَقلام نظام للأَفهام ، وكما أَن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان .

ويولد الحروف المسموعة عن اللسان ، كتولد الحروف المكتوبة عن القلم .

والقلم بريد القلب ورسوله ، وترجمانه ، ولسانه الصامت .

(٤٣) فصل

والأَقلام متفاوتة فى الرتب .

فأَعلاها وأَجلها قدرا ، قلم القدر السابق الذى كتب الله به مقادير الخلائق . كما فى سنن أَبى داود عن عبادة ابن الصامت قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِن أَول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : يارب ، وما أَكتب ؟ .

قال : اكتب مقادير كل شىءٍ ، حتى تقوم الساعة .

واختلف العلماءُ . هل القلم ،أَول المخلوقات ، أَو العرش ؟

على قولين . ذكرهما الحافظ أَبو يعلى الهمدانى .
أَصحهما ، أَن العرش قبل القلم .

لما ثبت فى الصحيح من حديث عبد الله بن عمر . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« قدر الله مقادير الخلائق قبل أَن يخلق السموات والأَرض بخمسين أَلف عام ، وعرشه على الماءِ » .

فهذا صريح ، أَن التقدير وقع قبل خلق العرش .

والتقدير ، وقع عند أَول خلق القلم لحديث عبادة هذا .

ولا يخلو قوله « إن أَول ما خلق الله القلم » إلى آخره . إما أَن يكون جملة أَو جملتين .

فإن كان جملة – وهو الصحيح – كان معناه أَنه عند أَول خلقه قال له : اكتب . كما فى لفظ « أَول ما خلق الله القلم ، قال له اكتب » بنصب « أَول » ، و« القلم » .

فإن كانا جملتين – وهو مروى برفع « أَول » ، و« القلم » ، فيتعين حمله على أَنه أَول المخلوقات من هذا العالم ، ليتفق الحديثان .

إذ حديث عبد الله بن عمر صريح فى أَن العرش سابق ، على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم .

وفى اللفظ الآخر « لما خلق الله القلم ، قال له اكتب»

فهذا القلم ، أَول الأَقلام وأَفضلها . وأَجلها .

وقد قال غير واحد من أَهل التفسير : إنه القلم الذى أَقسم الله به .

(٤٤) فصل

القلم الثانى ، قلم الوحى ، وهو الذى يكتب بهوحى الله إلى أَنبيائه ورسله .

وأَصحاب هذا القلم ، هم الحكام على العالم . والعالم خَدَمٌ لهم . وإليهم الحل والعقد والأَقلام كلها خدم لأَقلامهم .

وقد رُفِعَ النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراءِ ، إلى مُستوًى ، يسمع فيه صريف الأَقلام :

فهذه الأَقلام ، هي التى تكتب ما يوحيه الله تبارك

وتعالى من الأُمور ، التى يدبر بها أَمر العالم ، العلوى والسفلى .

(٤٥) فصل

والقلم الثالث ، قلم التوقيع عن الله ورسوله . وهو قلم الفقهاءِ والمفتين .

وهذا القلم أَيضاً ، حاكم غير محكوم عليه . فإِليه التحاكم فى الدماءِ ، والأَموال . والفروج ، والحقوق .

وأَصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذى حكم به بين عباده .

وأَصحابه ، حكام وملوك على أَرباب الأَقلام . وأَقلام العالم ، خدم لهذا القلم .

(٤٦) فصل

القلم الرابع ، قلم طب الأَبدان التى تحفظ بها صحتها الموجودة . وترد إِليها صحتها المفقودة . وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها .

وهذا القلم أَنفع الأَقلام ، بعد قلم طب الأَديان . وحاجة الناس إِلى أَهله تلتحق بالضرورة .

(٤٧) فصل

القلم الخامس ، التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياس الملك .

ولهذا كان أَصحابه أَعز أَصحاب الأَقلام ، والمشاركون للملوك فى تدبير الدول .

فإن صلحت أَقلامهم ، صلحت المملكة .

وإن فسدت أَقلامهم ، فسدت المملكة .

وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم .

(٤٨) فصل

القلم السادس ، قلم الحساب ، وهو القلم الذى تضبط به الأَموال ، مستخرجها ومصروفها ، ومقاديرها ، وهو قلم الأَرزاق .

وهو قلم الكم المتصل ، والمنفصل . الذى تضبط به المقادير ، وما بينها من التفاوت والتناسب .

ومبناه على الصدق والعدل .

فإذا كذب هذا القلم وظلم ، فسد أَمر المملكة .

(٤٩) فصل

القلم السابع ، قلم الحكم ، الذى تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ، وتراق به الدماءُ ، وتؤخذ به الأَموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان[١] وتنقطع به الخصومات .

وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله ، عموم وخصوص .

فهذا له النفوذ واللزوم ، وذاك له العموم والشمول .

وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته ، وبالعدل ، فيما يمضيه وينفذه .

(٥٠) فصل

القلم الثامن ، قلم الشهادة ، وهو القلم الذى تحفظ به الحقوق ، وتصان عن الإضاعة ، وتحول بين الفاجر وإنكاره ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه ، وعلى المبطل بباطله .

وهو الأَمين على الدماءِ والفروج ، والأَموال ، والأَنساب ، والحقوق .

---

(١) قوله « ويثبت به الإنسان » هكذا فى الأصل ، ولعل هناك نقص فى الأصل . والمراد — كما يفهم من سباق الكلام وسياقه — ويثبت به براءة الإنسان من الحكم له ، أو إدانته ، بأن يحكم عليه .

ومتى خان هذا القلم ، فسد العالم أعظم فساد ، وباستقامته ، يستقيم أمر العالم .

ومبناه ، على العلم ، وعدم الكتمان .

(٥١) فصل

القلم التاسع ، قلم التعبير ، وهو كاتب وحْيِ المنام ، وتفسيره ، وتعبيره ، وما أُريد منه .

وهو قلم شريف جليل ، مترجم للوحى المنامى ، كاشف له .

وهو من الأَقلام التى تصلح للدنيا والدين .

وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته ، وأَمانته وتحرِّيه للصدق ، والطرائق الحميدة ، والمناهِج السديدة مع علم راسخ ، وصفاء باطن ، وحس مؤيد بالنور الإِلهى ، ومعرفة بأَحوال الخلق وهيئآتهم وسِيَرِهم .

وهو من أَلطف الأَقلام ، وأَعمها جولانا ، وأَوسعها تصرفا ، وأَشدها تشبثا بسائر الموجودات: عُلْوِيِّها وسُفْلِيِّها وبالماضى والحال والمستقبل .

فتصرف هذا القلم فى المنام ، هو محل ولايته ، وكرسى مملكته وسلطانه .

(٥٢) فصل

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه .

وهو القلم ، الذى تضبط به الحوادث ،وتنقل من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن .

فيحصر مامضى من العالم وحوادثه ، فى الخيال ، وينقشه فى النفس ، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده ، فهو قلم المعاد الروحانى .

وهذا القلم ، قلم العجائب ، فإنه يعيد لك العالم ، فى صورة الخيال ، فتراه بقلبك ، وتشاهده ببصيرتك .

(٥٣) فصل

القلم الحادى عشر ، قلم اللغة ، وتفاصيلها من شرح معانى ألفاظها ، ونحوها ، وتصريفها ، وأسرار تراكيبها ومايتبع ذلك من أحوالها ووجوهها ، وأنواع دلالتها على المعانى ، وكيفية الدلالة .

وهو قلم التعبير عن المعانى ، باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها ، وأسهلها وأوضحها .

وهذا القلم ، واسع التصرف جداً ، بحسب سعة الألفاظ ، وكثرة مجاريها وتنوعها .

(٥٤) فصل

القلم الثانى عشر ، القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحقين ، وكشف أَباطيل المبطلين على اختلاف أَنواعها وأَجناسها ، وبيان تناقضها ، وتهافتهم ، وخروجهم عن الحق ، ودخولهم فى الباطل .

وهذا القلم فى الأَقلام نظير الملوك فى الأَنام .

وأَصحابه ، أَهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأَعدائهم .

وهم الداعون إلى الله ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأَنواع الجدال .

وأَصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدو لكل مخالف للرسل .

فهم فى شأْن ، وغيرهم من أَصحاب الأَقلام ، فى شأْن .

فهذه الأَقلام ، التى فيها انتظام مصالح العالم .

ويكفى فى جلالة القلم ، أَنه لم تُكْتَبْ كُتُبُ الله إلا به ، وأَن الله سبحانه ، أَقسم به فى كتابه وتَعرَّف إلى غيره بأَن علَّم بالقلم .

وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا صلى الله عليه وسلم ، بواسطة القلم .

ولقد أبدع أبو تمام ، إذ يقول فى وصفه :

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِى بِشَبَاتِهِ (١)
يُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلَى وَالْمَفَاصِلُ

لَهُ رِيقَةٌ طَلٌّ (٢) ، وَلَكِنَّ وَقْعَهَا
بِآثَارِهِ فِى الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ وَابِلُ (٣)

لُعَابُ الْأَفَاعِى الْقَاتِلَاتُ لُعَابُهُ
وَأَرْىُ (٤) الْجَنَا اشْتَارَتْهُ (٥) أَيْدٍ عَوَاسِلُ

لَهُ الْخَلَوَاتُ اللَّاءِ لَوْلَا نَجِيُّهَا
لَمَا احْتَفَلَتْ لِلْمُلْكِ تِلْكَ الْمَحَافِلُ

فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْطَقْتَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ (٦)
وَأَعْجَمُ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلُ (٧)

---

(١) شباة كل شيء : حد طرفه . والجمع الشبا والشبوات .

(٢) الطل : أضعف المطر وجمعه : طلال .

(٣) الوابل : المطر الغزير . (٤) الأرى : العسل .

(٥) شار العسل : وبابه (قال) واشتاره هما معنى اجتناه .

(٦) راكب : المراد : وهو بين الأصابع .

(٧) « راجل » المراد : موضوع فى أى مكان وليس محمولا بين الأصابع .

إِذَا مَا امْتَطَى(١) الْخَمْسَ اللِّطَافَ وَأُفْرِغَتْ
عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهْىَ حَوَافِلُ
أَطَاعَتْهُ أَطْرَافُ الْقَنَا ، وَتَقَوَّضَتْ (٢)
لِنَجْوَاهُ - تَقْوِيضَ الْخِيَامِ - الْجَحَافِلُ
إِذَا اسْتَغْزَرَ الذِّهْنُ الذَّكِيُّ وَأَقْبَلَتْ
أَعَالِيهِ فِى الْقِرْطَاسِ وَهْىَ أَسَافِلُ
وَقَدْ رَفَدَتْهُ الخِنْصِرَانِ وَسَدَّدَتْ
ثَلَاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلَاثُ الْأَنَامِلُ
رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهْوَ مُرْهَفٌ
ضَنًا وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلُ

(٥٥) فصل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة ، تنزيه نبيه ، ورسوله ، عما يقول فيه أعداؤه ، وهو قوله قوله تعالى (٦٨ القلم: مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ٢) .

---

(١) امتطى : معناه : ركب. والمراد هنا : إذا حمل بين الأصابع الخمس .
(٢) تقوضت : المراد انتقضت من غير هدم .

وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به ، وجدته دالًّا عليه أظهر دلالة ، وأَبْيَنِهَا .

فإن ما سطر الكاتب بالقلم ، من أنواع العلوم التى يتلقاها البشر ، بعضهم عن بعض ، لاتصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا من عقل وافر .

فكيف يصدر ، ماجاءَ به الرسول من هذا الكتاب ، الذى هو فى أَعلى درجات العلوم .

بل العلوم ، التى تضمنها ، ليس فى قوى البشر ، الإتيان بها .

ولا سيما من أُمِىٍّ لايقرأُ كتاباً ، ولايخط بيمينه ، مع كونه فى أَعلى أَنواع الفصاحة ، سليما من الاختلاف . بَرِيًّا من التناقض .

يستحيل من العقلاءِ كلهم ، لو اجتمعوا فى صعيد واحد ، أَن يأْتوا بمثله ، ولو كانوا فى عقل رجل واحد منهم .

فكيف يَتَأَتَّى ذلك من مجنون ، لاعقل له ، يميز به ، ماعسى كثير من الحيوان أَن يميزه .

وهل هذا إلا من أَقبح البهتان ، وأَظهر الإفك ؟

فتأَمل شهادة هذا المقسم به للمقسمَ عليه ، ودلالته عليه أَتم دلالة .

ولو أَن رجلا أَنشأَ رسالة واحدة بديعة ، منتظمة الأَول والآخر ، متساوية الأَجزاءِ ، يصدق بعضها بعضا ، أَو قال قصيدة ، كذلك . أَو صنف كتابا ، كذلك ، لَشَهِدَ له العقلاءُ بالعقل . ولَمَا استجاز أَحد ، رَمْيَهُ بالجنون مع إمكان - بل وقوع - معارضتها ومشاكلتها والإِتيان بمثلها ، أَو أَحسن منها .

فكيف يُرْمَى بالجنون ، من أَتى بما عجزت العقلاءُ كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ؟

وعرَّفهم من الحقِّ مالا تهتدى عقولهم إليه ، بحيث أَذعنت له عقول العقلاءِ ، وخضعت له أَلباب الأَولياءِ ، وتلاشت فى جنب ما جاءَ به ، بحيث لم يسعها إلا التسليم له ، والانقياد ، والإِذعان ، طائعة مختارة وهى ترى عقولها أَشد فقراً وحاجة إلى ما جاءَ به ، ولا كمال لها إلا بما جاءَ به ؟

فهو الذى كمل عقولها ، كما يكمل الطفل برضاع الثدى ولهذا فإن أَتباعه ، أَعقل الخلق على الإِطلاق .

وهذه ، مؤلفاتهم ، وكتبهم فى الفنون ، إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ، ظهر لك التفاوت بينها .

ويكفى فى عقولهم ، أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب بالإيمان والتقوى .

فكيف يكون متبوعهم مجنونا ، وهذا حال كتابه وهديه ، وسيرته ، وحال أتباعه ؟

وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم . فنفى عنه الجنون ، بنعمته عليه .

وقد اختلف فى تقدير الآية .

فقالت فرقة : الباءُ فى (بنعمة ربك) باءُ القسم ، فهو قسم آخر ، اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه ، كما يقول . ما أنت بالله بكاذب .

وهذا التقدير ضعيف جداً ؛ لأنه قد تقدم القسم الأول .

فكيف يقع القسم الثانى فى جوابه ؟

ولا يحسن أن تقول : والله ما أنت بالله بقائم .

وليس هذا من فصيح الكلام ، ولاعهد فى كلامهم .

وقالت فرقة : العامل فى (بنعمة ربك) أداة معنى النفى ، أو معنى أنفى عنك الجنون بنعمة ربك .

ورد أبو عمر ، ابن الحاجب وغيره هذا القول ، بأن الحروف لاتعمل معانيها ، وإنما تعمل ألفاظها .

وقال الزمخشرى يتعلق (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) منفيا كما يتعلق بعاقل مثبتا ، فى قولك : أَنت بنعمة الله عاقل ، يستويان فى ذلك الإثبات ، والنفى ، استواءهما فى قولك ضرب زيد عمرا ، وما ضرب زيد عمرا ، يعمل الفعل مثبتا ومنفيا ، إعمالا واحدا .

ومحله النصب على الحال ، أى : ماأنت بمجنون منعما عليك بذلك .

ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ؛ لأَنها زائدة لتأْكيد النفى .

واعترض عليه ، بأَن العامل إذا تسلط على محكوم به ، وله معمول ، فإنه يجوز فيه وجهان :

أَحدهما : نفى ذلك المعمول فقط ، نحو قولك : ما زيد بذاهب مسرعا .

فإنه ينتفى الإسراع دون القيام ، ولايمتنع أن يثبت له ذهاب فى غير إسراع .

والثانى : ينفى المحكوم به ، فينتفى معموله بانتفائه ، فينتفى الذهاب فى هذه الحال ، فينتفى الإسراع بانتفائه .

فإذا جعل (بِنِعْمَةِ رَبِّك) معمولا لمجنون ، لزم أحد الأمرين ، وكلاهما ، منتف جزما .

وهذا الاعتراض هنا فاسد ، لأن المعنى إذا حصل ، ما أنت بمجنون منعما عليك ، لزم من صدق هذا الخبر ، نفيها قطعا ، ولا يصح نفى المعمول ، وثبوت العامل فى هذا الكلام .

ولا يفهم منه ، من له آلة الفهم ، وإنما يفهم الآدمى من هذا الكلام ، أن الجنون انتفى عنك ، بنعمة الله عليك .

وانتفى عنا ، ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا .

ثم أخبر سبحانه ، عن كمال حالتَىْ نبيه صلى الله عليه وسلم ، فى دنياه وأُخراه فقال (٦٨ القلم : وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ٣) أى : غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر .

ونكَّر الأَجر ، تنكير تعظيم . كما قال (إِنَّ فِى لَعِبْرَةً) و (١٤ الحجر : إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينْ) و (٣٩ الزمر : ٢١ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ (١)) و (٧٨ النبأ : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١) و (٣٨ ص وإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ٢٥) وهو كثير .

وإنما كان التنكير للتعظيم ، لأَنه صُوِّر للسامع بمنزلة أَمر عظيم ، لايدركه الوصف ، ولا يناله التعبير .

ثم قال (٦٨ القلم : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤) وهذه من أَعظم آيات نبوته ورسالته ، بأَن منحه الله فهما .

ولقد سئلت أُم المؤمنين (٢) عن خلقه صلى الله عليه وسلم .

فأَجابت بما شفى وكفى ، فقالت : كان خلقه القرآن . فَهمَّ سائلها أَن يقوم ، لايسأَلها شيئا بعد ذلك .

---

(١) وضعنا هذه الكلمة لأنها ختام الآية .

(٢) هى عائشة رضى الله عنها ، سألها سعد بن هشام بن عامر ، عن وتر النبى ﷺ وعن خلقه .

وحديثها ، أخرجه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى .

وهو فى المنتقى رقم (١٢٠٢) .

ومن هذا قال ابن عباس وغيره : أى على دين عظيم .

وسمى الدين ، خُلُقًا ، لأَن الخلق ، هيئة مركبة من علوم صادقة ، وإرادات زاكية ، وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة ، وأَقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأَقوال والأَعمال ، عن تلك العلوم والإرادات ، فتكتسب النفس بها أَخلاقا ، هى أَزكى الأَخلاق ، وأَشرفها ، وأَفضلها .

فهذه كانت أَخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المقتبسة من مشكاة القرآن .

فكان كلامه مطابقا للقرآن ، تفصيلا له ، وتبيينا ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأَعماله ، ما أَوجبه ، وندب إليه القرآن .

وإعراضه وتركه ، لما منع منه القرآن ، ورغبته ، فيما رغَّب فيه .

وزهده ، فيما زهَّد فيه ، وكراهته لما كرهه .

ومحبته لما أَحبه ، وسعيه فى تنفيذ أَوامره ، وتبليغه . والجهاد فى إقامته .

فترجمت أُم المؤمنين ، لكمال معرفتها بالقرآن

وبالرسول صلى الله عليه وسلم ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : « كان خلقه القرآن » وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى . فاكتفى به واشتفى .

فإذا كانت أخلاق العباد ، وعلومهم ، وإراداتهم ، وأعمالهم مستفادة من « القلم وما يسطرون » وكان فى خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم ، إذ وصلوا به إلى ذلك .

فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه ، على عبده ورسوله ، الذى أعطاه أعلى الأخلاق ، وأفضل العلوم ، والأعمال ، والإرادات ، التى لاتهتدى العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة ؟

فهل هذا ، إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته ؟

وسيعلم أعداؤه المكذبون له ، أيهم المفتون ؟ هو أم هم ؟

وقد علموا هم ، والعقلاءُ ذلك فى الدنيا .

ويزداد علمهم فى البرزخ ، وينكشف ، ويظهر كل الظهور فى الآخرة ، بحيث تتساوى أقدام الخلائق فى العلم به .

وقد اختلف فى تقدير قوله (بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) فقال أبو عثمان المازنى :

هو كلام مستأنف ، و« المفتون » عنده مصدر ، أى : بأيكم الفتنة .

والاستفهام ، عن أمر دائر بين اثنين ، قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعا ، فتعين حصوله للآخر .

والجمهور ، على خلاف هذا التقدير . وهو عندهم ، متصل بما قبله ، ثم لهم فيه أربعة أوجه :

(أحدها) أن الباءَ زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون .

وزيدت فى المبتدأ ، كما زيدت فى قولك : بحسبك أن تفعل . قاله أبو عبيد .

(الثانى) أن المفتون بمعنى الفتنة ، أى : ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة .

والباءُ على هذا ، ليست بزائدة . قاله الأخفش .

(الثالث) أن المفتون ، مفعول على بابه ، ولكن هنا مضاف محذوف ، تقديره ، بأيكم فتون المفتون ، وليست الباءُ زائدة ، قاله الأخفش أيضاً .

(الرابع) أَن الباءِ بمعنى « فى » والتقدير « فى أَى فريق منكم النوع المفتون » ؟ والباءُ على هذا ، ظرفية .

وهذه الأَقوال كلها ، تكلف ظاهر ، لاحاجة إلى شىءٍ منه .

و (سَتُبْصِرُ) مضمن معنى « تشعر » و« تعلم » ، فَعُدِّىَ بالباءِ ، كما تقول : ستشعر بكذا ، وتعلم به . قال تعالى (٩٦ العلق : أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى ١٤) وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب ، فلا تجب من دعاك إليه ، من مكان بعيد .

(٥٦) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٥٦ الواقعة : فَلَاأُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم ٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيم ٧٧ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ ٧٨ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٨٠) .

ذَكَر سبحانه ، هذا القسم ، عقيب ذكر القيامة الكبرى ، وأَقسام الخلق فيها .

ثم ذكر الأَدلة القاطعة على قدرته ، وعلى المعاد ،

بالنشأة الأُولى ، وإخراج النبات من الأَرض ، وإنزال الماءِ من السماءِ ، وخلق النار .

ثمّ ذكر بعد ذلك ، أَحوال الناس فى القيامة الصغرى ، عند مفارقة الروح للبدن . وأَقسم بمواقع النجوم ، على ثبوت القرآن ، وأنه تنزيله .

وقد اختلف فى النجوم ، التى أَقسم بمواقعها .

فقيل : هى آيات القرآن ومواقعها : نزولها شيئا بعد شيءٍ .

وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما ، فى رواية عطاء ، وقول سعيد بن جبير ، والكلبى ، ومقاتل ، وقتــادة .

وقيل : النجوم هى : الكواكب ، ومواقعها : مساقطها عند غروبها .

هذا قول أَبى عبيدة وغيره .

وقيل : مواقعها : انتثارها وانكدارها يوم القيامة ، وهذا قول الحسن .

ومن حجة هذا القول ، أَن لفظ « مواقع » تقتضيه ،

فإنه مفاعل من « الوقوع » ، وهو السقوط . فلكل نجم موقع وجمعها مواقع .

ومن حجة قول من قال : هى مساقطها عند الغروب ، أَن الرب تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها ، وجريانها وغروبها .

إذ فيها وفى أَحوالها الثلاث ، آية وعبرة ودلالة كما تقدم فى قوله تعالى (٨١ التكوير : فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦) وقال(٥٣ النجم : والنَّجْمِ إِذَا هَوَى ١) وقال (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمغَارِبِ) ويرجح هذا القول أَيضاً أَن النجوم حيث وقعت فى القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى (٥٢ الطور : وإِدْبار النُّجُومَ ٤٩) وقوله (٧ الأَعراف : والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ ٥٤) .

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم فى القسم ، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه :

(أَحدها) : أَن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الجهل والغى . فتلك هداية فى الظلمات الحسية ، وآيات القرآن فى

الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهدايتين ، مع مافى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفى آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن ، والنجوم آياته المشهودة المعاينة . والقرآن آياته المتلوة السمعية . مع مافى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول .

ومن قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد ، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد ، والموقع اسم جنس ، والمصادر إذا اختلفت جمعت ، وإذا كان النوع واحدا أُفردت ، قال تعالى (٣١ : إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ١٩) فجمع الأَصوات لتعدد النوع ، وأَفرد صوت الحمير لوحدته . فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه . وتعدد المواقع لتعدده ، إذ لكل نجم موقع .

(٥٧) فصل

والمقسم عليه ههنا قوله (٥٦ الواقعة : إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٧) ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله : (٥٦ الواقعة : وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦) .

ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف فى جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى (لَوْ تَعْلمُونَ عَظِيمٌ) .

فجاءَ هذا الاعتراض ، فى ضمن هذا الاعتراض ، أَلطف شيءٍ وأَحسنه موقعا .

وأَحسن مايقع هذا الاعتراض ، إذا تضمن تأكيداً أَو تنبيها ، أَو احترازا .

كقوله تعالى (٧ الأَعراف : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَانُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٤٢) .

فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله : (لَانُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) لما تضمنه ذلك ، من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم : أَن الوعد ، إنما يستحقه من أَتى بجميع الصالحات ، فرفع ذلك بقوله (لَانُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) .

وهذا أَحسن من قول من قال : إنه خبر عن الذين آمنوا ، ثم أَخبر عنهم بخبر آخر . فهما خبران عن مخبر واحد .

فإن عدم التكليف فوق الوسع ، لايخص الذين

آمنوا ، بل هو حكم شامل لجميع الخلق ، مع مافى هذا التقدير ، من إخلاءِ الخبر عن الرابط ، وتقدير صفة محذوفة أى نفسا منهم ، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة .

ومن ألطف الاعتراض و أحسنه قوله تعالى (١٦ النحل : وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبُحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ٥٧) فاعترض بقوله (سبحانه) بين الجعلين .

وفوائد الاعتراض تختلف ، بحسب قصد المتكلم ، وسياق الكلام ، من قصد الاعتناءِ ، والتقرير ، والتوكيد وتعظيم المقسم به والمخبر عنه ، ورفع توهم خلاف المراد ، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك .

فمن الاعتراض الذى يقصد به التقرير والتوكيد ، قول الشاعر :

لَوْ أَنَّ الْبَاخِلِينَ - وَأَنْتَ مِنْهُمْ -
رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ المِطَالَا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر ، قول الآخر :

فَلَا هَجْرُهُ يبْدُو - وَفِى الْيَأْسِ رَاحَةٌ -
وَلَا وَصْلُهُ يَصْفُو لَنَا فَنُكَارِمَهُ

فقوله : وفى اليأْس راحة ، جواب لتقدير سؤال

سائل « وما يغنى عنك هجوه » ؟ فقال : « وفى اليأْس راحـة » .

أَى : المطلوب أَحد أَمرين : إما يأْس مريح . أَو وِصَال صافٍ .

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدى :

أَلَا زَعَمَتْ بَنُو جَعْدٍ بأَنِّى
ـ وَقَدْ كَذَبُوا ـ كَبِيرُ السِّنِّ فَانِى

ومنه قول نصيب :

فَكِدْتُ ـ وَلَمْ أُخْلَقْ مِنَ الطَّيْر ـ إِنْ بَدَا
سَنَا بَارِقٍ نَحْوَ الْحِجَازِ أَطِيرُ

فقوله : « لم أُخلق من الطير » لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار لو قال « فكدت أَطير » فيقال له : « وهل خلقت من الطير » ، فاحترز بهذا الاعتراض .

وعندى أَن هذا الاعتراض ، يفيد غير هذا ، وهو : قوة شوقه ، ونزوعه إلى أَرض الحجاز .

فأَخبر أَنه كاد يطير ، على أَنه أَبعد شىءٍ من الطيران ، فإنه لم يخلق من الطير .

ولا عجب طيران من خُلِقَ من الطير ، وإنما العجب ، طيران من لم يخلق من الطير ، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه ، فتأمله .

ومن مواقع الاعتراض ، الاعتراض بالدعاء ، كقول الشاعر :

قَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَأَنْتِ رَاضِيَةٌ
حَذَارِ هَذَا الصُّدُودَ وَالْغَضَب

إِنْ تَمَّ ذَا الْهَجْرُ يَا ظَلُومُ - وَلَا
تَمَّ - فَمَا لِي فِي الْعَيْشِ مِنْ أَرَبِ

وقول الآخر :

إِنَّ سُلَيْمَى وَاللهُ يَكْلَؤُهَا
ضَنَّتْ بِشَيْءٍ مَا كَانَ يَرْزَؤُهَا

وقول الآخر :

إِنَّ الثَّمانِينَ - وَبُلِّغْتَهَا
قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانِ

ومنه الاعتراض بالقسم ، كقوله :

ذَاكَ الَّذِي - وَأَبِيكَ - يَعْرِفُ مَالِكًا
وَالْحَقُّ يَدْفَعُ تُرَّهَاتِ الْبَاطِلِ

ومن اعتراض الاستعطاف قوله :

فَمَنْ لِي بِعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً
إِلَيَّ بِهَا - نَفْسِي فِدَاؤُكَ - تَنْظُرُ

فاعترض بقوله : نفسى فداؤك ، استعطافا .

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته فى قول الرب تعالى (١٦ النحل : وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَة - وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ - قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ١٠١).

فقوله (والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) اعتراض بين الشرط وجوابه أَفاد أُمورا :

منها : الجواب عن سؤال سائل : « ما حكمة هذا التبديل ، وما فائدته ؟ »

ومنها أَن الذى بدل وأَتى بغيره ، منزل محكم نزوله قبل الإِخبار بقولهم .

ومنها أَن مصدر الأَمرين ، عن علمه تبارك وتعالى ، وأَن كلا منهما منزل ، فيجب التسليم والإِيمان بالأَول والثـــانى .

ومن الاعتراض الذى هو فى أَعلى درجات الحسن

قوله تعالى (٣١ لقمان : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ — حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ — أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ١٤) فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به ، توكيداً لأمر الوصية بالوالدة التى التى هذا شأنها ، وتذكيرا لولدها بحقها ، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب . ومنه قوله تعالى (٢ البقرة : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ٧٣) .

فاعترض بقوله : (وَاللَّهُ مخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمونَ) بين الجمل المعطوف بعضها على بعض ، إعلاماً بأن تدارؤهم وتدافعهم فى شأن القتيل ، ليس نافعا لهم فى كتمانه ، فالله يظهره ولابد .

ولا تستطل هذا الفصل وأمثاله ؛ فإنه يعطيك ميزاناً وينهج لك طريقاً يعينك على فهم الكتاب والله المستعان .

(٥٨) فصل

ثم قال : (٥٦ الواقعة : إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٧) فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ، ومنافعه ، وجلالته ؛ فإن الكريم ، هو البَهِيُّ الكثير الخير ، العظيم النفع ، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله .

والله سبحانه ، وصف نفسه بالكرم . ووصف به كلامه . ووصف به عرشه . ووصف به ، ما كثر خيره ، وحسن منظره . من النبات ، وغيره ، ولذلك فسر السلف « الكريم » بالحسن .

وقال الكلبي : إنه لقرآن كريم . أى : حسن كريم على الله .

وقال مقاتل : كرمه الله وأعزه : لأنه كلامه .

وقال الأزهرى : الكريم : اسم جامع لما يحمد . والله كريم ، جميل الفعال .

وإنه لقرآن كريم ، يحمد ،لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وبالجملة ، فالكريم الذى من شأنه ، أن يعطى الخير الكثير ، بسهولة ويسر .

وضده ، اللئيم الذى لايخرج خيره النزر (١) إلا بعسر وصعوبة . وكذلك الكريم فى الناس ، واللئيم .

---

(١) النزر : القليل .

(٥٩) فصل

ثم قال تعالى : (فى كتاب مكنون) اختلف المفسرون فى هذا .

فقيل : هو اللوح المحفوظ .

والصحيح ، أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة وهو المذكور فى قوله: (٨٠ عبس : فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ١٣ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦) .

ويدل على أنه الكتاب ، الذى بأيدى الملائكة قوله : (لايمسه إلا المطهرون) .

فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه . وهذا هو الصحيح فى معنى الآية .

ومن المفسرين من قال : إن المراد به ، أن المصحف ، لا يمسه إلا طاهر .

والأول أرجح لوجوه :

(أحدها) أن الآية سيقت تنزيها للقرآن ، أن تنزل به الشياطين ، وأن محله ، لايصل إليه فيمسه ، إلا المطهرون .

فيستحيل على أخابث خلق الله ، وأنجسهم ، أن يصلوا إليه أو يمسوه .

كما قال تعالى (٢٦ الشعراء : وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ٢١١) فنفى الفعل وتأتِّيه منهم وقدرتهم عليه .

فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه .

فإن الفعل ، قد ينتفى عمن يحسن منه ، وقد يليق بمن لايقدر عليه . فنفى عنهم الأُمور الثلاثة .

وكذلك قوله فى سورة عبس (فى صحف مكرمة ١٣ مرفوعة مطهرة بأيدى سَفَرَةٍ ١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦) .

فوصف محله بهذه الصفات ، بيانا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به .

وتقرير هذا المعنى ، أهم وأجل وأنفع ، من بيان كون المصحف لايمسه إلا طاهر .

(الوجه الثانى) أن السورة مكية ، والاعتناءُ فى السور المكية ، إنما هو بأُصول الدين ، من تقرير التوحيد ، والمعاد ، والنبوة .

وأما تقرير الأَحكام والشرائع ، فمظنة السور المدنية .

(الثالث) إن القرآن ، لم يكن فى مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإنما جمع فى المصحف فى خلافة أبى بكر .

وهذا ، وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى ، فالظاهر أنه إخبار بالواقع ، حال الإخبار ، يوضحه .

(الوجه الرابع) وهو قوله : (فى كتاب مكنون) والمكنون : المصون المستور عن الأعين ، الذى لاتناله أيدى البشر ، كما قال تعالى : (٣٧ الصافات : كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ٤٩) وهكذا قال السلف .

قال الكلبى : مكنون من الشياطين .

وقال مقاتل : مستور .

وقال مجاهد : لايصيبه تراب ولاغبار .

وقال أبو إسحق : مصون فى السماء يوضحه .

(الوجه الخامس) أن وصفه بكونه مكنونا ، نظير وصفه بكونه محفوظا فقوله (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فى كِتَابٍ مَكْنُونٍ) كقوله (٨٥ البروج : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ٢٠ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) يوضحه .

(الوجه السادس) أن هذا أبلغ فى الرد على المكذبين ،

وأبلغ فى تعظيم القرآن ، من كون المصحف لايمسه محدث .

(الوجه السابع) قوله (لايمسه إلا المطهرون) بالرفع فهذا خبر لفظا ومعنى . ولو كان نهيا ، لكان مفتوحا .

ومن حمل الآية على النهى ، احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره ، إلى معنى النهى .

والأصل فى الخير والنهى ، حمل كل منهما على حقيقته .

وليس ههنا موجب ، يوجب صرف الكلام عن الخبر ، إلى النهى .

(الوجه الثامن) أنه قال : (إلا المطهرون) ولم يقل إلا المتطهرون .

ولو أراد به منع المحدث من مسه ، لقال إلا المتطهرون كما قال تعالى (٢ البقرة : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢) .

وفى الحديث اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين (١) » .

فالمتطهر ، فاعل التطهير ، والمطهَّر الذى طهره غيره ، فالمتوضئ متطهِّر ، والملائكة مُطهَّرون .

(الوجه التاسع) أَنه لو أُريد به المصحف ، الذى بأَيدينا ، لم يكن فى الإخبار عن كونه مكنونا ، كبير فائـــدة .

إذ مجرد كون الكلام مكنونا فى كتاب ، لايستلزم ثبـوتـه .

فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونا فى كتاب ، وهذا أَمر مشترك ،

والآية ، إنما سيقت لبيـــان مدحه وتشريفه ،

---

(١) رواه الترمذى عن أبى إدريس الخولانى ، عن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : « أشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين » . فتحت له ثمانية أبواب الجنة ، يدخل من أيها شاء .

قال الترمذى : وهذا حديث فى إسناده اضطراب ، ولا يصـــح عن النبى ﷺ ، فى هذا الباب كثير شىء .

قال البخارى ، وأبو إدريس ، لم يسمع عن عمر شيئاً . ا هـ .

وما اختص به من الخصائص ، التى تدل على أنه منزل من عند الله ، وأنه محفوظ مصون ، لا يصل إليه شيطان بوجه مَّا ، ولايمس محله إلا المطهرون ، وهم السَّفَرَةُ الكرام البررةِ .

(الوجه العاشر) ما رواه سعيد بن منصور فى سننه ، حدثنا أَبو الأَحوص ، حدثنا عاصم الأَحول ، عن أَنس ابن مالك فى قوله (لايمسه إلا المطهرون) قال : المطهرون الملائكة .

وهذا عند طائفة من أَهل الحديث ، فى حكم المرفوع .

وقال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا ، فى حكم المرفوع .

ومن لم يجعله مرفوعا ، فلا ريب أَنه عنده ، أَصح من تفسير مَنْ بعد الصحابة .

والصحابة ، أَعلم الأُمة بتفسير القرآن . ويجب الرجوع إلى تفسيرهم .

وقال حرب فى مسائله : سمعت إسحق فى قوله (لايمسه إلا المطهرون) قال : النسخة التى فى السماء ، لا يمسها إلا المطهرون . قال : الملائكة .

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية ، على أن المصحف لايمسه المحدث بوجه آخر فقال :

هذا من باب التنبيه والإشارة ، إذا كانت الصحف التى فى السماء ، لايمسها إلا المطهرون ، فكذلك ، الصحف التى بأيدينا من القرآن ، لاينبغى (١) أن يمسها إلا طاهر . والحديث مشتق من هذه الآية .

وقوله ، لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر ، رواه أهل السنن ، من حديث الزهرى ، عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن أبيه عن جده : أن فى الكتاب الذى كتبه النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن فى

---

(١) أقول : « لا ينبغى » لاتفيد لغة وشرعاً حرمة مس المحدث للقرآن ، بل تفيد أن الأفضل أن لايمس القرآن إلا المتوضىء . وهناك أمر آخر وهو أن كلمة : (طاهر) مشترك معنوى فى عرف الفقهاء ، تطلق على الطهارة من النجاسة وعلى الطهارة من الحدث وعلى الطهارة من الشرك كما قال تعالى : (إنما المشركون نجس) فإذا كانت كلمة (طاهر) مشتركة بين تلك المعانى فلا نستطيع تخصيصها بواحد من تلك المعانى بدون مخصص شرعى لأن التفريق بين المتماثلات بدون مفرق تحكم ظاهر.

وأيضاً أن فى ثبوت الحديث نظر . نعم فكتاب النبى ثابت جملة لكن ليس كامل ما فيه متفق عليه ، والأحكام الشرعية لا تثبت إلا بالأحاديث الصحيحة والحسنة لذاتها ، فمن هذا البيان يسقط قول من قال بحرمة مس المحدث للقرآن .

السنن ، والفرائض ، والديات (أن لايمس القرآن إلا طاهر) قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحا .
وقال أيضاً : لا أشك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه .

وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهورعند أهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد . لأنه أشبه التواتر فى مجيئه ، لِتلقِّى الناس له بالقبول والمعرفة .

ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء ، وما فيه فمتفق عليه إلا قليلا .

وقد رواه ابن حبان فى صحيحه ، ومالك فى موطئه

وفى المسألة آثار أُخر مذكورة ، فى غير هذا الموضع .

(٦٠) فصل

ودلت الآية ، بإشارتها وإيمائها ، على أنه لايدرك معانيه ، ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة .

وحرام على القلب المتلوث ، بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغى .

قال البخارى فى صحيحه فى هذه الآية : لا يجد طعمه ، إلا من آمن به .

وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته ، وفهمه وتدبره ، إلا من شهد أنه كلام الله ، تكلم بها حقا ، وأنزله على رسوله وحيا .

ولا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه حرج منه ، بوجه من الوجوه .

فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ، فى قلبه منه حرج .

ومن لم يؤمن ، بأن الله سبحانه تكلم به وحيا ، وليس مخلوقا من جملة مخلوقاته ، فى قلبه منه حرج .

ومن قال : إن له باطنا ، يخالف ظاهره ، وإن له تأويلا ، يخالف ما يفهم منه ، فى قلبه منه حرج .

ومن قال : إن له تأويلا لا نفهمه ولا نعلمه ، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ، فى قلبه منه حرج .

ومن سلط عليه آل الآرائيين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المسفسطين ، وخيالات المتصوفين ، فى قلبه منه حرج .

ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه ، وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففى قلبه منه حرج ،

ومن لم يحكمه ، ظاهرا ، وباطنا ، فى أصول الدين وفروعه ، ويسلم وينقاد لحكمه ، أين كان ، ففى قلبه منه حرج .

ومن لم يأتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه ، ففى قلبه منه حرج .

وكل هؤلاء ، لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغى أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ، ما وجده الصحابة ومن تبعهم .

وأنت إذا تأملت قوله (لا يمسه إلا المطهرون) وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ إيمائه وإشارته وتنبيهه ، وقياس الشىء على نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت المشابهة التى عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن - فهمت هذه المعانى كلها من الآية ، وبالله التوفيق

(٦١) فصل

ثم أكد ذلك وقرره ، وأطده ، بقوله : (تنزيل من رب العالمين) .

وكما أنه لازم لكونه قرآنا كريما ، فى كتاب مكنون فهو ملزوم له .

وأفاد كونه تنزيلا من رب العالمين ، مطلوبين عظيمين ، من أَجَلِّ مطالب الدين :

(أحدهما) أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ ، وهو الذى تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ .

ونظيره (٣٢ السجدة : وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى ١٣)
وقوله : (١٦ النحل : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ١٠٢)

(والثانى) عُلُوُّ الله سبحانه ، فوق خلقه .

فإن النزول والتنزيل ، الذى تعقله العقول ، وتعرفه الفطر – هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل .

والرب تعالى ، إنما يخاطب عباده ، بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم .

وذكر التنزيل ، مضافا إلى ربوبيته للعالمين ،

المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم .

وأن من هذا شأْنه مع الخلق ، كيف يليق به ـ مع ربوبيته التامة ـ أن يتركهم سدى ، ويدعهم هملا ، ويخلقهم عبثا ، لا يأْمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ، ولا يعاقبهم .

فمن أَقر بأَنه رب العالمين ، أَقر بأَن القرآن تنزيله على رسوله ،

واستدل بكونه رب العالمين ، على ثبوت رسالة رسوله ، وصحة ما جاء به .

وهذا الاستدلال ، أَقوى وأَشرف ، من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وإن كانت دلالتها أَقرب الى أَذهان عموم الناس .

وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

وقد أَشار سبحانه ، إلى الطريقين فى غير موضع من كتابه . كقوله (٤١ فصلت : سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ٥٣) .

فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة .

ثم قال : (أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ شَهِيدٌ) فهذا

استدلال بكمال ربوبيته ، وكمال أوصافه ، على صدق رسوله ، فيما جاء به .

وهذه الطريق ، أخص وأقوى ، وأكمل وأعلى . والأول ، أعم وأشمل .

وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل) .

وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالى ، وكماله المقدس ، على ثبوت نبوة النبي وبعثه ، من الاستدلال عليه ، ببعض مخلوقاته ؟

وتأمل فرق مابين استدلال سيدة نساء العالمين ، خديجة رضى الله عنها ، بصفات الرب تعالى ، وصفات محمد صلى الله عليه وسلم ، واستنتاجها من بين هذين الأمرين ، صحة نبوته ، وأنه رسول الله حقا .

وأن من كانت هذه صفات ربه وخالقه ، تأبى أن يخزيه ، وأن يؤيده ، ويعليه ، ويتم نعمته عليه (١)

---

(١) روى البخارى فى « بدء الوحى » ، من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها .

فرجع بها ﷺ يرجف ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : « زملونى زملونى » .

—

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة ، وهذا الاستدلال ، وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين ، من الفرق ، مالا يخفى .

وإذا حصل للعبد ، الفقه فى الأسماء والصفات ،انتفع به فى باب معرفة الحق والباطل من الأقوال ، والطرائق والمذاهب والعقائد — أعظم انتفاع ، وأتمه .

وقد بينا فى كتابنا المعالم (١) بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوبة من أسماء الرب وصفاته ، وأنه يستحيل على الحكيم ، أن يحرم الشىء ويتوعد على فعله ، بأعظم أنواع العقوبات ، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه ، بأنواع التحميلات .

فأين ذلك الوعيد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيـــد .

فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فقال لخديجة — وأخبرها الخبر — « لقد خشيت على نفسى .

فقالت : كلا والله ، ما يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

(١) كذا . ولعله كتاب « أعلام الموقعين » الذى لم يؤلف فى أصول الدين، مثله ، ولم ينسج أحد على منواله .

إذ ليست حكمة الرب تعالى ، وكمال علمه ، وأسمائه وصفاته ، تنتقص بإحالة ذلك وامتناعه عليه .

فهذا استدلال بالفقه الأكبر ، فى الأسماء والصفات ، على الفقه العملى ، فى باب الأمر والنهى .

وهذا باب حرام ، على الجهمى المعطل ، أن يلجه إلى الجنة .

حرام عليه ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة .

والله العزيز الوهاب ، لامانع لما أعطى ، ولامعطى لما منع ، وبه التوفيق .

(٦٢) فصل

ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الإدهان فى غير موضعه ، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به ، ويفرق به ، ويعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله .

ولايلتوى عنه ، لايَمْنَةً ولايَسْرَةً ، ولايكون للقلب ، التفات إلى غيره ، ولامحاكمة إلا إليه ، ولامخاصمة

إلا به ، ولا اهتداء فى طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به .

فهو روح الوجود ، وحياة العالم ، ومدار السعادة ، وقائد الفلاح ، وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر .

فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ؟ وإنما أُنزل بالحق وللحق .

والمداهنة ، إنما تكون فى باطل قوى ، لايمكن إزالته ، أو فى حق ضعيف ، لايمكن إقامته .

فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ، ويلتزم بعض الباطل .

فأما الحق الذى قام به كل حق ، فكيف يداهن به ؟

ثم قال سبحانه (٥٦ الواقعة : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ٨٢) لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق .

فرزق البدن ، الطعام والشراب ، ورزق القلب ، الإيمان والمعرفة بربه وفاطره ، ومحبته ، والشوق إليه ، والأُنس بقربه والابتهاج بذكره ،

وكان لاحياة له إلا بذلك ، كما أن البدن لاحياة له إلا بالطعام والشراب - أنعم (١) سبحانه ، على عباده ، بهذين النوعين من الرزق .

وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما .

ثم فاوت سبحانه بينهم فى قسمة هذين الرزقين ، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته :

فمنهم من وفر حظه من الرزقين ، ووسع عليه فيهما .

ومنهم من قَتَّر عليه فى الرزقين . .

ومنهم ، من وسَّع عليه رزق البدن ، وقتر عليه رزق القلب ، وبالعكس .

وهذا الرزق ، إنما يتم ويكمل ، بالشكر . والشكر مادة زيادته (١) وسبب حفظه وبقائه .

وترك الشكر ، سبب زواله ، وانقطاعه عن العبد .

فإن الله تعالى تأذَّن أنه ، لابد أن يزيد الشكور من نعمه ، ولابد أن يسلبها من لم يشكرها .

---

(١) قوله « أنعم إلخ » جواب لقوله السابق (لما كان قوام إلخ) .

(٢) قوله : « والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه » . هذا معنى قولهم (الشكر صيد للمفقود ، وقيد للموجود) .

فلما وضعوا الكفر والتكذيب ، موضع الشكر والإيمان ، جعلوا رزقهم نفسه تكذيبا .

فإن التصديق والشكر ، لما كانا سبب زيادة الرزق ، وهما رزق القلب حقيقة ، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق ، التكذيب والكفر ، فجعلوا رزقهم التكذيب .

وهذا المعنى ، هو الذى حام حوله من قال :التقدير « وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون » .

وقال آخرون : التقدير « وتجعلون بدل شكررزقكم ، أنكم تكذبون » فحذف مضافين معا .

وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى .

ومن بعض معنى الآية قوله : مطرنا بنوء كذا وكذا (١) فهذا لايصح أن تدل عليه الآية ويراد بها ، وإلا ، فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى . والله أعلم .

(٦٣) فصل

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى ، كما

---

(١) النوء : النجم مال للغروب ، أو سقوط النجم فى الغرب مع الفجر ، وطلوع آخر يقابله . وكانت العرب تقول : إن انتقال الكواكب هو المؤثر فى الأمطار .

ذكر فى أولها ، أحوالهم فى القيامة الكبرى ، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام ، كما قسمهم هناك إلى ثلاثة .

وذكر بين يدى هذا التقسيم ، الاستدلال على صحته وثبوته ، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون ، فوقهم رب قاهر مالك ، يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته .

وقررهم على ذلك بما لاسبيل لهم إلى دفعه ، ولا إنكاره فقال :

(٥٦ الواقعة : فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ٨٣)

أى : وصلت الروح إلى هذا الموضع ، بحيث فارقت ولم تفارق ، فهى برزخ بين الموت والحياة .

كما أنها إذا فارقت ، صارت فى برزخ بين الدنيا والآخرة ، ملائكة الرب تعالى ، أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس ، ولكنهم لايبصرون بهم .

فلولا تردونها إلى مكانها من البدن ، أيها الحاضرون ، إن كان الأمر كما تزعمون ، أنكم غير مَجْزِيِّين ولا مَدِينينَ ، ولا مستوعبين ليوم الحساب .

فإن قيل : أى ارتباط بين هذين الأمرين ، حتى يلازم بينهما ؟

قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه .

فإنهم ، إما أَن يقروا بأَنهم مربوبون مملوكون ، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم ، قاهر آمر ، ناهٍ ، أو لايقرون بذلك .

فإن أَقروا به ، لزمهم القيام بحقه عليهم ، وشكره ، وتعظيمه ، وإجلاله ، وأَن لايجعلوا له نِدًّا ، ولاشريكا ، وهذا هو الذى جاءهم به رسوله ، ونزل عليه به كتابه .

وإن أَنكروا ذلك ، وقالوا : إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ، ولا مربوبين ، وإن الأَمر إليهم يردون الأَرواح إلى مقارها ، إذا بلغت الحلقوم .

فإن المتصرف فى نفسه ، الحاكم على روحه ، لايمتنع منه ذلك .

بخلاف المحكوم عليه ، المتصرف فيه ، غير المدبر له ، سواءٌ الذى هو عبد مملوك من جميع الجهات .

وهذا الاستدلال ، لامحيد عنه ، ولا مدفع له .

ومن أَعطاه حقه من التقرير والبيان ، انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأَجله للعبودية وأَذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية ، والإقرار بالعبودية .

ولله ، ما أحسن جزالة هـذه الألفاظ وفصاحتهـا ، وبلوغهـا أقصى مراتب البـلاغة والفصـاحة ، والاختصار التام .

ونداثها إلى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد ، والبعث .

وفصل النزاع فى معرفة الروح وأنها تصعد ، وتنزل ، وتنتقل من مكان إلى مكان .

وما أحسن إعادة « لولا » ثانيا ، قبل ذكر الفعل الذى يقتضيه الأول ، وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاءً واحداً وذكر الشرطين بين « لولا » الأولى والثانية ، وما تقتضيه من الفعل .

ثم الموالاة بين الشرط الأول والثانى ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة ، هى الرابط بين « لولا » الأُولى والثانية ، والشرط الأول والثانى ، وهذا تركيب يستحِدّ (١) العقل والسمع ، لمعناه ولفظه .

(١) قوله : « يستحد » معناه : يستنهض انتباه العقل والسمع بأقصى ما يكون من الاهتمام ، أمام هذا التركيب المعجز فى الآيتين ٨٣ و ٨٦ تجده مشروحاً أمامك .

فتضمنت الآيتان تقريرا وتوبيخا ، واستدلالا على أُصول الإِيمان :

من وجود الخالق سبحانه ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه فى أَرواح عباده .

حيث لايقدرون على التصرف فيها بشىءٍ ، وأَن أَرواحهم بيده ، يذهب بها إِذا شاءَ ، ويردها إِليهم إِذا شاءَ .

ويخلى أَبدانهم منها تارة ، ويجمع بينها وبينهما تارة .

وإِثبات المعاد ، وصدق رسوله فيما أَخبر به عنه ، وإِثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق .

وأَتى بهذا ، فى صورة تحضيضين ، وتوبيخين ، وتقريرين ، وجوابين ، وشرطين ، وجزاءَين — منتظمة أَحسن الانتظام ، ومتداخلة أَحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض .

وهذا كلام ، لايقدر البشر على مثل نظمه ومعناه .

قال الفراءُ : وأَجيبت (فلولا إِذا بلغت) و(فلولا إِن كنتم غير مدينين) بجواب واحد وهو (ترجعونها إِن كنتم صادقين) .

قال : ومثله قوله تعالى : (٢ البقرة : فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨) أجيبا بجواب واحد وهما شرطان .

قال الجرجانى : قوله (ترجعونها) جواب قوله (فلولا) المتقدمة والمتأخرة ، على تأويل : فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم ، تردونها إلى موضعها ، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين ، كما تزعمون ؟

يقول تعالى : إن كان الأمر كما تزعمون أنه لابعث ، ولا حساب ، ولا جزاء ، ولا إله ، ولا رب يقوم بذلك ، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم ؟

فإذا لم يمكنكم فى ذلك حيلة بوجه من الوجوه ، فهل دلكم ذلك على أن الأمر إلى مليك قادر قاهر ، متصرف فيكم ، وهو الله الذى لاإله إلا هو ؟

وقال أبو إسحق : معناه فهلا ترجعون الروح ، إن كنتم غير مملوكين مدبرين ؟ فهلا إن كان الأمر كما تزعمون فِىَّ كما يقول قائلكم (٣ آل عمران : ١٦٨ لَو أَطَاعُونَا مَاقُتِلُوا) و (٣ آل عمران : لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا

مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ١٥٦) أى إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلا فهلا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم ؟ وهلا تردون عن أنفسكم الموت .

قلت : وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى : (١٧ الإسراء : قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ٥٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِى فِى صُدُورِكُمْ ٥١) .

أى : إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا ، فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى ، إما من حجارة ، أو من حديد ، أو أكبر من ذلك .

ووجه الملازمة ، ما تقدم ذكره ، وهو : إما أن تقروا بأن لكم ربًّا متصرفا فيكم ، ومالكا لكم ، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته ، يميتكم إذا شاءَ . ويحييكم إذا شاءَ

فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقا جديداً بعد ما أماتكم ؟

وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك ، نافذ المشيئة فيكم ، والقدرة فيكم ، فكونوا خلقا لا يقبل الفناءَ والموت .

فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك ، فما تنكرون

من قدرة من جعلكم خلقا يموت ، ويحيا ، أن يحييكم بعد ما أماتكم ؟

فهذا استدلال ، يعجزهم عن كونهم خلقا لايموت .

والذى فى الواقعة ، استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها ، إذا قاربت الموت .

وليس بعد هذا الاستدلال ، إلا الإذعان والانقياد ، أو الكفر والعناد .

(٦٤) فصل

فلما قام الدليل ، ووضح السبيل ، وتم البرهان ، على أنهم مملوكون مربوبون ، مَجزيُّون محاسبون ـ ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول ، والقيامة الصغرى ، وهى ثلاث طبقات .

طبقة المقربين ، وطبقة أصحاب اليمين ، وطبقة المكذبين.

فجعل تحية المقربين عند الوفاة ، الرَّوْحَ والريحان ، والجنة .

وهذه الكرامات الثلاثة ، التى يعطونها بعد الموت ، نظير الثلاث التى يعطونها يوم القيامة .

فالرَّوْح : الفرح والسرور ، والابتهاج ، ولذة الروح ، فهى كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها ، وذلك قُوتُها وغذاؤها .

والريحان : الرزق ، وهو الأكل والشرب .

والجنة : المسكن الجامع لذلك كله .

فيعطون هذه الثلاث ، فى البرزخ ، وفى المعاد الثانى

ثم ذكر الطبقة الثانية ، وهى طبقة أصحاب اليمين ولما كانوا دون المقربين فى المرتبة ، جعل تحيتهم عند القدوم عليه، السلامة من الآفات والشرور ، التى تحصل للمكذبين الضالين فقال: (٥٦ الواقعة: وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ٩٠ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ٩١) .

والسلام مصدر من « سلم » ، أى : فلك السلامة والخطاب له نفسه أى : يقال : لك السلامة . كما يقال للقادم : لك الهناءُ ، ولك السلامة ، ولك البشرى ، ونحو ذلك من الألفاظ .

كما يقولون : خير مقدم ، ونحو ذلك ، فهذه تحية عند اللقاءِ .

قال مقاتل : يسلم الله لهم أمرهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويتقبل حسناتهم .

وقال الكلبى : يسلم عليه أهل الجنة ، ويقولون : السلامة لك .

وعلى هذا فقوله (من أَصْحَابِ الْيَمِينِ) أى : هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أَصحاب اليمين ، فإنه إذا قدم عليهم حيَّوْهُ بهذه التحية وقالوا : السلامة لك .

وفى الآية أَقوال أُخَر ، فيها تكلف وتعسُّفٌ ، فلا حاجة إلى ذكرها .

ثم ذكر الطبقة الثالثة ، وهى طبقة الضال فى نفسه ، المكذب لأَهل الحق ، وإن له عند الموافاة نُزُلَ الحميم ، وسُكْنَى الجحيم .

ثم أَكد هذا الجزاءَ بما جعله كأَنه رَأْىَ العين لمن آمن بالله ورسوله فقال :

(٥٦ الواقعة : إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ٩٥) .

فرفع شأْنه عن درجة الظن والعلم ، إلى اليقين ، وعن درجة اليقين ، إلى حقه .

ثم أَمره أَن ينزه اسمه تبارك وتعالى ، عما لايليق به ، وتنزيه الاسم ، متضمن لتنزيه المسمى ، عما يقوله الكاذبون والجاحدون .

فهرس

الجزء الأول

(من كتاب التبيان فى أقسام القرآن للعلامة ابن القيم)

صفحة	الموضوع	رقم الفصل
٣	كلمة الناشر	
٤	مقدمة	
٧	مقدمة المصحح	
٤٥	فصل ما يقسم الله به	١
٤٩	فصل ما يقسم الله عليه	٢
٥٦	فصل إقسامه تعالى على صفة الإنسان وعلى الجزاء	٣
٦٤	فصل من ذلك قوله تعالى (لا أقسم بيوم القيامة)	٤
٧٠	فصل من ذلك قوله (والشمس وضحاها)	٥
٨١	فصل فى سر ذكره تعالى قصة هود	٦
٨٥	فصل ومن قوله تعالى (والفجر وليال عشر إلخ)	٧
٩٥	فصل ومن ذلك قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد)	٨
١١٠	فصل ومن ذلك قوله تعالى (والتين والزيتون)	٩
١٢٩	فصل ومن ذلك قوله تعالى (والليل إذا يغشى)	١٠
١٥٢	فصل معنى قوله (إن علينا الهدى) وتفصيل أنواع الهدى	١١
١٥٧	فصل ومن ذلك قوله (والضحى والليل)	١٢
١٦٣	فصل ومن ذلك قوله (والعاديات ضبحا)	١٣

صفحة	الموضوع	رقم الفصل
١٧٠	فصل بيان المقسم عليه فى سورة العاديات	١٤
١٧٥	فصل مفعول العلم فى قوله (أفلا يعلم إذا بعثر إلخ)	١٥
١٧٥	فصل ومن ذلك قوله (والعصر)	١٦
١٨٢	فصل ومن ذلك قوله (والسماء ذات البروج)	١٧
٢٠٠	فصل ومن ذلك قوله (والسماء والطارق)	١٨
٢٠٢	فصل ومن المقسم عليه فى سورة (والسماء والطارق)	١٩
٢١٥	فصل ومن ذلك قوله (فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق)	٢٠
٢١٩	فصل جواب القسم فى هذه الآية	٢١
٢٢٤	فصل ومن ذلك قوله (فلا أقسم بالخنس)	٢٢
٢٣١	فصل معنى عسعسة الليل وذكر خلاف العلماء فيه	٢٣
٢٣٢	فصل المقسم عليه فى قوله (فلا أقسم بالخنس إلخ)	٢٤
٢٤٥	فصل صفات القرآن وأنه ذكر عام وخاص	٢٥
٢٥١	فصل ومن ذلك قوله تعالى (والنازعات غرقا)	٢٦
٢٦٨	فصل ومن ذلك قوله تعالى (والمرسلات عرفا)	٢٧
٢٧٥	فصل ومن ذلك قوله تعالى (لا أقسم بيوم القيامة)	٢٨
٢٩٠	فصل جمع الله لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن	٢٩
٢٩٢	فصل تضمن سورة القيامة إثبات قدرته تعالى على مالا يفعله	٣٠
٢٩٥	فصل تضمنها التأنى والتثبت فى طلب العلم	٣١
٢٩٨	فصل إثبات النبوة والمعاد بالعقل	٣٢
٣٠١	فصل ومن ذلك قوله (كلا والقمر إلخ)	٣٣
٣٠٨	فصل قوله تعالى (والليل إذ أدبر إلخ)	٣٤
٣١٥	فصل المقسم عليه فى هذه الآيات	٣٥
٣١٩	فصل قوله تعالى (فلا أقسم بما تبصرون)	٣٦
٣١٦	فصل ما تضمنه قوله (تنزيل من رب العالمين)	٣٧

صفحة	الموضوع	رقم الفصل
٣٥٠	فصل (فلا أقسم برب المشارق)	٣٨
٣٥٤	فصل قدرته تعالى على تبديل الخلق بخير منهم وتبدبل أمثالهم واستبداله قوماً غيرهم ووجه الجمع بين هذه الأنواع	٣٩
٣٦٠	فصل تهديده تعالى للمشركين بعد إقامة الحجة عليهم بقوله (فذرهم يخوضوا ويلعبوا)	٤٠
٣٦٥	فصل قوله (ن والقلم وما يسطرون)	٤١
٣٧٠	فصل السر فى الإقسام بالقلم	٤٢
٣٧١	فصل مراتب الأقلام ، وقلم القدر	٤٣
٣٧٣	فصل قلم الوحى	٤٤
٣٧٤	فصل قلم التوقيع عن الله عز وجل	٤٥
٣٧٤	فصل قلم طب الأبدان	٤٦
٣٧٥	فصل قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم	٤٧
٣٧٥	فصل قلم الحساب	٤٨
٣٧٦	فصل قلم الحكم الذى تثبت به الحقوق	٤٩
٣٧٦	فصل قلم الشهادة	٥٠
٣٧٧	قلم التعبير	٥١
٣٧٨	فصل قلم تواريخ العالم	٥٢
٣٧٨	فصل قلم اللغـة	٥٢
٣٧٩	فصل قلم الرد على المبطلين ، وهو القلم الجامع	٥٤
٣٨١	فصل المقسم عليه فى سورة القلم	٥٥
٣٩١	فصل قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم)	٥٦
١٩٤	فصل المقسم عليه فى هذه الآية وهو القرآن	٥٧
٤٠٠	فصل وصف القرآن بأنه كريم	٥٨

صفحة	الموضوع	رقم الفصل
٤٠٢	فصل خلاف العلماء فى الكتاب المكنون وترجيح أنه اللوح المحفوظ	٥٩
٤٠٩	فصل لا يدرك القرآن إلا القلوب الطاهرة	٦٠
٤١٢	فصل ما يفيده قوله (تنزيل من رب العالمين)	٦١
٤١٦	فصل توبيخه تعالى المشركين لوضعهم الأدهان فى غير موضعه	٦٢
٤١٩	فصل ختام سورة الواقعة بأحوال القيامة الصغرى	٦٣
٤٢٦	فصل طبقات الناس عند الحشر	٦٤

تصويب الأخطاء الواقعة فى الجزء الأول
من كتاب (التبيان فى أقسام القرآن)

الصفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٦	وبحجة	ومحجة
٤	١١	الملأً	الملإ
٧	٩	التأَليف	التأْليف
٨	١٧	والخطأً	والخطإ
٩	٤	فقرأَن	فقرأْت
٩	١١	الآراءِ	الآراءُ
٩	١٦	تأَويلات	تأْيلات
١٠	١٨	تأَويل	تأْويل
١١	١	شيءِ	شيءٌ
١١	٣	الدعاءُ	الدعاءَ
١٢	١٠	والآراءِ	والآراءَ
١٣	٤	شأَن	شأْن
١٤	٢	شأَن	شأْن
١٤	٦	يأَتى	يأْتى
١٤	١٢	يلجأَ	يلجأُ
١٥	١٦	يأَخذ	يأْخذ
١٦	٥	بتأَييد	بتأْييد
٢٣	١٧	جلاءِ	جلاءُ
٢٤	٣	الداءِ والدواءِ	الداءُ والدواءُ
٢٧	٨	صالِح الإخوان	صلح الإخوان

الصفحة	سطر	خطأ	صـــواب
٢٩	٤	الأَموى	الأُموى
٢٩	١١	قرأَت	قرأْتُ
٤٤	٤	فاستـأَنست	فاستـأْنست
٤٥ هامش	١	عا	ما
٤٦	٨	يها	بها
٤٧	٣	ولَوْ أَنْ	ولَوْ أَنَّ قُرْآنًا
٤٧	٦	وُقُفُوا	وُقِفُوا
٤٩	١	الواوِ	الواوُ
		والتاءِ	والتاءُ
٥٠	٧	أَبعد	فقد أَبعد
٥٠	١٠	إذا قبل	إذا قيل
٥٠	١٦	أَقسِمُ	أُقْسِمُ
٥١	١٧	لَوَاقِعُ	لَوَاقِعٌ
٥٢	٧	تَـأَتينَا	تـأْتينا
٥٢	٨	تـأَتينكم	تـأْتينَّكُمْ
٥٤	٢	تـأَتُوها	تـأْتوها
٥٤	١٠	المـأَمور	المـأْمور
٥٦	١٢	أَحْسَنَ	أَحْسَنِ
٦٠	٥	شأَنه	شأْنه
٦٢	٩	خطأَ	خطأٌ

الصفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٣	١٢	لخير	لخبر
٦٣	١٣	بدل	يدل
٦٤	١	بدأنا	بدأْنا
٦٤	٣	المجيد	المجيد ١
٦٤	٤	عجبوا	عجبوا ٢
٦٤	٥	الفراءِ	الفراءُ
٦٤	١٠	اللَّوَامةِ	اللَّوَّامة
٦٥	١	لِتأَتينكم	لَتَأْتيَنَّكُمْ
٦٥	٥	يأَمر	يأْمر
٧٥	١٠	الرأَس	الرأْس
٧٦	٥	وبوَّأَت	وبوأْتَ
٧٨	٥	تأَويل	تأْويل
٨٢	١٠	الشديد	الشديدة
٨٣	١	فأَهلكوا	فأُهلكوا
٨٨	٩	وتأَويلا	وتأْويلا
٩١	١٧	إذا أَدبر	إذْ أَدبر
٩٤	٤	شأَن	شَأْن
٩٦	١٥	ومشقته سقطت	والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته
٩٦	١٦	فى الهامش (بن	ابن

الصفحة	سطر	خطأ	صواب
٩٨	٧	مأَسور	مأْسور
٩٩	٦	أَنه	أحدهما أنه
١٠٠	١٤	يأَمن	يأْمن
١٠٤	١٨	أَطبقت	أُطبِقت
١٠٥	١	أَطبقت	أُطبِقت
١٠٥	٣	أَطبقت	أُطبِقت
١٠٧	١٠	لشأَن	لشأْن
١١٠	٩	والمأَلوف	والمأْلوف
١١٠	١٣	وطُور	وطُورِ
١١٤	٢	فى التأَليف	فى التأْليف
١٢١	١٢	بمن	يمن
١٢٤	١٥	تأَبى	تأْبى
١٢٥	١٤	١٥٠	ق ٓ : ٥٠
١٢٨	١٠	والتأَخير	والتأْخير
١٢٩	٦	بأَحكام	بأَحكم
١٢٩	٩	شأَنها	شأْنها
١٣٧	٤	يأَمرهم	يأْمرهم
١٣٧	٩	يأَتى	يأْتى
١٣٩	٥	مُيسَّرةٌ	مُيسَّرةً
١٣٩	٧	المأَمور	المأْمور

الصفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣٩	١٢	فالإعطاءِ	فالإعطاءُ
١٣٩	١٢	المـأَمور	المـأْمور
١٤٠	١٠	بُسِّرَ	يُسِّرَ
١٤٢	١٧	المجانية	المجانبة
١٤٣	١	لتقوى	التقوى
١٤٨	٦	إنَّ	إنْ
١٤٩	١٠	تـأَبى	تـأْبى
١٤٩	١٢	يـأَبى	يـأْبى
١٤٩	١٤	تـأَبى	تـأْبى
١٥٠	٧	شـأَن	شـأْن
١٦١	فى الهامش سطر ٦	للسائل والمحروم «٢٥»	يحذف
١٦٣	١٣	يـأَلفوته	يـأْلفونه
١٧٢	٢١	يَرُآون	يُرَآءُونَ
١٧٤	٢	المـالُ	المـالِ
١٧٦	٧	قدره	قدرة
١٧٦	١٧	بالمبدأ	بالمبدإ
١٧٧	٤	تـأَبى	تـأْبى
١٨١	٧	الاعمان	الإيمان
١٨٥	٦	ولنا	لنـا
١٨٦	١٧	للتنبيه	التنبيه

الصفحة	سطر	خطأ	صواب
١٨٨	٥	للمطعطله	المعطلة
٢٠٢	٨	بها	بها
٢٠٢	١٩	ربِّك	ربُّكَ
٢٠٩	٣	سقطما يأْتى	فحسن الاستدلال
		بعد(وقوع الآخر)	بـأَحدهما على الآخر
٢١٠	٩	ومتي	ومن
٢١٢	١٦	المرءُ	وأَصاب المرءُ
٢١٢	١٧	وأَصاب	يحذف
٢١٤	٢	معني (رويدا)	يوضع بعد سطر ٦
		وأَوجه إعرابه	
٢١٨	١٠	والليل	بـ(والليل
٢١٩	١٦	للجميع	للجمع
٢٢٥	١٧	كنب	كنت
٢٣٣	١٦	صليوسلم	صلى الله عليه وسلم
٢٣٤	٢	القرآن	تحذف هذه الكلمة
٢٣٤	١٩	شديدْ	شديدُ
٢٥٠	١٧	٧٤ وما	٧٤ المدثروما
٢٦٠	١٦	بالرجم	بالرحم
٢٦٥	٧	تـأَخذ	تـأْخذا
٢٦٧	١	بطشه	بشطة
٢٦٨	٩	عاس	عباس

الصفحة	سطر	خطأ	صـــواب
٢٧٨	١	و و	وهو
٢٧٨	١٧	ا عد	ساعد
٢٩٨	١٥	يـأَبى	يـأْبى
٣٢٦	١٨	القادر من	القادرين
٣٢٧	٧	الني	التي
٣٤٧	٦	الموت	الموتى
٣٥٠	١٠	ٮمن	بمن
٣٥٤	٧	بينهما	بينها
٣٦٦	١١	به	بها
٣٦٦	١٩	تعليمها	تعليمهما
٣٦٩	١	شأَن	شأْن
٣٧٠	٩	وأُفصحه	وأَفصحه
٣٧٩	٤	تناقضها	تناقضهم
٣٨٥	٨	عمر	عَمْرًا
٣٩٧	١١	لم	ولم
٣٩٩	٢	بِعَيْنٍ	بالعين
٤٠١	١٠	مطهرة	مطهرة ١٤
٤٠٥		فى الخير	فى الخبر
٤٠٨	١٩	كامل ما فيه	كل ما فيه
٤١٢	٥	فهو ملزوم له وأَفاد	فهودليل عليه ومدلول له . وأَفاد

الصفحة	سطر	خطأ	صواب
٢١٣	٥	لا يأمرهم	لايأمرهم
٣١٤	١٥	وأن	وأنه
٣١٥	١١	التحميلات	التحيلات
٣١٦	٢	تنتقصن	تنتقص

تم بحمد الله الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى وأوله فصل (٦٥)

رقم الإيداع : ٢٧٢٣ لسنة ١٩٧٩

مطابع الرجوى
القاهرة - عابدين
ت ٩٠٠٤٩٨ / ٩٢٤٢٦٨